المربي

مختصر

السيرة النبوية

تأليف

عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

المتوفى سنة ١٢٤٤هـ

إعداد

مركز المربِّي

للاستشارات التربوية والتعليمية

المجلد الثاني

مُخْتَصَرُ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة

المُجَلَّدُ الثَّانِي

مختصر
السيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع

٢٠١٦/٤٩٩٩٩م

الترقيم الدولي (ردمك):

I.S.B.N 978-977-744-142-1

المربي

markaz.almurabbi@gmail.com

مختصر السيرة النبوية

تأليف

عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

المتوفى سنة ١٢٤٤هـ

إعداد

مركز المربِّي

للاستشارات التربوية والتعليمية

المجلد الثاني

المربي

بسم الله الرحمن الرحيم

بعث الرجيع / [١١٥] وحديث عضل والقارة

والرَّجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان[١]، كانت الوقعة بالقرب منه فسميت به.

وعُضَل بفتح المعجمة بطن من بني الهون بن خزيمة بن مدركة.

والقارة بالقاف وتخفيف الراء بطن من الهون أيضا. وقال ابن دريد[٢]: القارة أكمة سوداء كأنهم نزلوا عندها فسموا بها.

قالوا: وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفر في آخر تمام السنة الثالثة من الهجرة نفرٌ من عضل والقارة، فذكروا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن فيهم إسلامًا، ورغبوا أن يبعث معهم نفرًا من المسلمين يفقهونهم في الدين، فبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم ستة رجال من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت من الأوس، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة البياضي، وعبد الله ابن طارق حليف لبني ظفر.

وأمَّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرثدًا، حتى إذا صار بالرجيع غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلًا.

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية، وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا

---

(١) هو ماء يعرف اليوم باسم «الوطية» يقع شمال مكة على قرابة ٧٠ كيلًا قبيل عسفان إلى اليمين، في طرف شامية ابن حمادي (واد يمر شمال مكة) من الشمال، بسفح حرة بني جابر الجنوبي. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٣٨).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٧٩).

(٣) البخاري [٣٩٨٩].

بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم بقريب من [مائة رامٍ][(١)] فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة. فقالوا: هذا تمر يثرب. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[(٢)]، وجاء القوم فأحاطوا بهم. فقالوا: لكم العهد إن نزلتم إلينا أن لانقتل منكم رجلا. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا رسولك.

فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه.

وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قطُّ خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل مرة من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق بالحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا.

---

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في المخطوط، والمثبت من الصحيح.

(٢) مكان مرتفع. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ١٩٣).

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين. فتركوه يصلي، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت. وكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل، وقال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدًا. ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله فإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن حارث فقتله.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه[(١)] مثل الظلة من الدَّبْر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء.

وفي رواية في الصحيح: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة رهط سرية عينا، وفي آخره: واستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرهم وما أصيبوا. انتهى[(٢)].

ووقع في رواية أبي الأسود عن عروة: فلما وضعوا في خبيب السلاح وهو مصلوب نادَوْهُ وناشدوه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قال: لا والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري [٣٠٤٥].

(٢) البخاري [٣٠٤٥].

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٢٥٩-٢٦١).

والدَّبْر بفتح المهملة وسكون الموحدة: الزنابير، وهي ذكور النحل. وكان عاصم بن ثابت قد أعطى الله عهدًا أن لا يمس مشركًا ولا يمسه، فكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته[(١)].

سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة

وهو موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان[(٢)]، في صفر على رأس أربعة أشهر من أحد. وكان سببها - كما قال ابن إسحاق[(٣)] وغيره - أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: إني أخشى أهل نجد عليهم. قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: ثلاثون. وفي رواية قتادة في الصحيح عن أنس أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، وفي رواية ثابت عنه: يشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن بالليل، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ثم بعثوا حرام بن ملحان بكتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، / [١١٦] فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٤).

(٢) بئر معونة كانت بلحف «أُبْلى»، وأبلى: سلسلة جبلية سوداء تقع غرب المهد إلى الشمال، وتتصل غربًا بحرة الحجاز العظيمة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٥٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٠-٢٦٢).

وفي رواية أنس في الصحيح[١]: فلما أنفذه الرمح قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. انتهى.

ثم استصرخ عليهم بني عامر، فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ قبائل من سليم ورعلا وذكوان وعصية فأجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا.

وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعموا أنها كانت على أمه.

وفي الصحيح[٢] عن أبي أسامة عن هشام بن عروة: فأخبرني أبي قال: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة. قال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع.

فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرهم فنعاهم فقال: إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا. فأخبرهم عنهم.

---

(١) البخاري [٤٠٩٢].

(٢) البخاري [٤٠٩٣].

وفي الصحيحين عن أنس: دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الذين قتلوهم ثلاثين صباحًا، يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله ورسوله[١]. قال أنس: فأنزل الله في الذين قتلوا قرآنا قرأناه ثم نسخ بعد، أي نسخت تلاوته: «بلغوا قومنا عنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه».

وروى ابن سعد[٢] عن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة.

وذكر الواقدي[٣] أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة، ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين بني لحيان وعصية وغيرهم في الدعاء.

غزوة بني النضير

قال ابن إسحاق وغيره[٤]: وكانت في سنة أربع. وفي البخاري[٥] عن عروة قال: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر.

وكان سببها - كما قال ابن إسحاق وغيره - أن عمرو بن أمية الضمري لما أعتقه عامر بن الطفيل - كما تقدم - فخرج عمرو إلى المدينة، فصادف في طريقه رجلين من

(١) البخاري [٤٠٩١]، ومسلم [٦٧٧].
(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٥٣).
(٣) مغازي الواقدي (١/ ٣٤٨).
(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٧).
(٥) ذكره البخاري (٤/ ١٤٧٨) معلقًا عن الزهري عن عروة. قال ابن القيم: «هذا وهم منه، أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر: هي غزوة بني قينقاع...». انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩)، والفتح (٧/ ٣٣٠-٣٣١).

بني عامر معهما عقد وعهد من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: من أنتما؟ فذكرا له أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما فقتلهما، وظن أنه قد ظفر ببعض ثأر أصحابه.

فلما قدم أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لقد قتلت قتيلين لأَدِيَنَّهما.

ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بني النضير ليستعين بهم دية ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية للجوار الذي كان عقده لهما، فلما أتاهم عَلَيْهِ السَّلَامُ يستعينهم قالوا: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جنب جدار من بيوتهم. فقالوا: من رجل يعلو هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال: أنا لذلك. قال ابن سعد(٦): فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

قال ابن إسحاق(٧): وأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام مظهرا أنه يقضي حاجة وترك أصحابه في مجلسهم ورجع مسرعا إلى المدينة. واستبطأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، فقاموا إليه حتى انتهوا إليه فأخبرهم بما أراد يهود.

قال ابن عقبة: وأنزل الله في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ [المائدة:١١] الآية. فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم.

---

(٦) الطبقات الكبرى (٢/ ٥٧).

(٧) سيرة ابن هشام، (٣/ ٢٦٨).

قال ابن هشام[١]: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصروهم، فتحصنوا منه في الحصون، فقطع النخل وحرقها وخرب، فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

قال السهيلي[٢]: قال أهل التأويل: وقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شيء، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ [الحشر:٥] الآية.

قال ابن إسحاق[٣]: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا. فقذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم، فسألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم.

وفي الصحيح[٤] من حديث ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة[٥]، ولها يقول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان / [١١٧] بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرقٍ في نواحيها السعير

ستعلم أينا منها بنُزْهٍ[٦] ... وتعلم أي أرضينا تضير

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٨).

(٢) الروض الأنف (٦/ ٢٣٢).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٦٩).

(٤) البخاري [٣٠٣٢]، مسلم [١٧٤٦].

(٥) هي من أموال بني قريظة شرقي العوالي، من ظاهر المدينة المنورة، ولم تعد معروفة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٥١).

(٦) أي: ببُعد. القاموس المحيط (ص ١٦١٩).

وفي رواية: فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ الآية.

وفي رواية ابن سعد[١]: فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة، فنزلوا على ذلك، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، ثم أجلاهم عن المدينة، وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير.

قال الحافظ أبو محمد ابن حزم[٢]: وحينئذ نزل تحريم الخمر، فاحتملوا بأهليهم إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام. وكان ممن صار إلى خيبر أكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، فدانت لهم خيبر، فقسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال بني النضير بين المهاجرين خاصة، إلا أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف وكانا فقيرين.

وفى قصة بنى النضير نزلت سورة الحشر، ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو وأبو سعيد بن وهب، أسلما فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأموال، ولم يقسم منها لأحد، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما قذف الله فى قلوبهم الرعب، فقسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار إذ كانوا قد قاسموهم الأموال والديار، وكانت أموال بنى النضير لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة يضعها حيث شاء كما فى الصحيحين[٣] من حديث عمر فى قصة اختصام علي وعباس عند عمر فيما أفاء الله

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٥٧).
(٢) جوامع السيرة (ص١٤٥).
(٣) البخاري [٣٠٩٤].

على رسوله من بنى النضير، وفيه أن عمر قال: إن الله كان خص رسوله فى هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، فقال: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [الحشر:٦] الآية. فكانت هذة خالصة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفى رواية البخارى: وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله[١].

غـزوة ذات الرقـاع[٢]

واختلف فيها متى كانت؛ فذكر ابن إسحاق أنها بعد بني النضير سنة أربع فى شهر ربيع. وعند ابن سعد وابن حبان[٣]: فى محرم سنة خمس.

قال فى فتح الباري: قد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، واستدل لذلك بأمور، ومع ذلك فذكرها قبل خيبر، فلا أدرى هل تعمد ذلك تسليمًا لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك من اختلاف الروايات عنه، أو إشارة الى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتين مختلفتين كما أشار به البيهقى. على أن أصحاب المغازي مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون فى زمانها، قال: والذى ينبغى الجزم به أنها كانت بعد غزوة بنى قريظة، لأن صلاة الخوف فى غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف فى غزوة ذات الرقاع، [فدلَّ على تأخرها بعد الخندق[٤].

---

(١) البخاري [٢٩٠٤، ٤٨٨٥]، ومسلم [١٧٥٧].

(٢) كانت في موضع اسمه نخل، وهو الوادي الذي تقع فيه بلدة الحناكية شرق المدينة على مائة كيل. معجم المعالم الجغرافية (ص ٣١٧).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ٦١)، وثقات ابن حبان (١/ ٢٥٧).

(٤) الفتح (٧/ ٤٨١).

وسميت ذات الرقاع][(١)] لما روى البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا ونقبت قدمي وسقطت أظفارى، فكنَّا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا.

فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه[(٢)].

وكان من خبر هذه الغزوة - كما قال ابن إسحاق[(٣)] وغيره - أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزا نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة - بالمثلثة - من غطفان، لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري - وقيل: عثمان بن عفان - حتى نزل نخلا - بالخاء المعجمة - موضعًا من نجد من أرض غطفان. قال ابن سعد[(٤)]: فلم يجد في محالهم إلاَّ نسوة فأخذهن.

وقال ابن إسحاق[(٥)]: فلقي جمعا منهم فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضًا، فصلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس صلاة الخوف. قال ابن سعد[(٦)]: وكان ذلك أول ما صلاها.

---

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في المخطوط، والمثبت من طبعتي الفقي (ص٢٣٠)، والطويان (ص٣١٥).

(٢) البخاري [٤١٢٨]، ومسلم [١٨١٦].

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨٥).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٦١).

(٥) سيرة ابن هشام(٣/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٦) الطبقات الكبرى (٢/ ٦١).

وفى رواية البخاري[١] عن جابر: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله. قال جابر: فإذا رسول الله يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفى رواية[٢]: وأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع وللقوم ركعتان.

وفى رواية أبي عوانة[٣]: فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: من يمنعك مني؟ قال:كن خير آخذ. قال: أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ فقال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. قال: فخلى سبيله، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وفى هذه القصة فرط شجاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال. وفيها حفظ الله له، وإلَّا فما الذي / [١١٨] أحوج الأعرابي إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله.

---

(١) البخاري [٤١٣٥].

(٢) البخاري [٤١٣٦].

(٣) الفتح (٧/ ٤٩٢- ٤٩٣).

وفي انصرافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة أبطأ جمل جابر بن عبد الله فنخسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانطلق متقدمًا بين يدي الركاب، ثم قال: أتبيعنيه؟ فابتاعه منه، وقال: لك ظهره إلى المدينة. فلما وصلها أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل[(١)].

غزوة بدر الأخيرة

قال ابن إسحاق[(٢)]: ولما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، وهو ما سبق أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة.

فأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان، وخرج أبو سفيان حتى وصل مجنة من ناحية مرّ الظهران، ثم بدا له الرجوع فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلاّ عام خصب، وإن عامكم عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

فرجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام عَلَيْهِ السَّلَامُ ببدر ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا الدرهم درهمين[(٣)]، وأنزل الله في ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [آل عمران:١٧٢] الآية.

(١) البخاري [٢٧١٨]، ومسلم [٧١٥].
(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩٢).
(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ٥٩-٦٠).

والصحيح أن هذه الآية نزلت في شأن حمراء الأسد كما نص عليه العماد ابن كثير[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

غزوة دومة الجندل

وهي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة أو ست عشرة[٢].

وكان سببها أنه بلغه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بها جمعًا كثيرًا يظلمون من مرَّ بهم، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع في ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة.

فلما دنا منهم لم يجد إلَّا الغنم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب مَنْ أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا، ونزل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بساحتهم فلم يلق أحدًا، فأقام بها أيامًا، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا ولم يُصَب منهم أحد[٣].

غزوة المريسيع

بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانية بينهما مهملة مكسورة وآخره عين مهملة. وهو ماء لبني خزاعة، بينه وبين الفرع يومان، وتسمى (غزوة بني المصطلق) بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة وكسر اللام بعدها قاف، بطن من خزاعة، وكانت لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٢) هي قرية في الجوف، يشرف عليها حصن مارد حصن أكيدر الكندي، والجوف: منطقة زراعة شمال تيماء على قرابة ٤٥٠ كيلًا تصلها طريق معبدة بكل من تيماء فالمدينة، وطريف فعمان. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٢٨).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩٧-٢٩٨).

وسببها أنه بلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجابوه وظعنوا للمسير إليه، وخرج عَلَيْهِ السَّلَامُ في بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت. وخرجت عائشة وأم سلمة[١].

وفي صحيح البخاري[٢] عن ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء. وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم. وفي الصحيحين[٣] من حديث عائشة: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أسفاره فذكر حديث التيمم.

قال ابن عبد البر في التمهيد[٤]: يقال: إنه كان في غزوة بني المصطلق، وجزم بذلك في الاستذكار[٥]، وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان[٦]. وفي البخاري[٧]: وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

قال أبو محمد ابن حزم[٨]: وكانت غزوة المريسع في شعبان من السنة السادسة، وأغار عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم غارُّون كما تقدم على ماء لهم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل[٩]، فقتل من قتل منهم وسبى النساء والذرية،

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٣)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٤٦)، وزاد المعاد (٣/ ٢٥٧).
(٢) البخاري [٢٥٤١]، ومسلم [١٧٣٠].
(٣) البخاري [٣٦٧].
(٤) التمهيد (١٩/ ٢٦٧).
(٥) الاستذكار (٣/ ١٤١).
(٦) الطبقات الكبرى (٢/ ٦٥)، وثقات ابن حبان (١/ ٢٦٤).
(٧) البخاري في كتاب المغازي، باب [٣٢].
(٨) جوامع السيرة (ص٢٠٦).
(٩) جزع من وادي «حَوْرة» أحد روافد ستارة، وستارة وقُديد واد واحد، إنما أوهم في تحديده حتى ظنه =

ومن السبي كانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها وأعتقها وتزوجها، وكانت امرأة حلوة من رآها أحبها، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وفي رجوع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة قال عبد الله بن أبيٍّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وذلك لشرٍّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج، فنادى الغفاري: يا للمهاجرين، ونادى الجهني: يا للأنصار. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم[(٢)]؟

وبلَّغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن أرقم مقالة عبد الله بن أبي فنزل في ذلك من عند الله سورة المنافقين[(٣)]، وتبرأ عبد الله بن عبد الله بن أبّي من أبيه، وتلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، والله لئن شئت يا رسول الله لنخرجنه، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدخول.

وقال أيضًا: بلغني أنك تريد قتل أبي وإني أخشى إن أمرتَ بذلك غيري ألاَّ تدعني نفسي أرى قاتل عبد الله يمشي على الأرض فأقتله فأدخل النار إذا قتلت مؤمنًا

=كثير من الباحثين من الساحل هو قول ابن إسحاق: «إلى الساحل»، والواقع أنه داخل عن الساحل، فبينه وبين سيف البحر قرابة ٨٠ كيلًا، بين جبال تهامة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٩٠-٢٩١).

(١) انظر: طبقات بن سعد (٢/ ٦٣-٦٥)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٤٠٨-٤٠٩).

(٢) البخاري [٣٥١٨، ٤٩٠٧ دون ذكر الأسماء]، ومسلم [٢٥٨٤].

(٣) البخاري [٤٩٠٠]، ومسلم [٢٧٧٢].

بكافر، وقد علمت الأنصار أني من أبرها لأبيه، ولكن يا رسول الله، إن أردت قتله فمرني بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا، وأخبره أنه لا يسيء إلى أبيه[(١)].

فصل

وفي مرجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة بني المصطلق قال أهل الإفك ما قالوا في عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أخرج البخاري / [١١٩] ومسلم في صحيحيهما[(٢)] من حديث الزهري قال: حدثني عروة بن [الزبير و][(٣)] سعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة أم المؤمنين حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اختصاصًا، وقد وعيت من كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدِّق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض. قالوا:

قالت عائشة: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوته تلك ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٠٥).

(٢) البخاري [٤١٤١]، ومسلم [٢٧٧٠].

(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت منها.

جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلما لمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن ولم يغْشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا.

ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت.

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتى بي الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول.

قالت: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول.

قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث عنه، فيقره ويسمعه ويستوشيه.

وقال عروة: لم يسم من أهل الإفك إلَّا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة كما قال الله.

قال عروة: وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، وإنما يدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك يريبني ولا أشعر بالشر. حتى خرجت حين نقهت فخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلاَّ ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا. قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب - فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

قالت: فازددت مرضًا على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت قط امرأة وضيئة

عند رجل يحبها ولها ضرائر إلَّا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي.

قالت: ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال أسامة: أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا. وأما علي فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريرة فقال: يا بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

وفي رواية أبي أسامة عند البخاري: فانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أسقطوا لها به. فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلَّا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر.

وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط. قالت عائشة: فقتل بعد ذلك شهيدًا في سبيل الله[1].

---

(١) البخاري [٤٧٥٧].

/ [١٢٠] وفي رواية ابن إسحاق[١]: فقام إليها علي فضربها ضربًا شديدًا يقول: اصدقي رسول الله. وفي رواية ابن حاطب عن علقمة: فقالت الجارية الحبشية: والله لعائشة أطيب من الذهب، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله. قالت: فعجب الناس من فقهها[٢].

وزاد عطاء الخرساني عن الزهري: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وعند ابن إسحاق[٣] أن امرأة أبي أيوب قالت: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك والله الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت فاعلة، قال: فعائشة خير منك.

قالت: فلما نزل القرآن قال الله: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:١٢]، أي: فقالوا كما قال أبو أيوب.

وعند الطبراني[٤] بسند صحيح عن عائشة: لما بلغني ما تكلموا به هممت أن آتي قليبًا فأطرح نفسي فيه.

وفي رواية ابن إسحاق[٥] عنها: فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر تلك الأيام والليالي من الهم والغيظ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٦).
(٢) الفتح (٨/ ٣٢٦) [٤٧٥].
(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٩).
(٤) المعجم الكبير (٢٣/ ١٢١)، والأوسط (١/ ١٨٤).
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٧).

قال الحافظ ابن حجر[١]: وفي بعض طرق الحديث أن أبا بكر قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام؟

قال البخاري[٢] في حديثه: قالت عائشة: فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبيّ وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلَّا خيرًا، وما يدخل على أهلي إلا ومعي.

قالت: فقام سعد أخو بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على المنبر.

قالت: فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

---

(١) الفتح (٧/ ٣٣٨).

(٢) بقية حديث البخاري [٤١٤١].

وفي رواية أبي أسامة عند البخاري: حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد، وما علمت. فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي مع أم مسطح. فذكر نحو ما تقدم، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي. فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا فسلَّم ثم جلس.

قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جلس، ثم قال: أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما قال. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقلت - وأنا امرأة حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا -: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني بريئة - لتُصَدِّقُنِّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلَّا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]، قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما ظننت أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نومه رؤيا يبرئني الله.

قالت: فوالله ما رام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان - وهو في يوم شات - من ثقل القول الذي ينزل عليه.

زاد ابن جريج في روايته: قال أبو بكر: فجعلت أنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخشى أن ينزل عليه من السماء ما لا مرد له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو مفيق فيطمعني ذلك فيها.

وفي رواية ابن إسحاق[(١)]: فأما أنا فما فزعت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سرِّي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ظننت أن تخرج أنفسهما فرَقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس.

قالت: فسرِّي عن رسول الله وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة احمدي الله فقد برأك. وفي رواية للبخاري: أما الله عَزَّ وَجَلَّ فقد برأك.

وفي رواية[(٢)] له: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك. قالت: وكنت أشد ما كنت غضبًا، فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي. لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو/ [١٢١] بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١] العشر الآيات.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٧-٤١٨).

(٢) البخاري [٤٧٥٤].

فلما أنزل الله هذه من براءتي قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره -: والله ما أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ [النور:٢٢] الآية. قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، قال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل زينب بنت جحش فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاَّ خيرًا. قالت: وهي التي تساميني من أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة محاربة لها فهلكت فيمن هلك.

وفي رواية ابن إسحاق[(١)]: قالت: ثم خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك. ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة -وكانوا ممن أفصح بالفاحشة- فضربوا حدّهم.

وروى الطبراني[(٢)] من طريق أبي حصين عن مجاهد: قالت عائشة: لما نزل عذرها قبل أبو بكر رأسها، فقلت: ألا عذرتني؟ فقال: أيُّ سماءٍ تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم؟

وعند أصحاب السنن[(٣)] من طريق أبي إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عمرة عن عائشة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام حد القذف على الذين تكلموا بالإفك، لكن لم يذكر فيهم عبد الله بن أبي.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٨).

(٢) كذا في المخطوط، وإنما هو الطبري وأبو عوانة، كما في الفتح (٨/ ٤٧٧).

(٣) أبو داود (٤/ ١٦٢) [٤٤٧٤]، والترمذي (٥/ ٣٣٦) [٣١٨١]، وابن ماجه (٢/ ٨٥٧) [٢٥٦٧]، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٥) [٧٣٥١].

وروى ابن جرير[١] عن عائشة أنها قالت: ما سمعت شيئًا أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلاَّ رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان يعني ابن الحارث بن عبد المطلب:

هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتشتمه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

فقيل: يا أم المؤمنين، أليس [هذا لغوًا؟ قالت: لا، إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١١]، قالت: أليس][٢] قد أصابه عذاب عظيم، أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف حين الضربة التي ضربه إياها صفوان بن معطل السلمي حين بلغه أنه يتكلم في ذاك، فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله.

قال ابن إسحاق: وقال حسان يعتذر إلى عائشة ويمدحها:

حصان رزان ما تُزَن[٣] بريبة ... وتصبح غرثى[٤] من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إليَّ أناملي

(١) الطبري (١٨/ ٨٨).
(٢) ما بين المعقوفين بياض في المخطوط، والمثبت من تفسير الطبري (١٨/ ٨٨).
(٣) أي: لا تُظَنُّ ولا تُتَّهم. القاموس المحيط (ص ١٥٥٣).
(٤) أي جائعة. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٥٣).

وكيف وودِّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل
له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلهم ... تقاصر عنه سَورة المتطاول
فإن الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرئ بي ماحِل

فصل

في فوائد شرح ألفاظ تتعلق بحديث الإفك

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ[1]: الإفك بكسر الهمزة وإسكان الفاء. هذا هو المشهور، وحكى القاضي فتحها. قال: وهما لغتان كنجس ونجس وهو الكذب.

قوله: (آذن) بالمد وتخفيف الذال، وبالقصر وتشديدها أي أعلم.

قولها: (عقد من جزع ظفار) أما العقد فمعروف نحو القلادة، والجَزْع بفتح الجيم وإسكان الزاي وهو خرز يماني، ظفار بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء وهي قرية باليمن.

قولها: (وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن) ضبطوه على أوجه، أشهرها: ضم الياء فتح الهاء وتشديد الباء أي يثقلن باللحم والشحم، والثاني يَهْبَلن بفتح الياء والباء بينهما هاء ساكنة، قال أهل اللغة: يقال: هبله اللحم وأهبله إذا أثقله وكثر لحمه وشحمه، وفي رواية للبخاري: (لم يثقلن)، وهو بمعناه.

والعلقة من الطعام أي القليل.

قولها: (فتيممت منزلي) أي قصدته.

قوله: (من وراء الجيش) قال الحافظ ابن حجر[2]: وقع في حديث ابن عمر بيان تأخر صفوان، ولفظه: كان صفوان سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله على الساقة،

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٠٥ فما بعدها).
(٢) الفتح (٨/ ٣١٦).

وكان إذا رحل الناس قام يصلي ثم اتبعهم، فمن سقط له شيء أتاه به، ثم ذكر عن أبي هريرة نحوه. ويحتمل أن يكون سبب تأخره ما جرت عادته به من غلبة النوم عليه.

قولها: (فاستيقظت باسترجاعه) أي انتبهت من نومي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قولها: (فخمرت وجهي) أي غطيته.

قولها: (موغرين في نحر الظهيرة) الموغر بفتح الغين المعجمة النازل في وقت الوغرة بفتح الواو وإسكان الغين وهي شدة الحر، قاله النووي. ونحر الظهيرة وقت القائلة، ونحر كل شيء أوله.

وكبره أي معظمه، وهي بكسر الكاف على القراءة المشهورة.

قولها: (يريبني) بفتح أوله وضمه، ويقال: رابه وأرابه إذا أوهمه وشككه.

واللُطف بضم اللام وإسكان الطاء، ويقال: بفتحهما معًا لغتان، وهو البر والرفق.

قولها: (ثم يقول: كيف تيكم) هي إشارة إلى المؤنث كذلك في المذكر.

ونقهت بفتح القاف وكسرها لغتان حكاهما الجوهري، والفتح أشهر. والناقه هو الذي أفاق من المرض وبرئ منه وهو قريب عهد به / [١٢٢] لم يتراجع إليه كمال صحته.

قولها: (تعس مسطح) بفتح العين وكسرها لغتان، ومعناه عثر، وقيل: هلك، وقيل: لزمه الشر، وقيل: بعد، وقيل: سقط لوجهه خاصة.

والمرط بكسر الميم كساء من صوف وقد يكون من غيره.

قولها: (أي هنتاه) أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة البعيد، وهنتاه بفتح الهاء وسكون النون وبعدها مثناة وآخرها هاء ساكنة، وقد

تضم ومعناها يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت عائشة إلى الغفلة عن معرفة مكايد الناس وشرورهم.

والوضيئة مهموزة ممدودة هي الجميلة الحسنة، والوضاءة الحسن.

لا يرقأ لي دمع هو بالهمزة، أي لا ينقطع، ولا أكتحل بنوم أي لا أنام.

قولها: (وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك...) الخ أشار عليه بفراقها تلويحًا لا تصريحًا، لأنه رآه مصلحة ونصيحة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء. فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ليتخلص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهم والغم الذي لحقه بكلام الناس، لأنه رأى انزعاج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الأمر، فأراد راحة خاطره. وأسامة لما رأى حب رسول الله لها ولأبيها وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هو فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء وابنة صديقه بالمنزلة التي أنزلها أرباب الإفك، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة. فمن قويت معرفته بالله ومعرفة رسوله وقدره عند الله في قلبه قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة لما سمعوه: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٦].

وتأمل في تسبيحهم الله وتنزيههم له في هذا المقام من المعرفة به، وتنزيهه عما لا يليق له أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيًا، فمن ظنَّ به سبحانه هذا فقد ظن ظن السوء، وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها كما قال تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور:٢٦]، فقطعوا قطعًا لا يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة.

فإن قيل: فما بال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقف في أمرها وسأل عنها وبحث واستشار، وهو أعرف بالله ومنزلته عنده وبما يليق به؟ وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قال فضلاء الصحابة؟ فالجواب أن هذا من تمام الحكمة الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببًا لها وامتحانًا وابتلاءً لرسوله ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

واقتضى تمام الابتلاء والامتحان أن حبس عن رسوله الوحي شهرًا في شأنها لتتم حكمته التي قضاها وقدرها، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، وتظهر لرسوله والمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها وتتم نعمة الله عليهم، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصر والفرج إلا من الله[(١)].

وقولها: (أَغْمِصه) بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة أي: أعيبها به.

والداجن الشاة التي تألف البيوت ولا تخرج للمرعى.

قولها: (فاستعذر من عبد الله بن أبي) أي طلب من يعذره أي ينصفه، وقيل: معناه من يقوم بعذري إن كافأته على سوء فعاله، وقيل: معنى من يعذرني من ينصرني، والعذير الناصر، ويؤيده قول سعد: أنا أعذرك منه.

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه عند البخاري ومسلم[(٢)]: (أشيروا علي في أناس أبنوا أهلي) هو بفتح الباء الموحدة الخفيفة والنون المضمومة، وقد حكى

(١) من كلام ابن القيم، انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٦٠-٢٦٢).

(٢) البخاري [٤٧٥٧]، ومسلم [٥٨، ٢٧٧٠].

عياض أن في رواية الأصيلي بتشديد الموحدة وهي لغة، ومعناه عابوا أهلي واتهموا. وهو المعتمد لأن الأبن بفتحتين التهمة، ومنه الحديث الذي في الشمائل[١] في مجلسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تؤبن فيه الحرم»، وحكى عياض أن في رواية عبدوس بتقديم النون الثقيلة الموحدة قال: وهو تصحيف، لأن التأنيب اللوم الشديد ولا معنى له ههنا.

والبُرَحَاءُ هي بضم الموحدة وفتح الراء والحاء المهملة والمد، وهي الشدة.

قولها: (حتى إنه يتحدر منه مثل الجمان من العرق) معنى يتحدر: يتصبب، والجمان بضم الجيم وتخفيف الميم هو اللؤلؤ، وقيل: حب يعمل من الفضة.

وسري عن رسول الله أي كشف وأزيل.

قوله: (كنف) بفتح الكاف والنون أي ثوبها الذي يسترها، وهو كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن.

قولها: (وهي التي كانت تساميني) أي تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي مفاعلة من السمو / [١٢٣] وهو الارتفاع.

قولها: (أحمي سمعي) أي أحفظه فلا أقول سمعت فيما لم أسمع.

قوله: (وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه) أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ولا يدعه يخمد، والله أعلم.

وفي الحديث من الفوائد: جواز رواية الحديث الواحد عن كل واحد قطعة مبهمة.

الثانية: صحة القرعة بين النساء، وفي العتق وغيره. قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من الأنبياء يونس وزكريا ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن المنذر: استعمالها كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من يردها.

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية للترمذي بتحقيق الألباني (ص٢٤).

الثالثة: وجوب الإقراع بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن.

الرابعة: أنه لا يجب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلًا، وحكم القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح.

الخامسة: جواز سفر الرجل بزوجته.

السادسة: جواز غزوهن وركوبهن في الهوادج.

السابعة: جواز خدمة الرجال لهن في ذلك في الأسفار.

الثامنة: أن ارتحال العسكر يتوقف على أمر الأمير.

التاسعة: جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج، وهذا من الأمور المستثناة.

العاشرة: جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر.

الحادية عشرة: أن من يركب البعير لا يكلمها إذا لم يكن محرمًا إلا لحاجة، لأنهم حملوا الهودج ولم يكلموها.

الثانية عشرة: فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن وألا يكثرن منه، لأن هذا كان حالهم في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان في زمنه فهو الكامل الفاضل.

الثالثة عشرة: جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض لها في الجيش إذا لم يكن ضرورة إلى الاجتماع.

الرابعة عشرة: إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي الأقدار كما فعل صفوان.

الخامسة عشرة: استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء كانت في الدنيا أو في الدين، وسواء كانت في نفسه أو من يعز عليه.

السادسة عشرة: تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، سواء كان صالحًا أو غيره.

السابعة عشرة: جواز الحلف من غير استحلاف إذا كان فيه فائدة.

الثامنة عشرة: أنه يستحب أن يستر عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة هذا الأمر شهرًا.

التاسعة عشرة: حسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ملاطفته أزواجه ومعاشرته لهن بالمعروف.

العشرون: استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة تأسيًا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحادية والعشرون: أنه إذا عرض عارض بأن سمع عنها شيئًا ونحو ذلك يقلل من التلطف ونحوه لتفطن هي أن ذلك لعارض، فتسأل عن سببه فتزيله.

الثانية والعشرون: استحباب السؤال عن المريض عند عيادته.

الثالثة والعشرون: أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن تكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يعرض لها أحد.

الرابعة والعشرون: كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه.

الخامسة والعشرون: فضيلة أهل بدر والذب عنهم كما فعلت عائشة في ذبها عن مسطح.

السادسة والعشرون: أن الزوج لا تذهب لبيت أبويها إلا بإذن زوجها.

السابعة والعشرون: جواز التعجب بلفظ التسبيح، وقد تكرر في هذا الحديث وغيره.

الثامنة والعشرون: استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور.

التاسعة والعشرون: جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق، وأما غيره فهو منهي عنه، وهو تجسس وفضول.

الثلاثون: خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم.

الحادية والثلاثون: اشتكاء ولي الأمر إلى المسلمين ممن يعرض له بأذى في نفسه وأهله أو غيره، واعتذاره فيما يريد أن يؤدب به.

الثانية الثلاثون: فضائل صفوان بن المعطل بشهادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما شهد وبأفعاله الجميلة في إركاب عائشة وحسن أدبه في جملة القصة.

الثالثة والثلاثون: فضيلة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير.

الرابعة والثلاثون: المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات وتسكين الغضب.

الخامسة والثلاثون: قبول التوبة والحث عليها.

السادسة والثلاثون: تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف.

السابعة والثلاثون: جواز الاستشهاد بآيات القرآن العزيز، ولا خلاف أنه جائز، قلت: بل يستحب.

الثامنة والثلاثون: التأسي بالأنبياء والصالحين في البلايا والمصائب وغير ذلك.

التاسعة والثلاثون: استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه بلية ظاهرة.

الأربعون: براءة عائشة من الإفك، وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان - والعياذ بالله - كان كافرًا مرتدًا بإجماع المسلمين. قال ابن عباس: لم تزن امرأة نبي قط من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا إكرام من الله لهم.

الحادية والأربعون: تجديد شكر الله عند تجدد النعم.

الثانية والأربعون: فضائل أبي بكر في قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ الآية.

الثالثة والأربعون: استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين.

الرابعة والأربعون: استحباب العفو والصفح عن المسيء.

/ [١٢٤] **الخامسة والأربعون:** استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات.

السادسة والأربعون: أن ذلك سبب لمغفرة الله.

السابعة والأربعون: أنه يستحب لمن حلف على يمين ورأى خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه كما فعل أبو بكر.

الثامنة والأربعون: أن ابن بنت الخالة من ذوي القربى الذين تستحب صلتهم.

التاسعة والأربعون: فضيلة زينب أم المؤمنين وورعها.

الخمسون: التثبت في الشهادة.

الحادية والخمسون: إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه ومن خدمه أو أطاعه كما فعلت عائشة بمراعاة حسان وإكرامه إكرامًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثانية والخمسون: أن الخطبة تبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله.

الثالثة والخمسون: أنه يستحب في الخطب بعد الحمد والثناء والصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والشهادتين «أما بعد».

الرابعة والخمسون: غضب المسلمين عند انتهاك حرمة أميرهم واهتمامهم بدفع ذلك.

الخامسة والخمسون: جواز سب المتعصب للمبطل، كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق، وقال: إنك منافق مجادل عن المنافقين، وأراد أنك تفعل فعل المنافقين، والله أعلم[(١)].

السادسة والخمسون: أن تعديل النساء بعضهم بعضًا مقبول، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل الجارية وزينب.

السابعة والخمسون: أن الاعتراف بما فشا من الباطل لا يحل.

الثامنة والخمسون: أن عاقبة الصبر الجميل فيه الغبطة والعزة في الدارين.

التاسعة والخمسون: أن الله قد يبتلي عبده المؤمن بأكره المكروهات عنده وهو خير له لا شر له، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:١١] الآية.

الستون: أن الإنسان قد يفرح بما فيه هلاكه وخزيه في الدنيا والآخرة.

الحادية والستون: أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل.

الثانية والستون: أن الوحي ما كان يأتيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متى أراد لبقائه شهرًا لا يوحى إليه.

الثالثة والستون: أنه لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله.

الرابعة والستون: وجوب حد القذف على من أفصح بالفاحشة.

الخامسة والستون: ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة، كما ترك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حد ابن أبي بن سلول... انتهى ملخصًا من شرح النووي لمسلم وغيره[(٢)].

والله أعلم.

---

(١) انتهى من شرح مسلم للنووي (١١٣- ١١٦).

(٢) انظر: الفتح (٧/ ٣٣٧- ٣٣٩)، وزاد المعاد (٣/ ٢٥٧- ٢٩٩).

فصل

وقد قال قوم بتعدد ضياع العقد، منهم محمد بن حبيب الأخباري فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق، واختلف أهل المغازي في أي هاتين الغزوتين كانت أولًا. ومما يدل على تأخر قصة نزول آية التيمم عن قصة الإفك ما روى الطبراني[(١)] عن عائشة: لما كان من أمر عقدي ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا خرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة أخرى فسقط أيضًا عقدي، حتى حُبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: في كل سفرة تكونين يا بنية عناء وبلاء على الناس، فأنزل الله آية الرخصة في التيمم. وفي إسناده من فيه مقال.

وفي البخاري[(٢)]: قال موسى بن عقبة: كانت غزوة المريسيع سنة أربع، وجزم ابن إسحاق وتبعه ابن حزم أنها كانت في شعبان سنة ست[(٣)]، وأن قوله في حديث عائشة فقام سعد بن معاذ وهم، وأن المقاولة كانت بين سعد بن عبادة وأسيد بن حضير، قال: وهذا هو الصحيح، والوهم لا يسلم منه أحد من بني آدم. قلت: وعلى قول موسى بن عقبة أنها سنة أربع يزول الإشكال جملة. والله أعلم.

غزوة الخندق وهي الأحزاب

واختلفوا في تاريخها، فقال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع[(٤)]، وقال ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي سنة خمس[(٥)]. ومال البخاري إلى قول موسى بن

---

(١) في الكبير (٢٣/ ١٢١).

(٢) البخاري كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق من خزاعة، وهي غزوة المريسيع (الفتح ٧/ ٤٣٠).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٠١)، وجوامع السيرة (ص٢٠٣).

(٤) البخاري باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب (الفتح ١٣/ ٢٣٧).

(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩٨).

عقبة، وقواه بحديث ابن عمر، قال أبو محمد بن حزم[١]: والصحيح الثابت أنه في الرابعة بلا شك لحديث ابن عمر: عرضت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني، ثم عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني[٢]، فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة.

قال ابن إسحاق[٣]: فحدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم من علمائنا كل قد اجتمع حديثه في هذا الحديث عن الخندق وبعضهم يحدث ما لا يحدث بعض، قالوا إنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم سلام بن مشكم بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب وهوذة بن قيس في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه، وإنكم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ﴾ [النساء:٥١-٥٢] إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:٥٥].

(١) جوامع السيرة (ص ١٨٥).
(٢) البخاري [٢٦٦٤، ٤٠٩٧]، ومسلم [١٨٦٨].
(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩٨-٣٠١).

/ [١٢٥] فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج ذلك النفر حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن والحارث بن عوف في [بني][(١)] مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع. فلما سمع بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا، وأبطأ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف عن العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التي لا بد منها ذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابًا له، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] الآية، ثم قال في المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣] الآية. انتهى.

وكان الذي أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك[(٢)].

(١) ما بين المعقوفين ليس في المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٠).
(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٤٤٥).

وكانت عدة المشركين فيما ذكر ابن إسحاق[١] عشرة آلاف، وكان المسلمون ثلاثة آلاف. قال ابن حزم[٢]: وقيل في تسع مائة فقط، وهو الصحيح بلا شك. وجعل المسلمون ظهورهم إلى سلع، فنزلوا هنالك والخندق بينهم وبين المشركين[٣].

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام[٤]. وفي البخاري[٥] عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا وأكتافنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرين.

والأكتاد بالمثناة الفوقية جمع كَتِد بفتح فكسر وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي بعض نسخ البخاري بالباء الموحدة. وهو موجه على أن يكون المراد به مما يلي الكبد من الجنب. وفي البخاري[٦] أيضًا عن أنس: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٦).
(٢) جوامع السيرة (ص ١٨٧).
(٣) البخاري [٤٠٩٨].
(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٧).
(٥) البخاري [٤٠٩٨].
(٦) البخاري [٤٠٩٩، ٤١٠٠]، ومسلم [١٨٠٥].

وفي البخاري[١] أيضًا عن البراء: رأيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب.

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لا قينا

إن الأولى [قد] بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال يمد بها صوته.

وفي رواية[٢] له أيضًا:

إن الأولى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

وفي حديث سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ضرب في الخندق قال:

بسم الإله وبه بدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

حبذا ربًّا وحبذا دينا[٣]

وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوته:

منها ما في الصحيح[٤] عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة- وهي بضم الكاف، وهي القطعة الصلبة- فجاءوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق

(١) البخاري [٤١٠٦].

(٢) البخاري [٣٠٣٤].

(٣) كذا في المخطوط، وفي الفتح (٧/ ٤٥٨): «فحبذا ربا وحب دينا»، وهو أولى لوزن الشعر.

(٤) البخاري، ومسلم [٢٠٣٩].

ذواقًا، فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعول فضرب، فعاد كثيبًا أهيلَ أو أهيمَ كذا بالشك من الراوي. وعند الإسماعيلي باللام من غير شك. والمعنى أنه صار رملًا يسيل ولا يتماسك، وأهيم بمعنى أهيل، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]: المراد الرمال التي لا يرويها الماء[١]. وقد وقع عند أحمد والنسائي[٢] زيادة حسنة بإسناد حسن من حديث البراء قال: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله، ثم ضرب / [١٢٦] ضربة فكسر ثلثها وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر. ثم ضرب الثانية فقطع ثلثًا آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله [إني][٣] لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن. ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله، فقلع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني.

ومنها ما ثبت في الصحيح[٤] في حديث جابر من تكثير الطعام القليل، وإشباعه لجميع أهل الخندق. وعند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريبًا من عشرين ليلة. وعند الواقدي أربعًا وعشرين يومًا، وعند ابن القيم في الهدي[٥]: أقاموا شهرًا. قال ابن إسحاق في حديثه[٦]: وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله

(١) الفتح (٧٠/ ٤٥٨) [٤١٠٢].
(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٠٣)، والسنن الكبرى (٥/ ٢٦٩).
(٣) زيادة من مصدري التخريج.
(٤) البخاري [٤١٠١، ٤١٠٢]، مسلم [٢٠٣٩].
(٥) الفتح (٧/ ٤٥٤)، وزاد المعاد (٣/ ٢٧٢).
(٦) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٧-٣١٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب بحيي أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيّي: ويحك يا كعب افتح لي. قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدًا، وإنك لست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا. قال: ويحك افتح لي أكلمك. فقال: ما أنا بفاعل قال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك[(١)] أن آكل منها. فأحفظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى[(٢)] إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه. قال كعب: جئتني والله بذل الدنيا وذل الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء. فلم يزل حيي يفتله في الذروة والغارب[(٣)] حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلما انتهى إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر بعث رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال: انطلقوا

---

(١) الجشيشة طعام يصنع من الجشيش وهو البر يطحن غليظًا. ينظر: تهذيب اللغة (١٠/ ٣٣٩).

(٢) بالتحريك والقصر، موضع من أعراض المدينة. معجم البلدان (٥/ ٣٠٠). وهو واد يمر شمال أحد عن قرب، وفيه جبل ثور، ويصب في الغابة شمال غربي مقصر أحد غربًا، ويقال اليوم: وادي النقَمِي بياء النسبة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٨١).

(٣) أي: فلم يزل يخادعه. وهذا مثل، وأصله في البعير، يستصعب عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه، وتفتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك، فضرب هذا الكلام مثلا في المراوضة والمخاتلة. الروض الأنف (٦/ ٣١١).

حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لحنًا نعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. قال فخرجوا فأتوهم حتى وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلًا فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة[1]. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين. وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث الحرس إلى المدينة خوفًا على الذراري من بني قريظة. وأنزل الله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٢] الآيات، وقال رجال معه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب:١٣] وقال بعضهم يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة. فأنزل الله: ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب:١٣].

فلما اشتد البلاء بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقم الشهادة ولا

(١) الصواب أن الذي غضب وشاتم هو سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما جاء عند الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١)، وتاريخه (٢/ ٩٣)، ودلائل البيهقي (٣/ ٤٢٩)، كل ذلك من طريق ابن إسحاق نفسه.

عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك، فبعث رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله إني ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة. فقال له / [١٢٧] سعد بن معاذ: والله يا رسول الله، قد كنا وهؤلاء على الشرك وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا بقرى أو بيعًا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم بحكمه. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأنت وذلك. فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون وعدوُّهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب أقبلوا على خيولهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم بين الخندق وسلع في السبخة، فخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلمًا ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فقال له علي: أنا. فبرز إليه علي بن أبي طالب فقال له: يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله أن لا يدعوك أحد من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. فقال له: أجل. قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى

الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى البراز، فقال له: يا ابن أخي ما أحب أن أقتلك، قال له علي: ولكني والله أحب أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا، فقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

ثم إن الله سبحانه- وله الحمد - صنع أمرًا من عنده خذل به العدو، وذلك أن نعيم بن مسعود الأشجعي أسلم وهو مخفٍ إسلامه، فمشى بين الأحزاب وثبط قومًا عن قوم، فاختلفت كلمتهم، وأرسل الله جندًا من الريح على المشركين فجعلت تُقَوِّض خيامهم ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها ولا طنبًا إلا قلعته ولا يقر لهم قرار، وجندًا من الملائكة يزلزلون بهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وفي البخاري[١] عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم».

وروى أحمد[٢] عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر. قال: «نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»، قال: فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح.

وفي البخاري[٣] عن علي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم الخندق: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس».

---

(١) البخاري [٤١١٥].
(٢) المسند (٣/ ٣).
(٣) البخاري [٤١١١]، ومسلم [٦٢٧].

وفي صحيح مسلم[١] عن ابن مسعود قال: حبس المشركون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى...**» الحديث.

قال ابن دقيق العبد[٢]: الحبس انتهى إلى ذلك الوقت ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب.

وفي الصحيحين[٣] عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، وجعل يسب كفار قريش قال: يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس تغرب. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأنا والله ما صليتها. فنزلنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها: فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

ومقتضى هذه الرواية المشهورة أنه لم يفت غير العصر، وفي الموطأ[٤]: الظهر والعصر، وفي السنن ومسند أحمد[٥] والشافعي: أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعًا.

قال النووي[٦]: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها. قال: وأما تأخيره عَلَيْهِ السَّلَامُ صلاة العصر حتى غرب الشمس فكان قبل نزول صلاة الخوف. انتهى.

---

(١) مسلم [٦٢٨].
(٢) إحكام الأحكام (١١/ ١٤٢).
(٣) البخاري [٤١١٢]، مسلم [٦٣١].
(٤) موطأ مالك [٣٩٧].
(٥) أبو داود [٤٠٩]، والترمذي [١٧٩]، والنسائي [٦٢٢]، والمسند .
(٦) النووي شرح مسلم (٥/ ١٣٢).

ثم أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم[١] فوجدهم قد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلًا فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفاه الله قتالهم، وصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

وفي البخاري[٢] عن سليمان بن صرد سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول حين أجلي الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

/ [١٢٨] فصل

ولما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة - حين انصرف من الخندق يوم الأربعاء هو وأصحابه ووضعوا السلاح - جاءه جبريل حين اغتسل وهو ينفض الغبار عن رأسه فقال: وقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، اخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: ههنا، وأشار بيده إلى بني قريظة. فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ثبت ذلك في الصحيح[٣] من حديث عائشة، ومن حديث ابن عمر قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يعنف واحدًا منهم[٤]. انتهى.

---

(١) ثبت ذلك عند مسلم [١٧٨٨].
(٢) البخاري [٤١١٠].
(٣) البخاري [٤١١٧].
(٤) البخاري [٤١١٩].

وعند ابن سعد[١]: ثم سار إليهم في المسلمين، وهم ثلاثة آلاف والخيل [ستة و][٢] ثلاثون فرسًا، قال: وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على بئر من آبار بني قريظة، وتلاحق به الناس وقذف الله في قلوبهم الرعب، وحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضعًا وعشرين [ليلة][٣]، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ليلة السبت فإن المسلمين قد أمنوا منهم. فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أن يبعث إليهم][٤] أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، فأرسله، فلما أتاهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم فقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، فلم يأت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدًا، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا[٥].

فلما سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٧٤).
(٢) ما بين المعقوفين غير موجود في المخطوط، والمثبت من الطبقات الكبرى.
(٣) عند ابن هشام (٣/ ٣٢٦): «خمسًا وعشرين ليلة»، وفي الطبقات الكبرى: «خمسة عشر يومًا».
(٤) سقط من المخطوط، والمثبت من الطبقات.
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٢٨)، وفيها: «لا أطأ» بدل «لا يطأ».

عليه. فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عتاقه بيده الكريمة.

فنزلت بنو قريظة على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما نزلوا على حكمه قال الأوس: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما فعلت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذلك سعد بن معاذ.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة في المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوي الجرحى تحتسب بذلك الأجر ليعوده من قريب، فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سعد ليؤتى به ليحكم في بني قريظة، فأتي به على حمار قد وطئ له بوسادة أدم وقد أحاط به قومه، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإنما ولاك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحسن فيهم. فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من معه إلى ديار بني عبد الأشهل ينعى لهم رجال بني قريظة.

فلما أقبل سعد إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [والمسلمين قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][1]: قوموا إلى سيدكم. فقام المسلمون فقالوا: يا سعد إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ وأشار به إلى الناحية التي فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجلالًا له، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم. قال: فإني أحكم

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، فأثبته من سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣١).

فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ثم أمر بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخرجوا إلى موضع سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وقتل معهم يومئذ حيي بن أخطب والد أم المؤمنين صفية، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة[١]، وقتل من نسائهم امرأة واحدة[٢]، وهي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد بن الصامت فقتلته. وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل كل من أنبت، وترك من لم ينبت[٣]، ووهب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثابت بن قيس بن / [١٢٩] الشماس ولد الزبير بن باطا، فاستحياهم منه عبد الرحمن بن الزبير فأسلم وله صحبة.

ووهب أيضًا رفاعة بن سموأل القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس أخت سليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلت إلى القبلتين، فأسلم رفاعة وله صحبة.

وكان ممن لم ينبت عطية القرظي فاستحيي، له صحبة.

وقسم عَلَيْهِ السَّلَامُ أموال بني [قريظة][٤]، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً، ووقع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سبيهم ريحانة بنت عمرو فلم تزل في ملكه حتى مات[٥].

فلما تمَّ أمر بني قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمات من جرحه الذي أصابه يوم الخندق، كما في الصحيح[٦] عن عائشة قالت: أصيب

(١) الفتح (٤/ ٤١٤).
(٢) كما رواه أبو داود [٢٦٧١].
(٣) أبو داود [٤٤٠٤، ٤٤٠٥].
(٤) في المخطوط: «النضير»، وهو خطأ.
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٩)، وابن سعد (٨/ ١٣١)، والواقدي (٢/ ٥٢٠-٥٢١).
(٦) البخاري [٤١٢٢]، ومسلم [١٧٦٩].

سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة رماه في الأكحل فضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار فقال له: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناها، اخرج إليهم. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزلوا على حكمه فرد الحكم إلى سعد قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم.

قال هشام: فأخبرني أبي عن عائشة أن سعدًا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها. فانفجرت من لَبَّتِه، فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغدو جرحه دمًا، فمات منها رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي الصحيحين[(١)] عن جابر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

وصحح الترمذي[(٢)] من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الملائكة كانت تحمله».

---

(١) البخاري [٣٨٠٣]، ومسلم [٢٤٦٦].

(٢) جامع الترمذي (٥/ ٦٩٠) [٣٨٤٩].

وأخرج ابن سعد[١] وأبو نعيم عن محمد بن المنكدر عن محمد بن شرحبيل بن حسنة قال: قبض إنسان يومئذ بيده من تراب قبره قبضة، فذهب بها، ثم نظر إليه بعد ذلك فإذا هي مسك، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سبحان الله سبحان الله، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال: الحمد لله، لو كان أحد ناجيًا من ضمة القبر لنجا منها سعد بن معاذ، ضم ضمة ثم فرج الله عنه.

وعند ابن إسحاق[٢] عن جابر قال: كنا مع رسول اله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دفن سعد، فسبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبح معه الناس، ثم كبَّر وكبر معه الناس، فقالوا: يا رسول الله ممَّ سبحت؟ فقال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه.

قال ابن هشام: ومجاز هذا الحديث قول عائشة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجيًا لكان سعد بن معاذ[٣]».

ولسعد يقول رجل من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من فقد هالك ... سمعنا به إلا لموت أبي عمرو

واستشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، وأنس بن أوس، وعبد الله بن سهل، كلهم من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن [غنمة][٤]، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد، طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحى فقتلته، ومات في الحصار: أبو سنان بن محصن أخو عكاشة[٥].

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٩).
(٢) ابن هشام (٣/ ٣٤٨).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٥).
(٤) ما بين المعقوفين بياض، والمثبت من سيرة ابن هشام (٣/ ٣٥٠).
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٥٢).

قال ابن إسحاق[(١)]: وأنزل الله في أمر الخندق وأمر بني قريظة القصة في سورة الأحزاب، يذكر فيها ما نزل من البلاء، ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حين أفرج ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [الأحزاب:٩] إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ ﴾ [الأحزاب:٢٦] الآيتين.

بعث عبد الله بن عتيك إلى قتل سلام بن أبي الحقيق

وهو أبو رافع: ولما فتح الله في الكافر كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس كما تقدم، رغبت الخزرج في مثل ذلك تريد من الأجر والثناء في الإسلام، فتذاكروا أن سلام بن أبي الحقيق من العداوة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين على مثل حال كعب بن الأشرف، فاستأذنوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتله فأذن لهم.

فخرجوا إليه خمسة نفر كلهم من الخزرج، وكلهم من بني سلمة: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، ومسعود بن سنان، وخزاعي بن الأسود حليف لهم من أسلم، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ونهاهم عن قتل النساء والصبيان.

فنهضوا حتى أتوا خيبرًا ليلًا، وكان سلام ساكنًا في دار مع جماعة وهو في علية منها، فتسوروا الدار ولم يدعوا بابًا من مساكنها إلا استوثقوا منه من خارج، ثم أتوا العلية التي هو فيها فاستأذنوا عليه، فقالت امرأته: من أنتم؟ قالوا: أناس من العرب نطلب الميرة. فقالت لهم: ذاكم صاحبكم. فدخلوا.

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

فلما دخلوا أغلقوا الباب على أنفسهم، / [١٣٠] فأيقنت بالشر فصاحت، فهموا بقتلها، ثم ذكروا نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل النساء فأمسكوا عنها، ثم تعاوروه بأسيافهم وهو راقد على فراشه أبيض في سواد الليل كأنه [قبطية][(١)]، ووضع عبد الله ابن أنيس سيفه في بطنه حتى أنفذه، وعدو الله يقول: قطني قَطْني. ثم نزلوا.

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر فوقع، فوُثِيت رجله وثيًا شديدًا[(٢)]، فحمله أصحابه حتى أتوا منهرًا من مناهيرهم فدخلوا فيه واستتروا، وخرج أهل الآطام وأوقدوا النيران في كل وجه، فلما أيسوا رجعوا، فقال المسلمون: كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات؟ فرجع أحدهم ودخل بين الناس، ثم رجع إلى أصحابه فذكر لهم أنه وقف مع الجماعة وأنه سمع امرأته تقول: والله لقد سمعت صوت ابن عتيك، ثم قلت: أنى ابن عتيك بهذه البلاد؟ ثم إنها نظرت في وجهه فقالت: فاض وإله يهود. قال: فسررت. وانصرف إلى أصحابه فأخبرهم بهلاكه. فرجعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه، وتداعوا في قتله، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: هاتوا أسيافكم. فأتوا بها. فقال عن سيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام[(٣)].

غزوة بني لحيان

وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة بعد فتح بني قريظة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرًا وشهر ربيع، وخرج عَلَيْهِ السَّلَامُ في جمادى الأولى في الشهر السادس من فتح بني

---

(١) في المخطوط: «قطنة»، والمثبت من الطبقات الكبرى (٢/ ٩١)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٣٨٢).
(٢) الوثء والوثاءة وصم يصيب اللحم لا يبلغ العظم. القاموس المحيط (ص٧٠).
(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٨١-٣٨٣). وانظر القصة بتمامها في صحيح البخاري [٤٣٨، ٤٠٣٩].

قريظة في السنة السادسة من الهجرة[١] - قال ابن حزم[٢]: كذا قالوا، والصحيح أنها الخامسة - قاصدًا إلى بني لحيان طالبًا بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأصحابهما المقتولين بالرجيع، وذلك إثر رجوعه عَلَيْهِ السَّلَامُ من دومة الجندل، وأظهر أنه يريد الشام، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غُران واد بين أَمَج وعسفان[٣]، وهي منازل بني لحيان حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة. فترحم عليهم، ودعا لهم، فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر على أحد منهم.

فلما نزلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخطأه مِن غِرَّتهم ما أراد، قالوا: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة، فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان. فبعث عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلين من أصحابه فارسين حتى أتوا كراع الغميم[٤] ثم كروا، ورجع عَلَيْهِ السَّلَامُ قافلًا إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

فكان جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وجه راجعًا يقول: «آئبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون»[٥].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٨٧).

(٢) جوامع السيرة (ص٢٠٠).

(٣) غران واد فحل بين أمج وعسفان كما حدد في هذا النص، وأمج يعرف اليوم بخُليص، والطريق من مكة إلى المدينة يهبط إلى غران على ٨٧ كيلًا بعد ثنية غزال مباشرة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٢٥).

(٤) هي نغف من حرة ضجنان، تقع جنوب عسفان بستة عشر كيلًا على الجادة إلى مكة، أي على ٦٤ كيلًا من مكة على طريق المدينة، وتعرف اليوم ببرقاء الغميم. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٦٤).

(٥) انظر: البخاري [٤٣٧٢]، مسلم [١٧٦٤].

سرية محمد بن مسلمة

قال في المواهب[١]: إلى بطن من بني بكر بن كلاب، وهم ينزلون بناحية ضِرَيَّة بالبكرات[٢]، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، لعشر ليال خلون من المحرم سنة [ست][٣]، بعثه في ثلاثين راكبًا.

فلما أغار عليهم هرب سائرهم، واستاق نعمًا وشاء، وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم، ومعه ثمامة بن أثال الحنفي أسيرًا، فربط بأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسارية من سواري المسجد.

وفي الصحيح [٤] عن أبي هريرة قال: بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد، فقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. قال: أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من

---

(١) المواهب (١/ ٤٧٢).

(٢) ماء لضبة بأرض اليمامة. وضرية قرية عامرمة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد. معجم البلدان (١/ ٤٧٥، ٣/ ٤٥٧).

(٣) بياض في المخطوط قدر كلمة، والمثبت من المواهب اللدنية.

(٤) البخاري [٢٣٧٢].

دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان بلد من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت. قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأخرجه مسلم أيضًا[(١)].

وذكر ابن القيم في الهدي زيادة بعد قوله: «حتى يأذن فيها النبي»: وكانت اليمامة ريف مكة. فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي لهم حمل الطعام، / [١٣١] ففعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)].

غـــزوة الغابـــة

وتعرف بذي قرد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة[(٣)] في ربيع الأول سنة ست قبل الحديبية[(٤)]، وعند البخاري[(٥)] أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، ولمسلم[(٦)] نحوه. قال القرطبي[(٧)]: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية. وقال الحافظ ابن حجر: الذي في الصحيح أصحُّ مما ذكره أهل السير.

(١) مسلم [١٧٦٤].
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧٧).
(٣) **قَرَد**: جبل أسود بأعلى وادي النُّقمى شمال شرقي المدينة على قرابة ٣٥ كيلًا، في ديار بني رشيد من هتيم. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٥٠).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٨٠).
(٥) المغازي، باب غزوة ذات القرد (٤/ ١٥٣٦).
(٦) غزوة ذي قرد وغيره [١٨٠٦].
(٧) المفهم (٣/ ٦٨٠٦).

وسببها أنه كان لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرون لقحة - وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة - ترعى بالغابة، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء في أربعين فارسًا، فاستاقوها وقتلوا الراعي.

قال ابن إسحاق[1]: وكان فيهم رجل من غفار وامرأة، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة، ونودي: يا خيل الله اركبي. وكان أول ما نودي بها. وكان أول من نذر بهم سلمة بن الأكوع السلمي، كان ناهضًا إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض في آثارهم فأبلى بلاء حسنًا عظيمًا، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلي، وأسيد بن حضير أخو بني حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدي الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقي.

فلما اجتمعوا أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعيد بن زيد من بني عبد الأشهل، وقيل: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطى فرس أبي عياش معاذ بن ماعص أو عائذ بن ماعص، وكان أحكم للفروسية من أبي عياش.

فأول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم فقتل رَحِمَهُ اللَّهُ، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولى المشركون منهزمين، وبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماء يقال له: ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام عَلَيْهِ السَّلَامُ يومًا وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أتت المدينة نذرت أن

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٩٣-٣٩٥). وأصل الواقعة في الصحيحين: البخاري [٣٠٤١، ٤١٩٤]، ومسلم [١٠٨٦].

تنحرها، فأخبرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا نذر لأحد في معصية الله ولا فيما لا يملك، وأخذ عَلَيْهِ السَّلَامُ ناقته.

سرية زيد بن حارثة

قال: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة إلى العيص، موضع على أربع ليال من المدينة في جمادى الأولى سنة ست، ومعه سبعون راكبًا، لما بلغه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن عيرًا لقريش قد أقبلت من الشام يتعرض لها، فأخذها وما فيها، وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر منهم ناسًا، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: خرج أبو العاص بن الربيع زوج زينب مرجعه من الشام، وكان رجلًا مأمونًا، وكانت معه بضائع لقريش، فأقبل قافلًا، فلقيته سرية لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أصابوا، فقسمه بينهم. وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد ماله وما كان معه من أموال الناس، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السرية وقال: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا ولغيره، وهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم. قالوا: بل نرد عليه يا رسول الله، فردوا عليه والله ما أصابوا، حتى إن الرجل ليأتي بالشن والرجل يأتي بالإداوة، والرجل يأتي بالحبل، فما تركوا قليلًا مما أصابوا ولا كثيرا إلا ردوه عليه.

ثم خرج حتى قدم مكة فأدى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم مال لم أرده عليه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا قد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: أما والله ما منعني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا تخوفًا أن تظنوا

أني ما أسلمت إلا لأذهب بأموالكم، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله[(١)].

وذكر موسى بن عقبة[(٢)] أن أسره كان على يد أبي بصير بعد الحديبية، وأنهم أخذوه في رجالٍ من قريش، وأخذوا ما معهم وأسروهم، ولم يقتلوا منهم أحدًا لصهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبي العاص، وهو ابن أخت خديجة بنت خويلد لأمها وأبيها، فخلوا سبيل أبي العاص، فقدم على امرأته زينب فكلمها أبو العاص في أصحابه الذين أسر أبو جندل وأبو بصير وما أخذوا له، فكلمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فخطب فقال: إنا صاهرنا أناسًا وصاهرنا أبا العاص، فنعم الصهر وجدناه، وإنه أقبل من / [١٣٢] الشام في أصحاب له من قريش، فأخذه أبو جندل وأبو بصير وأخذوا ما كان معهم ولم يقتلوا منهم أحدًا، وإن زينب بنت رسول الله سألتني أن أجيرهم، فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه؟ فقال الناس: نعم.

فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده من الأسرى ردوا عليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال، وكتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي جندل وأبي بصير يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد من قريش وعيراتها. وقدم كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي بصير وهو في الموت، فمات وهو

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٨٢)، ونحوه في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٨٣- ٢٨٤).

على صدره، فدفنه أبو جندل، وقدم أبو جندل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمنت عيرات قريش...، وذكر باقي الحديث.

قال ابن القيم في الهدي[١]: وقول موسى بن عقبة أصوب، وأبو العاص إنما أسلم زمن الهدنة، وكانت زينب هاجرت قبله وتركته على شركه، وردَّها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنكاح الأول، قيل: بعد سنتين، وقيل: بعد ست سنين[٢]، وقيل: قبل انقضاء العدة، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: ردها عليه بنكاح جديد سنة سبع[٣].

سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين

الذين قتلوا راعي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستاقوا الإبل في شوال سنة ست، قاله الواقدي وابن سعد وابن حبان[٤]، أو في ذي القعدة بعد الحديبية، وهو المذكور في البخاري[٥].

والعرنيون حي من بجيلة. وفي البخاري: من عكل وعرينة.

وفي الصحيحين[٦] عن أنس أن رهطًا من عكل وعرينة أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، فاستوخمنا المدينة. فأمر لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذود، وأمرهم أن يخرجوا فيها

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٨٤).
(٢) أبو داود [٢٠٩٩].
(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٤٩).
(٤) مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٨).
(٥) الفتح (١/ ٤٠٢).
(٦) البخاري [٤١٩٢]، ومسلم [١٤/ ١٦٧١].

فيشربوا من أبوالها وألبانها. فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستاقوا الذود وكفروا بعد إسلامهم.

وفي لفظ لمسلم: وسملوا عين الراعي.

وعند البخاري[١] أنهم كانوا مع أهل الصفة قبل أن يخرجوا إلى الذود.

وفي البخاري[٢]: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها.

وفي لفظ: فبعث الطلب في آثارهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا[٣]، وقال أنس: إنما سمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعينهم لأنهم سملوا أعين الراعي، رواه مسلم[٤].

وفي حديث أبي الزبير عن جابر: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم عمِّ عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مسك جمل»، فعمى الله عليهم السبيل فأدركوا، وذكر القصة.

وفي البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله[٥].

وفي الترمذي[٦] عن ابن سيرين: إنما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك قبل أن تنزل الحدود.

وفيها من الفقه جواز شرب أبوال الإبل، وطهارة بول مأكول اللحم، والجمع للمحارب - إذا أخذ وقتل - بين قطع يده ورجله، وأنه يفعل بالجاني كما فعل، لأنهم

---

(١) البخاري [٦٨٠٤].

(٢) البخاري [٦٨٠٤].

(٣) البخاري [٥٧٢٧].

(٤) برقم [١٦٧١].

(٥) البخاري [٢٣٣].

(٦) الترمذي [٧٢]، وهو في البخاري [٥٦٨٦].

لما سملوا أعين الراعي سمل أعينهم. وقد ظهر بهذا أن القصة محكمة ليست منسوخة، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود، فالحدود نزلت بتقريرها لا بإبطالها[١].

غزوة سيف البحر

قال البخاري[٢]: عن جابر بن عبد الله: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثًا قبل الساحل، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، يتلقون عيرًا لقريش، فخرجنا فكنا ببعض الطريق، ففني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلًا حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة. فقلت[٣]: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت.

وفي لفظ[٤]: فأقمنا بالساحل نصف شهر، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لنا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادهنا من ودكه حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه فعمد إلى أطول رجل معه ثم أمر براحلة فرحلت فمر تحته، فقال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه. وفي رواية[٥] أنه قيس بن سعد.

وفي لفظ: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: كلوا رزقًا أخرجه الله لكم، وأطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بعضو فأكله[٦].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٨٦).

(٢) البخاري [٤٣٦٠].

(٣) القائل هو وهب بن كيسان الراوي عن جابر.

(٤) البخاري [٤٣٦١].

(٥) البخاري [٤٣٦١].

(٦) البخاري [٤٣٦٢]، ومسلم [١٩٣٥].

والصحيح أن هذه الغزوة كانت سنة ست قبل الهدنة، كما قاله ابن سعد، وصاحب الهدي[(١)].

غزوة الحديبية[(٢)]

بتخفيف الياء وتشديدها، وهي بئر يسمى المكان بها. قال نافع: كانت سنة ست في ذي العقدة. قال صاحب الهدي: وهو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم[(٣)].

قالوا: وسبب هذه الغزوة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أري في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا / [١٣٣] واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فأخبر أصحابه أنه معتمر، فتجهزوا للسفر، واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، وهو لا يريد الحرب، ولكنه يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو صدود عن البيت، فأبطأ كثير من الأعرب، فغسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثيابه وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج منها يوم الاثنين غرة ذي القعدة من السنة السادسة، ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر - السيوف في القرب.

وفي البخاري: عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بذي الحليفة قلد

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣١)، وزاد المعاد (٣/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) الحديبية على ٢٢ كيلًا غرب مكة على طريق جدة القديم. معجم المعالم الجغرافية (ص ٩٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٢٦).

الهدي، وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا كانوا بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

فقال: أشيروا علي أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله.

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرَة الجيش فانطلق يركض نذيرًا لقريش.

وسار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته، فقال الناس: حلْ حلْ[(١)]. فألحت فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها.

ثم زجرها فوثبت به، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا[(٢)]، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه[(٣)].

---

(١) لفظ تزجر به الدابة إذا حملت على السير.

(٢) أي يأخذونه قليلًا قليلًا. والثمد بالتحريك الماء. النهاية في غريب الحديث (١/ ١١٩، ٢٢١).

(٣) جزء من حديث البخاري [٤١٧٨، ٤١٧٩].

فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل[١]، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس إن شاؤوا، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا[٢]، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشًا فقال: إنا جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقام عروة بن مسعود فقال: يا قوم، ألستم بالوالد[٣]؟ قالوا: بلى. قال: ألست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني. قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا[٤] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد قاقبلوها، ودعوني آته.

---

(١) جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: النوق مع أولادها، والمعنى أنهم خرجوا بنسائهم وأطفالهم لئلا يفروا ويتركوا مكانهم إذا نشبت المعركة. ينظر: الروض الأنف (٦/ ٤٧٧).

(٢) أي: وإن لم أظهر فقد استراحوا.

(٣) أي: مثل الأب في الشفقة لولده.

(٤) أي عجزوا وامتنعوا.

فأتاه، فجعل يكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحوًا من قوله لبديل.

فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوهًا، وإني لأرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر الصديق: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟! فقال عروة: من هذا؟ فقال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. [فقال]: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه، قال: فوالله ما انتخم رسول الله / [١٣٤] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له.

قال: فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك فوفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له. فبعثت له، واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آتيه. فلما أشرف على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا مكرز وهو رجل فاجر. فجعل يكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد سهل لكم من أمركم.

وفي رواية ابن إسحاق: فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالوا: اذهب إلى هذا الرجل فصالحه. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا. فلما انتهى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جرى بينهما الصلح[١].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٩).

وذكر ابن إسحاق أيضًا في روايته[١] أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى أهل مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة أحد من بني عدي بن كعب يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لقتال ولا لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت أشراف قريش لعثمان حين فرغ من بلاغ رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. واحتبسته قريش عندها، حتى ظن رسول الله والمسلمون أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق[٢]: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [قال] حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الموت[٣]. وكان جابر بن عبد الله يقول: لم نبايع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر[٤]. انتهى.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٧-٤٣٨)، وما بين المعقوفين منه.

(٣) البخاري [٤١٦٩]، ومسلم (٨٠/ ١٨٦٠).

(٤) مسلم (٦٧/ ١٨٥٦).

قلت: قال بعضهم: معنى القولين واحد. فبايعه جماعة على الموت، أي: لا نزال نقاتل بين يديك حتى نموت، وبايعه آخرون وقالوا: لا نفر.

وذكر وكيع بن الجراح عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي أن أول من بايعه أبو سنان الأسدي، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين ممن حضرها إلا جد بن قيس أحد بني سلمة، قال جابر بن عبد الله: وكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته مستترًا بها عن الناس[(١)]. انتهى.

وضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده اليمنى على اليسرى فقال: هذه لعثمان[(٢)]، وكانت يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» انتهى[(٣)].

ولما أبطأ عثمان قال الناس: طوبى لعثمان، دخل مكة وسيطوف بالبيت وحده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما كان ليطوف وحده». ولما تمت البيعة رجع عثمان، فقال المسلمون له: يا عثمان، اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت. فقال: بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت. فقال المسلمون: رسول الله كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظنًّا.

---

(١) مسلم (٦٩/ ١٨٥٦).

(٢) البخاري [٣٦٩٨].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٦٥٣].

وكان عمر بن الخطاب آخذًا بيد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبيعة، وهو تحت الشجرة، وكان معقل بن يسار آخذًا بغصنها يرفعه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات: في أول الناس ووسطهم وآخرهم[(٢)].

قال ابن إسحاق[(٣)] في حديثه عن الزهري: فلما جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمه وطال بينهما الكلام، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها.

ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو. قال: فقال سهيل بن عمرو: / [١٣٥] لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

وفي رواية البخاري[(٤)]: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله.

وفي رواية له ولمسلم[(٥)]: فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي: امحه. فقال: ما أنا بالذي أمحوه. فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ لعلي: أرني مكانها. فأراه مكانها فمحاه، وكتب محمد بن عبد الله.

وفي البخاري[(٦)]: قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

---

(١) مسلم [١٨٥٨].
(٢) مسلم [١٨٠٧].
(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٤٥).
(٤) البخاري [٢٧٣١، ٢٧٣٢].
(٥) البخاري [٢٦٩٨]، ومسلم [١٧٨٣].
(٦) [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

فقال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب.

وعند ابن إسحاق[١] في روايته: واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف فيهن بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليهم[٢]. وأنا بيننا عيبة مكفوفة[٣]، وأنه لا إسلال[٤] ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد من العرب وفي عهده دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش من العرب وعهدهم دخل فيه - فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثب بنو بكر وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم - وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك [فأقروا][٥] بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها.

وفي رواية البخاري[٦]: قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده علي. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا لم نقض الكتاب بعد. فقال: إذًا والله لا أصالحك على شيء أبدًا. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أجزه لي. قال:

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤٠-٤٤١).
(٢) كذا في المخطوط، وفي سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤١): «عليه».
(٣) أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع. النهاية (٣/ ٣٢٧).
(٤) **الإسلال**: السرقة الخفية، **والإغلال**: الخيانة. ينظر: الروض الأنف (٦/ ٤٨٩).
(٥) في سيرة ابن هشام: فأقمتَ.
(٦) البخاري [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

ما آنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله.

وفي رواية غير البخاري: فقام سهيل إلى سمرة فأخذ منها غصنًا وضرب به وجه أبي جندل ضربًا رق عليه المسلمون وبكوا.

وفي رواية ابن إسحاق[1]: فجعل يصرخ بأعلى صوته: أرد إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ فزاد الناس ذلك على ما بهم. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك عهدًا وأعطونا على ذلك عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فضن الرجل بأبيه.

وفي رواية: أنه لما قال له سهيل: على من أتاك منا وإن كان على دينك رددته إلينا، قال عمر: يا رسول الله أترضى بهذا؟ فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا، ومن أعرض عنا وذهب إليه فليس منا ولسنا منه، بل هم أولى به.

وفي رواية ابن إسحاق[2]: وأشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤٢).
(٢) المصدر السابق.

سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص- وهو يومئذ مشرك - وعلي بن أبي طالب وكان هو كاتب الصحيفة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضطربًا[1] في الحل وكان يصلي في الحرم.

قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أن سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أن سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا.

قال: فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم / [١٣٦] رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات.

قال: فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت له أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا حتى فعل ذلك، نحر بدنه

(١) أي أن أبنيته وخيامه كانت مضروبة في الحل.

ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة:١٠] حتى بلغ: ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة:١٠]. وطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة، وأنزل الله عليه سورة الفتح في مرجعه إلى المدينة كما ثبت في مسلم[١] عن قتادة أن أنسًا حدثهم قال: لما نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح:١] إلى قوله: ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٥] مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحر الهدي بالحديبية، قال: لقد أنزلت عليَّ آية أحب إلي من الدنيا جميعًا.

وعند البخاري[٢] عن قتادة عن أنس ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئًا مريئًا، ما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الفتح:٥] الآية.

وفيه[٣] عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يسير في بعض أسفاره وعمر يسير معه ليلًا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت[٤] رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

(١) مسلم [١٧٨٦]، وهو في البخاري أيضًا [٤١٧٢].
(٢) البخاري [٤١٧٢].
(٣) البخاري [٤١٧٧].
(٤) أي ألححت عليه إلحاحًا. النهاية في غريب الحديث (٥/ ٣٩).

ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ، قال: فقلت: لقد خشيت أن ينزل في قرآن. فجئت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلمت عليه فقال: لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وعن مجمع بن [جارية][(١)] قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفًا عند كراع الغميم وقد جمع الناس يقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الآية، فقال رجل: أوفتح هو يا رسول الله؟ قال: «إي والذي نفسي بيده إنه لفتح». أخرجه أحمد وأبو داود[(٢)].

وفي هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر، فلما صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» أخرجه البخاري[(٣)].

وفي غزوة الحديبية أيضًا أنزل الله تعالى فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة أو النسك في شأن كعب بن عجرة[(٤)].

وفيها دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمغفرة للمحلقين ثلاثًا وللمقصرين مرة[(٥)].

---

(١) في المخطوط: «ابن حارث»، وما أثبته من مصدري التخريج.

(٢) المسند (٣/ ٤٢٠)، وأبو داود (٣/ ٧٦) [٢٧٣٦].

(٣) البخاري [٤١٤١، وأيضًا ٨٤٦]، ومسلم [٧١].

(٤) البخاري [٤١٥٩، ٤١٩١].

(٥) البخاري [٤١٥٩، ٤١٩١، ١٧٢٧، ١٧٢٨]، ومسلم [١٣٠١، ١٣٠٢].

وفيها نحروا البدنة عن سبعة[١].

وفيها أيضًا عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه ركوة يتوضأ منها، إذ جهش الناس نحوه فقال: ما لكم؟ فقالوا: يا رسول الله ما عندنا ما نشرب ولا ما نتوضأ إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون. أخرجه البخاري[٢] عن جابر قال: فشربوا وتوضأوا وكانوا خمس عشرة مائة، وهذه غير قصة البئر التي تقدمت.

وفي حديث معمر عن الزهري عن عروة عن المسور ومروان[٣] بعد قوله: (فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية): ثم رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة فجاء أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلته لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: إني لأرى سيفك يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل، لقد جربت به ثم جربت. قال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرًا. فلما انتهى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني لهم، ثم أنجاني الله منهم. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد. فلما

---

(١) مسلم [١٣١٨].

(٢) البخاري [٤١٥٢].

(٣) بقية حديث البخاري [٢٧٣١، ٢٧٣٢].

سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير.

فجعل لا يخرج من قريش أحد إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمع منهم عصابة، فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ [الفتح:٢٤] الآية حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا / [١٣٧] بينهم وبين البيت. انتهى.

قال ابن إسحاق[(١)] في روايته: ثم قال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٦] أي: التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم قال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧] الآية إلى قوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]، يعني صلح الحديبية، يقول الزهري: فما فتح في الإسلام قبله فتح أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس والتقوا فتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. انتهى.

قالوا: وفي هذه السنة كسفت الشمس[(٢)].

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤٧).

(٢) الثقات لابن حبان (١/ ٢٨٢).

وفيها ظاهر أوس بن الصامت من امرأته خولة.

وفيها استسقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رمضان ومطر الناس.

وفيها أيضًا حرمت الخمر كما جزم به غير واحد، وذكر ابن إسحاق أنه كان في وقعة بني النضير، وهي بعد أحد، وذلك سنة أربع على الراجح.

غـــزوة خيبر

وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية بُرد من المدينة تمشي ثلاثة أيام إلى جهة الشام[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بقية المحرم سنة سبع. وقيل: كانت في آخر سنة ست، وهو منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم[(٣)]. قال الحافظ ابن حجر[(٤)]: والراجح ما ذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة إنما هو من شهر الهجرة الحقيقي، وهو ربيع الأول. انتهى.

وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح:٢٠] يعني صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة فتح خيبر.

فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستنجزًا ميعاد ربه، واثقًا بكفايته ونصرته. وكان معه ألف وأربعمائة راجل، ومائتا فرس. ومعه أم سلمة زوجته. وأمر ألا يخرج معه

---

(١) الفتح (٧/ ٥٣٠). ويبعد عن المدينة ١٦٥ كيلًا شمالًا على طريق الشام المار بخيبر فتيماء. معجم المعالم الجغرافية (ص ١١٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٥٥).

(٣) جوامع السيرة (ص٢١١)، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٣١٦).

(٤) الفتح (٧/ ٥٣١).

إلا من رغب في الجهاد، لا من غرضه عرض الدنيا. واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

وفي البخاري[(١)] من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر فسرنا ليلًا، فقال رجل لعامر: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلًا شاعرًا، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداءً لك ما أبقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

وفي رواية أحمد زيادة[(٢)]:

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: يرحمه الله. قال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله، لولا أمتعتنا به.

وفي رواية أحمد[(٣)]: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب. وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير، ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو في تلك الحال، وكان معلومًا عندهم أنه ما استغفر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإنسان يخصه إلا استشهد. انتهى.

وقيل: أرسل ابن أبي إلى يهود خيبر أن محمدًا قد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عُزل

(١) البخاري [٤١٩٦].
(٢) المسند (٤/ ٥١).
(٣) المسند (٤/ ٥١).

لا سلاح [معهم] [١] إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبي الحُقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين، ولم تقبل غطفان خوفًا من أهل الإسلام.

وفي رواية ابن إسحاق[٢]: قبلوا، فلما نزل المسلمون منزل الرجيع، وكان بينهم وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، تهيأ غطفان وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسًّا ولغطًا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا.

ثم دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدليلين - وكان اسم أحدهما حسيل - ليدلاه على الطريق الأحسن حتى يحول بين أهل خيبر وغطفان، فقال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المعبَّدة، فقال: يا رسول الله، هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد. فأمر بأن يسميها له واحدًا واحدًا، قال: اسم واحد منها حزن، فأبى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سلوكه. وقال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا. وقال: اسم الآخر حاطب، فامتنع منه أيضًا. قال حسيل: فما بقي إلا واحد، قال عمر: ما اسمه؟ قال: مرحب، فاختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلوكه.

ولما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر صلى بها الصبح[٣]، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمكاتلهم ومساحيهم ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، وقيل: إن النوم غلب عليهم تلك الليلة ولم يقم منهم أحد، حتى إن الديكة لم تصح، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والله والخميس. ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم.

(١) ما بين المعقوفين من مطبوعتي الكتاب.
(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٥٨).
(٣) مسلم [١٣٦٥].

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في الصحيحين[١] عن أنس -: الله أكبر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. انتهى.

ولما دنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشرف عليها قال: قفوا، فوقف الجيش، فقال: اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من / [١٣٨] شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله[٢].

وقاتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر وقاتلوه أشد القتال. واستشهد من المسلمين خمسة عشر، وفتحها الله عليه حصنًا حصنًا، وأخذ كنز آل أبي الحقيق الذي كان في مسك الحمار[٣]، وكانوا قد غيبوه في خربة. ولما تيقن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن اليهود تحارب وعظ أصحابه وذكرهم وحرضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب وبشرهم بأن من صبر فله الظفر والغنيمة[٤].

وروي أن حباب بن المنذر أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟ قال: بل هو الرأي. فقال: يا رسول الله، إن هذا المنزل قريب جدًا من حصن نطأة، وجميع مقاتل خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم ولا نأمن بياتهم. وأيضًا هذا بين النخلات ومكان غائر وأرض وخيمة، لو

(١) البخاري [٤١٩٧، ٤٢٠٠].
(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٥٦-٤٥٧)، دون ذكر كلمة «السبع» في الموضعين.
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١١٠).
(٤) المغازي للواقدي (٢/ ٦٣٩).

أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرأي ما أشرت إليه. وقد جرى مثل هذا في غزوة بدر.

وفي البخاري[١]: وكان علي بن أبي طالب تخلف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان أرمد، فلما بتنا الليلة التي فتحت قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله. - وفي حديث سهل عند البخاري[٢]: ويحب الله ورسوله -، يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ [فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يرجو أن يعطاها][٣]، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه. فأتي به، فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

وفي حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم[٤]: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: فبرز له عمي عامر، فقال:

(١) البخاري [٤٢٩].
(٢) البخاري [٤٢١٠].
(٣) ما بين المعقوفين من صحيح البخاري (٣/ ١٣٥٧).
(٤) مسلم [١٨٠٧].

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يستل سيفه فرجع على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه. [قال: فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أبكي فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر؟][(١)] فقال رسول الله: من قال ذلك؟ قلت: ناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين. وفي رواية البخاري ومسلم[(٢)]: وجمع بين إصبعيه: إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشابه مثله.

وفي مسلم: قال سلمة: وخرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندرة[(٣)]

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه. انتهى.

وعند ابن إسحاق[(٤)]: أنَّ عليًّا لما دنا من حصنهم اطلع يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: علوتم وما أنزل على موسى. ثم

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٠) [١٨٠٧].

(٢) البخاري [٦١٤٨]، ومسلم [١٣٦٥].

(٣) مكيال كبير ضخم مثل القنقل والجراف، أي: أقتلكم قتلًا واسعًا كبيرًا ذريعًا. انظر: لسان العرب (٤/ ٣٨٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٦٥).

خرج ياسر أخو مرحب، فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله يقتل ابني. فقال: بل ابنك يقتله إن شاء الله. فقتله الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن إسحاق[١]: وحاصر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا تيقنوا بالهلاك سألوه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ففعل. وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حاز الأموال كلها الشق والنطأة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين. فلما سمع بهم أهل فدك[٢] أنهم قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال.

وكانت خيبر بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

وقال حماد بن سلمة[٣]: أنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الزرع والأرض والنخل، فصالحهم على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصفراء والبيضاء، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئًا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مَسْكًا[٤] فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعم حيي: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب. فقال: العهد قريب

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٢) قرية من شرقي خيبر على وادٍ يذهب سيله مشرقًا إلى وادي الرُّمة، تعرف اليوم بالحائط. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ١٥٧).

(٤) أي: الجلد. لسان العرب (١٠/ ٤٨٦).

والمال أكثر من ذلك. فدفعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حييًا يطوف في خربة ههنا. فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابني أبي الحقيق - وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب - وسبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا.

وأراد أن يجليهم منها فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم. ولم يكن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لأصحابه غلمان يقومون / [١٣٩] عليها، فأعطاهم خيبر على أنَّ لهم الشطر من كل زرع وثمر، ما بدا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقرهم. انتهى.

قال في الهدي[(١)]: ولم يقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ابن أبي الحقيق للنكث الذي نكثوا، وأمر بلالًا أن يذهب بصفية إلى رحله، فمر بها بلال وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: أذهبت منك الرحمة يا بلال؟ وعرض عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلام فأسلمت واصطفاها لنفسه، وأعتقها وجعل عتقها صداقها، وبنى بها في الطريق وأولم عليها. ورأى بوجهها خضرة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا رسول الله، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه فسقط في حجري، ولا والله لا أذكر من شأنك شيئًا، فقصصتها على زوجي فلطم وجهي وقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة.

وشك الصحابة هل اتخذها زوجة أو سرية، فقالوا: إن حجبها فهي إحدى نسائه، وإلا فهي مما ملكت يمينه. فلما ركب جعل ثوبه الذي ارتدى به على ظهرها ووجهها، ثم شد طرفه تحته، فتأخروا عنه في المسير، وعلموا أنها إحدى نسائه.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٩).

وفي رواية البخاري[١] عن أنس أنها صارت إلى دحية، فذكر له جمالها فاصطفاها لنفسه، فجعل عتقها صداقها. وفي رواية: فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدحية: خذ جارية من السبي غيرها. وفي رواية لمسلم[٢] أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتراها منه بسبعة أرؤس.

فصل

وفي السنن والمسند[٣] أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ظهر على خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهمًا جمع كل سهم مائة سهم، فكان لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمسلمين النصف من ذلك، وعزل النصف الباقي لمن نزل به من الوفود والأمور ونوائب المسلمين. هذا لفظ أبي داود.

وفي لفظ: عزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانية عشر سهمًا - وهو الشطر - لنوائبه وما ينزل [به][٤] الوطيحة والكتيبة وما أحيز معها، وعزل النصف [فقسمه][٥] بين المسلمين [الشق والنطأة][٦] وما أحيز معهما. وكان سهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أحيز معهما[٧].

قال في الهدي[٨]: قال البيهقي: وهذا لأن خيبر فتح شطرها عنوة وشطرها صلحًا، فقسم ما فتح عنوة بين أهل الخمس والغانمين، وعزل ما فتح صلحًا لنوائبه وما يحتاج إليه من أمور المسلمين.

---

(١) البخاري [٤٢٠١].
(٢) مسلم [١٣٦٥].
(٣) أبو داود [٣٠١٢]، وأحمد (٤/ ٣٦).
(٤) ما بين المعقوفين بياض، والمثبت من سنن أبي داود.
(٥) في المخطوط: «قسمة»، والتصويب من سنن أبي داود.
(٦) في المخطوط: «السوط والعطاء»، والمثبت من المصدر السابق.
(٧) أبو داود [٣٠١٣].
(٨) زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).

قال ابن القيم[١]: قلت: وهذا بناء منه على أصل الشافعي أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة كما يقسم سائر الغنائم، فلما لم يجده قسم الشطر من خيبر قال: إنه فتح صلحًا. ومن تأمل السير والمغازي حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فتحت عنوة، وأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة. ولو فتح شيئًا منها صلحًا لم يجعلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، فإنه لما عزم على إخراجهم منها قالوا: نحن أعلم منكم، دعونا نكون فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها. وهذا صريح جدًّا في أنها إنما فتحت عنوة. وقد حصل بين المسلمين واليهود بها من الحرب والمبارزة والقتل بين الفريقين ما هو معلوم. ولكن لما لجأوا إلى حصنهم نزلوا على الصلح. فالصواب الذي لا شك فيه أنها فتحت عنوة، والإمام مخير في أرض العنوة بين قسمها ووقفها وقسم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنواع الثلاثة: قسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطر خيبر وترك شطرها، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب. وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة. ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسهم من حضرها. وقسم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا، هذا هو الصحيح الذي لا ريب فيه. انتهى.

قلت: وفي الصحيح عن نافع عن عبد الله بن عمر: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين، فأراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقرهم

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٢٨).

بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر، وقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نقركم بها على ذلك ما شئنا. فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحا[(١)].

وفي رواية له: عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع أو تمر، وكان يعطي أزواجه مائة وسق، ثمانون وسق تمر وعشرون وسق شعير. وقسم عمر خيبر فخير أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضي لهن، فمنهن من اختار الأرض، ومنهن من اختار الوسق، وكانت عائشة اختارت الوسق[(٢)].

وفي حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس التصريح[(٣)] بأنه كان عنوة، وبه جزم ابن عبد البر[(٤)]، وردَّ على من قال: فتحت صلحًا. قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال: فتحت صلحًا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لتحقن دماؤهم، وهو ضرب من الصلح، لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال. انتهى.

قال ابن إسحاق[(٥)]: وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطأة والكتيبة، وكانت الشق ونطأة في سُهمان المسلمين، وكانت الكتيبة خمسا لله، وسهما للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسهما لذوي القربى واليتامى والمساكين، وطعم أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجال مشوا بين / [١٤٠] رسول الله وبين أهل فدك بالصلح.

وفي الصحيح[(٦)] عن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: يا رسول الله إخواننا - بني هاشم - لا ننكر فضلهم علينا[(٧)]،

(١) البخاري (٢/ ٨٢٤)، ومسلم [١٥٥١].
(٢) البخاري [٢٣٢٨]، ومسلم [١٥٥١].
(٣) البخاري [٣٧١].
(٤) الدرر لابن عبد البر (ص٢٣٥).
(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٨٥-٤٨٦).
(٦) البخاري [٤٢٢٩، ٣٥٠٢، ٣١٤٠].
(٧) غير موجود في البخاري، وهو في سنن أبي داود [٢١٨٠]، والنسائي [٤١٣٦] وغيرهما.

وأعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن بمنزلة واحدة. فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. قال: ولم يقسم لبني عبد شمس وبني نوفل شيئًا. وفي رواية[١]: قال ابن إسحاق: عبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم وأمهم عاتكة بنت مرة، وكان نوفل أخًا لأبيهم. انتهى.

فصل

وفي هذه الغزوة حرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحوم الحمر الأهلية كما في البخاري[٢]، ولفظه: «فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم - يعني خيبر - أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم. قال: على أي لحم؟ قالوا: لحم الحمر الإنسية. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أهريقوها واكسروها. فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها. قال: أو ذاك».

وفي رواية[٣]: نهى يوم خيبر عن أكل الثوم وعن لحوم الحمر الأهلية. وفي رواية: نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في لحوم الخيل. وفي رواية أنس[٤]: جاءه جاءٍ فقال: أكلت الحمر. فسكت. ثم أتى الثانية فقال: أكلت الحمر. فسكت ثم أتى الثالثة فقال: أفنيت الحمر. فأمر مناديًا ينادي في الناس: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية، فإنها رجس.

---

(١) البخاري [٣١٤٠].
(٢) البخاري [٤١٩٦].
(٣) البخاري [٤٢١٥].
(٤) البخاري [٤٢١٩، ٥٥٢٤، ٥٥٢٨، ٥٥٣٠]، ومسلم [١٩٤١].

وفي هذه الغزوة نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم، وأن لا توطأ جارية حتى تستبرأ. وفي رواية ابن إسحاق عن رويفع قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنمًا حتى يقسم[١]، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبًا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه[٢].

وفي هذه الغزوة أيضًا سمت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت الحارث امرأةُ سلام بن مشكم كما في البخاري[٣] عن أبي هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة فيها سم... الحديث، وفيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لليهود: هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟ فقالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذابًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك.

وفي حديث جابر عند أبي داود[٤] أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها إلى رسول الله فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من الصحابة معه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارفعوا أيديكم، وأرسل إلى اليهودية، فقال: سممتِ هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي -للذراع-. قالت: نعم، قلت: إن كان نبيًّا فلم يضره، وإن لم يكن نبيًّا استرحنا منه، فعفا عنها ولم

(١) أبو داود [٢١٥٨، ٢١٥٩].
(٢) أخرجه الترمذي [١١٣١].
(٣) البخاري [٣١٦٩].
(٤) حديث [٤٥١].

يعاقبها. وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة. واحتجم رسول الله على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة.

وفي مغازي سليمان التيمي أنها أسلمت وقالت: الآن عرفت أنك نبي، وأني أشهدك ومن حضر أني على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وفي رواية[١] أنه قتلها لما مات بشر بن البراء، قال البيهقي[٢]: يحتمل أن يكون تركها أولًا، ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وبذلك أجاب السهيلي وزاد أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصًا. واختلف هل أكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها أو لم يأكل وأكثر الروايات أنه أكل منها وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال في وجعه الذي مات فيه: ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر، فهذا أوان انقطاع الأبهر مني[٣]. قال الزهري: فتوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدًا[٤].

وفي هذه الغزوة أيضًا قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، معهم الأشعريون عبد الله بن قيس أبو موسى وأصحابه، وكان فيمن قدم معهم أسماء بنت عميس. عن أبي موسى قال: بلغنا مخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهما أحدهما أبو رهم والآخر أبو بردة في بضعة وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، فوافقنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أبو داود [٤٥١١].
(٢) الدلائل (٤/ ٢٥٦).
(٣) البخاري [٤٤٢٨] معلقًا، وهو موصول عند أبي داود [٤٥١٣].
(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٧).

حين فتح خيبر فأسهم لنا، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئًا إلا من شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم. وكان ناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة. قال: ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، / [١٤١] فدخل عليها عمر فقال: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس الحبشية. [قال:][(١)] هذه البحرية؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: يا عمر كلا والله، لقد كنتم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء، وذلك في الله وفي رسول الله. وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله: ما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالًا يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم بأفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قالت أسماء: ولقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[(٢)].

قال أبو بردة عن أبي موسى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن

(١) ما بين المعقوفين من مصدر التخريج، وليس في المخطوط.
(٢) البخاري [٤٢٣٠، ٤٢٣١]، ومسلم [٢٥٠٢، ٢٥٠٣].

بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم إذا لقي الخيل أو قال: العدو قال: إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم. أخرجه البخاري وهذا لفظه[(١)].

وروي أنَّ جعفرًا لما قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلقاه وقبل جبهته وقال: والله ما أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر. ذكره ابن هشام في السيرة عن الشعبي[(٢)].

ولما جرت المقاسم في أموال خيبر شبع المسلمون ووجدوا بها مرفقًا لم يكونوا وجدوه قبل حتى قال عمر: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر[(٣)]، وعن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر. أخرجه البخاري في صحيحه[(٤)].

قال موسى بن عقبة: وكانت بنو فزارة ممن قدم على أهل خيبر ليعينوهم، فراسلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا، فأبوا عليه، فلما فتح الله عليه خيبر أتاه من كان ثم من بني فزارة فقالوا: وعدك الذي وعدتنا. فقال: لكم ذو الرقبة. فقالوا: إذَنْ نقاتلك. فقال: موعدكم كذا. فلما سمعوا ذلك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجوا هاربين.

قال الواقدي: قال أبو [شُييم][(٥)] المزني - وكان قد أسلم وحسن إسلامه -: لما نفرنا إلى أهلينا مع عيينة بن حصن رجع بنا عيينة، فلما كان دون خيبر عرسنا من الليل، فقال عيينة: إني أرى الليلة في النوم أعطيت ذا الرقبة جبل بخيبر، قد والله

(١) البخاري [٤٢٣٢].
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٧)، وهو في سنن أبي داود [٥٢٢٠].
(٣) البخاري [٤٢٤٣].
(٤) البخاري [٤٢٤٢، ٤٢٤٣].
(٥) في المخطوط: «سلم»، والمثبت من مغازي الواقدي (٢/ ٦٧٥)، والإصابة (٧/ ٢١٤).

أخذت برقبة محمد. فلما قدمنا خيبر قدم عيينة فوجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فتح خيبر فقال: يا محمد، أعطني ما غنمت من حلفائي، فإني أنصرف عنك وعن قتالك. [قال: كذبت][(١)]، ولكن الصياح الذي سمعت نفرك إلى أهلك. قال: أجزني يا محمد، قال: لك ذو الرقبة. قال: وما ذو الرقبة. قال: الجبل الذي رأيت في النوم أنك أخذته. فانصرف عيينة. فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف فقال: ألم أقل لك: إنك توضع في غير شيء، والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، يهود كانوا يخبروننا بهذا، أشهد لقد سمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق قال: إنا نحسد محمدًا على النبوة حيث خرجت من بني هارون وموسى، [وهو نبي][(٢)] مرسل ويهود لا تطاوعني على هذا. ولنا منه ذبحان واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعًا؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، ما أحب أن يعلم يهود بقولي فيه. انتهى[(٣)].

وقدم أبو هريرة المدينة مسلمًا فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فسمعه يقرأ في الركعة الأولى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] وفي الثانية: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] فقال في صلاته: ويل لأبي فلان، له مكيلان إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص. فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده حتى قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهمانهم[(٤)].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من مغازي الواقدي (٢/ ٦٧٦).
(٢) ما بين المعقوفين بياض، والمثبت من مغازي الواقدي (٢/ ١٧٧).
(٣) مغازي الواقدي (٢/ ٦٧٥-٦٧٧) بتصرف.
(٤) الطبقات الكبرى (٤/ ٣٢٨)، وصحيح ابن حبان (الإحسان ١٦/ ١٠٩).

وفي الصحيح[(١)] عن أبي هريرة قال: افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وادي القرى ومعه عبد له يقال له: مدعم أهداه له أحد بني الضبيب، فبينما هو يحط رحل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئًا له الشهادة. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا. فجاء رجل حين سمع ذلك بشراك أو بشراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شراك أو شراكان من نار. انتهى.

قال في الهدي[(٢)]: فعبأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ورايته إلى الحباب بن المنذر وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعا اليهود إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله. فبرز رجل / [١٤٢] منهم، فبرز إليه الزبير فقتله. ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل رجلًا دعا من بقي إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلي بأصحابه، ثم ينصرف فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله وإلى رسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثًا وأمتعة كثيرة.

وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها، فلما بلغ

(١) البخاري [٤٢٣٤، ٦٧٠٧]، ومسلم [١١٥].
(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٥٥).

يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقاموا بأموالهم، فلما كان زمن عمر بن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى، [لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى][(١)] إلى المدينة حجاز وما وراء ذلك من الشام. انتهى.

وقال غيره: وذلك أنه بلغه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في وجعه الذي توفي فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، ففحص عن ذلك حتى وجد الثبت[(٢)].

فصل

قال موسى بن عقبة وغيره: وكان بين قريش رهون عظيمة حين سمعوا بمخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، فمنهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه، ومنهم من يقول: يظهر الحليفان ويهود خيبر.

وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وشهد فتح خيبر، وكانت تحته أم شيبة أخت بني عبد الدار بن قصي، وكان الحجاج مكثرًا من المال، وكانت له [معادن بأرض][(٣)] بني سليم. فلما ظهر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خيبر قال الحجاج: إن لي ذهبًا عند امرأتي، وإن تعلم هي وأهلها بإسلامي فلا مال لي، فأذن لي أسرع السير وأسبق الخبر، ولأخبرن أخبارًا أدرأ بها عن نفسي ومالي. فأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما قدم مكة قال لامرأته: أخفي علي واجمعي ما كان عندك من مال، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم، وإن محمدًا قد أسر وتفرق عنه أصحابه، وإن اليهود قد أقسموا ليبعثن به إلى مكة ثم ليقتلنه بقتلاهم

---

(١) بياض في المخطوط، والمثبت من زاد المعاد.

(٢) عبد الرزاق في المصنف (٤/ ١٢٥).

(٣) في المخطوط: «معاذر أرض»، والتصويب من زاد المعاد (٣/ ٣٣٧).

بالمدينة. وفشا ذلك في مكة، واشتد على المسلمين وبلغ منهم، وأظهر المشركون الفرح والسرور، وبلغ العباس عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زجلة الناس وجلبتهم وإظهار السرور، فأراد أن يقوم ويخرج، فما تحرك ظهره ولم يقدر على القيام، فدعا ابنًا له يقال له: قثم وكان يشبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل يرتجز ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله، فيقول:

[حبي قثم حبي قثم ... شبيه ذي الأنف الأشم
نبي رب ذي النعم ... برغم أنف من رغم][1]

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون، منهم المظهر للفرح والسرور، ومنهم الشامت والمعزي، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء.

فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده طابت أنفسهم، وظن المشركون أن قد أتاه ما لم يأتهم. ثم أرسل العباس غلامًا له إلى الحجاج وقال له: اخل به وقل له: ويلك ما الذي جئت به وما تقول؟ فالذي وعد الله خير مما جئت به.

فلما كلمه قال: اقرأ أبا الفضل السلام وقل له: فليخل لي في بعض بيوته حتى آتيه، فإن الخبر على ما يسره. فلما بلغ العبد باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل. فوثب العباس فرحًا كأنه لم يصبه بلاء قط حين جاءه وقبَّل ما بين عينيه وأخبره بقول الحجاج فأعتقه. قال: أخبرني. قال: يقول لك الحجاج: اخل به في بعض بيوتك حتى يأتيك ظهرًا.

فلما جاءه الحجاج وخلا به أخذ عليه ليكتمن خبره، فوافقه العباس على ذلك، فقال الحجاج: جئت وقد افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر وغنم أموالهم وجرت

(١) ما بين المعقوفين سقط بعضه في المخطوط، فأثبتناه من صحيح ابن حبان (١٠/ ٣٩١).

فيها سهام الله، وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اصطفى صفية بنت حيي لنفسه وأعرس بها. ولكن جئت لمالي، أريد أن أجمعه وأذهب به، وإني استأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أقول، فأذن لي، فأخف علي ثلاثًا، ثم قل ما شئت. قال: فجمعت له امرأته متاعه ثم انشمر راجعًا.

فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ قالت: ذهب. وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك. فقال: أجل لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب، فتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية لنفسه، وإن كان لك في زوجك حاجة فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقًا. قال: فإني والله صادق، والأمر على ما أقول لك. قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: الذي أخبرك بما أخبرك به.

ثم ذهب حتى أتى مجلس قريش، فلما رأوه قالوا: هذا والله التجلد يا أبا الفضل، لا يصيبك إلا خير. قال: أجل لا يصيبني إلا خير والحمد لله، أخبرني الحجاج بكذا وكذا. وقد سألني أن أكتم عليه ثلاثًا لحاجته. فرد الله ما كان بالمسلمين من كآبة وجزع على المشركين، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر، فأشرقت وجوه المسلمين[(١)]. / [١٤٣]

فصل

ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر إلى المدينة مؤيدًا منصورًا، فلما كان بسد الصهباء[(٢)] أعرس بصفية بنت حيي، فأقام ثلاثة أيام يبني عليه بصفية، ثم صنع

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٨).

(٢) **الصهباء**: جبل أحمر يشرف على خيبر من الجنوب، يسمى اليوم جبل عطوة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢١١).

حيسًا في نطع صغير، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنس بن مالك: آذن من حولك، قال أنس: فدعوت الناس على وليمته على صفية، وما كان فيها خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالًا بالأنطاع فبسطت، فألقى عليها التمر والأقط والسمن وهو الحيس، فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحوي لها وراءه بعباءة وطأ لها خلفه، ثم جلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته، وقد مد الحجاب بينها وبين الناس[(١)].

قال أنس: فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه. ثم نظر إلى المدينة فقال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة[(٢)]، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم، وفي رواية: فلما أشرف على المدينة قال: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون. فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة[(٣)].

وفي مرجعه إلى المدينة سار ليلة من الليالي، حتى إذا كان من آخر الليل نام هو وأصحابه كما في صحيح مسلم وموطأ مالك[(٤)] عن سعيد بن المسيب عن رسول الله، وعند مسلم: عن سعيد عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة، حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال: اكلأ لنا الليل. وصلى ما قدر له. ونام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه. فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجها الفجر، فغلبت بلالًا عيناه، فلم يستيقظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولهم استيقاظًا، ففزع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أي بلال. فقال بلال: أخذ بنفسي

(١) البخاري [٤٢١١، ٤٢١٢، ٤٢١٣].
(٢) البخاري [٤٠٨٤].
(٣) البخاري [٦٣٨٥]، ومسلم [١٣٤٤].
(٤) مسلم [٦٨٠]، والموطأ (ص٣٨، ٣٩].

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله - [الذي أخذ][(١)] بنفسك. فقال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم شيئًا. ثم توضأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [وأمر بلالًا] فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى [قال]: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، قال يونس: وكان ابن شهاب يقرأها: ﴿للذكرى﴾. وفي رواية لمسلم[(٢)] فقال: هذا منزل حضرنا فيه الشيطان. وفيه: ثم صلى سجدتين ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة.

وفيها من الفقه أن من نام عن صلاة أو نسيها فوقتها حين يستيقظ أو يذكرها.

وفيها أن السنن [تقضى][(٣)] كما تقضى الفرائض، لأنه قضى سنة الفجر معها وقضى سنة الظهر لما فاتته وحدها، وكان هديه قضاء السنن الرواتب مع الفرائض.

وفيه أن الفائتة يؤذن لها ويقام، فإن في بعض طرق هذه القصة أنه أمر بلالًا فأذن وأقام. ذكره أبو داود[(٤)].

وفيها قضاء الفائتة جماعة، وأن قضاءها على الفور، وإنما أخرها عن مكان معرسهم قليلًا لكونه مكانًا فيه شيطان.

وفيه تنبيه على اجتناب الصلاة في أمكنة الشيطان كالحمام والحش بطريق الأولى. انتهى[(٥)].

وفي صحيح مسلم[(٦)] عن ابن شهاب عن أنس قال: لما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم

(١) ما بين المعقوفين - هنا وفي الموضع الآتي - غير موجود في المخطوط، والمثبت من صحيح مسلم.
(٢) مسلم [٦٨٠].
(٣) ما بين المعقوفين من زاد المعاد (٣/ ٣٥٨).
(٤) أبو داود [٤٣٦].
(٥) زاد المعاد (٣/ ٣٥٨).
(٦) مسلم [١٧٧١].

من ثمارهم، وكان المهاجرون لما قدموا من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤنة، وكانت أعطت أم أنس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عذاقًا لها.

وفي رواية: فأمرني أهلي أن آتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسأله ما كان أهلي أعطوه، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أعطاه أم أيمن، فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطانيهن. فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وقالت: والله لا يعطيكهن وقد أعطانيهن، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أم أيمن اتركيه ولك كذا وكذا. وتقول: كلا والله الذي لا إله إلا هو. فجعل يقول: لك كذا لك كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله. وفي رواية[١]: أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم أيمن مكانهن من حائطه.

فصل

وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مقدمه من خيبر إلى شوال، ويبعث في خلال ذلك السرايا:

فمنها سرية الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نجد إلى بني فزارة، ومعه سلمة بن الأكوع فوقع في سهمه جارية حسناء فاستوهبها منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة، كما في صحيح مسلم[٢].

ومنها سرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شعبان سنة سبع، ومعه ثلاثون رجلًا، فخرج معه دليل من بني هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

(١) البخاري [٢٦٣٠، ٤١٢٠].
(٢) مسلم [١٧٥٥].

ومنها سرية بشير بن سعد إلى بني مرة بفدك، ومعه ثلاثون رجلًا، فقتلوا وقاتل بشير بن سعد حتى ارتث وقيل: / [١٤٤] قد مات. وقدم زيد بن الحارث يخبرهم، ثم قدم بعده بشير بن سعد[(١)].

ومنها سرية إلى الحرقات من جهينة، وقيل: إن الأمير غالب بن عبد الله الكلبي، فلما دنا منهم بعث الأمير الطلائع، فلما رجعوا بخبرهم أقبل حتى إذا دنا منهم ليلًا وقد هدأوا فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تعصوني ولا تخالفوا أمري، فإنه لا رأي لمن لا يطاع. ثم رتبهم فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق كل منكم صاحبه وإياكم أن يرجع أحد منكم فأقول: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري، فإذا كبرت فكبروا وجردوا السيوف، فكبروا واحملوا حملة واحدة، ففعلوا وأحاطوا بالقوم وأخذتهم سيوف الله.

وفي البخاري[(٢)] عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم. فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري عنه وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذًا. فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

ومنها سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجَبَّار بفتح الجيم وهي أرض لغطفان ويقال: لفزارة وعذر، وبعث معه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا للإغارة على

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٧٢٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١١٧-١١٨).
(٢) البخاري [٤٢٦٩]، وهو في صحيح مسلم [٩٦] أيضًا.

المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسيره هربوا، وأصاب لهم نعمًا كثيرة، وأسر رجلين فقدم بهما إلى المدينة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلما[١].

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية قبل نجد وفيها ابن عمر، قال: فبلغت سهامنا اثني عشر بعيرًا، ونفلنا بعيرًا فرجعنا بثلاثة عشر بعيرًا[٢].

ومنها سرية عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكبًا فيهم عبد الله بن أنيس إلى البشير بن رزام اليهودي، لأنه بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه بخيبر فذكروا له أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسلنا إليك ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلًا مع كل رجل رديف من المسلمين، فلما بلغوا قرقرة سار - وهي من خيبر على ستة أميال - ندم البشير فأهوى إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم حتى استمكن من البشير ضرب رجله فقطعها، فاقتحم البشير وفي يده مخرش من شوحط[٣] فضرب به وجه عبد الله فشجه مأمومة، فاتكأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل من يهود أعجزهم شدا، ولم يصب من المسلمين أحد، فقدموا على رسول الله فبصق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات[٤].

سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: نزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩] في عبد الله بن حذافة السهمي، بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سرية[٥].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٧٢٧-٧٢٨)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٢٠).

(٢) البخاري [٤٣٣٨].

(٣) المخرش عصا معوجة الرأس كالصولجان، والشوحط ضرب من شجر الجبال تتخذ منه القسي، والمأمومة الشجة التي بلغت أم الرأس. النهاية (٢/ ٢٢، ٥٠٨، ١/ ٦٨).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٩٢).

(٥) البخاري [٤٥٨٤]، ومسلم [١٨٣٤].

وفي الصحيحين[(١)] عن علي قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال: فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوا. فقال: أوقدوا لي نارًا، فأوقدوا. ثم قال: ألم يأمركم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النار. قال: فسكن غضبه، وطفئت النار. فلما قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكروا ذلك له فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف». قال في الهدي[(٢)]: وهذا هو عبد الله بن حذافة.

عمرة القضاء

قال الحاكم[(٣)]: تواترت الأخبار أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هل ذو القعدة سنة سبع أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد إلا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا.

وخرج عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه من المسلمين ألفان، واستعمل على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق عَلَيْهِ السَّلَامُ ستين بدنة، وأحرم لها من ذي الحليفة، ولبى ولبى المسلمون، وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي، فلما نزل بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن يأجج يسمع ويبصر - موضع بمكة - حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائة رجل، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف في القُرُب، وخرجت رؤساء قريش من مكة إلى رؤوس الجبال لئلا يروه عداوة لله ولرسوله.

---

(١) البخاري [٤٣٤٠]، ومسلم [١٨٤٠].

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٦٨).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٠٠).

وقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهدي أمامه، فحبس بذي طوى، وركب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلما قدم رسول الله /[١٤٥] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم أن يكشفوا عن المناكب، وأن يسعوا في الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم، وكان يكابدهم بكل ما استطاع[(١)].

وفي البخاري[(٢)] عن ابن عباس: قال المشركون: يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أن يرملوا في الأشواط الثلاثة وأن يمشوا بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. انتهى.

وهو أول اضطباع ورمل في الإسلام.

فصف المشركون وقوفًا ينظرون إليه، ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة من الثنية التي تطلعه على الحُجون[(٣)] وابن رواحة آخذ بزمام راحلته.

وفي الشمائل للترمذي[(٤)] عن أنس أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربْكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٧٣٤).

(٢) البخاري [٤٢٥٦]، وهو في صحيح مسلم [١٢٦٤] أيضًا.

(٣) الثنية تفضي على مقبرة المعلاة والمقبرة عن يمينها وشمالها مما يلي الأبطح، تسمى الثنية اليوم «ريع الحجون». معجم المعالم الجغرافية (ص ٩٤).

(٤) مختصر الشمائل للترمذي [٣١٠].

ورواه عبد الرزاق من وجهين، وزاد:

قد أنزل الرحمن في تنزيله ... بأن خير القتل في سبيله

نحن قتلناكم على تأويله ... كما قاتلناكم على تنزيله[(١)]

وأخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل، وفيه:

يا رب إني مؤمن بقيله[(٢)]

وزاد ابن عقبة: بعد قوله: (قد أنزل الرحمن في تنزيله):

في صحف تتلى على رسوله ... بأن خير القتل في سبيله

وزاد ابن إسحاق[(٣)]:

يا رب إني مؤمن بقيله ... إني رأيت الحق في قبوله

انتهى.

قالوا: ولم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعًا بثوبه، وطاف على راحلته والمسلمون معه قد اضطبعوا بثيابهم.

وفي الشمائل[(٤)] في حديث أنس: فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله [وفي حرم الله تقول] شعرًا؟ [فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خل عنه يا عمر، فلهي][(٥)] أسرع فيهم من نضح النبل. انتهى.

ثم طاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدي عند المروة قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر. فنحر عند المروة وحلق هناك. وكذلك فعل المسلمون.

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ٣٧٦).

(٢) السنن الكبرى (١٠/ ٢٢٨)، ولم نقف عليه في كتب الطبراني. وانظر: فتح الباري (٧/ ٥٠١).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٠١).

(٤) حديث [٣١٠] من مختصر الشمائل.

(٥) في الموضعين بياض، والاستدراك من شمائل الترمذي (ص٢٠٤).

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسًا إلى أصحابه ببطن يأجج فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم، ففعلوا. وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة ثلاثًا.

وفي البخاري[١] عن البراء: فلما مضى الأجل أتوا عليًا، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل. فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذها بيده وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها. فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي: أنت مني وأنا منك. وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلقي. وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا. وقال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة[٢]. انتهى.

وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة في عمرة القضاء[٣]. وخلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسي، وأقام بسرف حتى قدمت ميمونة ومن معها، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم فبنى بها بسرف، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة. وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها[٤]، وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد.

قال ابن عباس: وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال[٥].

---

(١) البخاري [٢٦٩٩].
(٢) البخاري [٤٢٥١].
(٣) البخاري [٤٢٥٩].
(٤) البخاري [٤٢٥٨].
(٥) البخاري [٤٢٥٨].

وقد استُدرك ذلك على ابن عباس، وعد من وهمه. قال سعيد بن المسيب: وَهِلَ ابن عباس وإن كانت خالته، ما تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد ما حل[١].

ووهل بكسر الهاء أي: غلط.

وفي مسلم[٢] عن ميمونة: تزوجني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن حلالان بسرف.

وقال المنذري: إنها آخر من تزوجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآخر من مات من أزواجه. انتهى والله أعلم[٣].

غزوة مؤتـــة

قالوا: فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمرة القضاء أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرًا وشهر ربيع، وفي صفر من هذه السنة قدم خالد بن الوليد [وعمرو بن العاص][٤] وعثمان بن طلحة الحجبي وأسلموا، فلما رآهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها». ذكره في الاستيعاب[٥].

ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة بعث الأمراء إلى الشام، وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مُؤْتة - وهي بضم الميم، وهي من أعمال

---

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٢١٢)، وهو في سنن أبي داود بمعناه (٢/ ١٦٩).

(٢) مسلم [١٤١١]، ولفظه: «ونحن حلال»، والمصنف نقله من زاد المعاد (٣/ ٣٧٣).

(٣) لعل المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ بنى كلامه على قول ابن سعد من أنها ماتت سنة ٦١هـ، معتمدًا على نقل شيخه الواقدي، وقد رد ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٦٢٨)، وأثبت أن ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا توفيت سنة ٥١ من الهجرة. فلا تكون -بناءً عليه- آخر من مات من أزواجه.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في المخطوط، والمثبت من الاستيعاب.

(٥) الاستعياب (٢/ ١٢) ترجمة ٦٢١.

البلقاء بالشام دون دمشق - / [١٤٦] عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يقتل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول غيره.

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة مولاه على ثلاثة آلاف، وقال: «إن قتل فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن قتل فعبد الله بن رواحة»[(١)]. قالوا: وعقد لهم لواء أبيض دفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم. وخرج مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم، فبكى ابن رواحه، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا ولا ضنانة بكم، ولكني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١] فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود. فلما ساروا نادى المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم صالحين غانمين. فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا[(٢)]

فلما نزلوا مَعان[(٣)] من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل معان من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبَلي مائة ألف.

---

(١) البخاري [٤٢٦١].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤-٢٥).

(٣) مدينة بالأردن، تقع جنوب عَمَّان على ٢١٢ كيلًا، وهي قاعدة إقليم الشَّراة، وهو إقليم واسع بين الحجاز والبلقاء. معجم المعالم الجغرافية (ص ٣٠٠).

فلما بلغ المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له. فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال: والله يا قوم إن الذي تكرهونه للذي خرجتم له تطلبون - الشهادة -. وما تقاتلون الناس بعدد ولا قوة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطقلوا فإنما هي إحدي الحسنيين: إما ظفر وإما شهادة.

فانطلق الناس ومضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم الجموع بقرية يقال لها: مشارف، فدنا العدو وانحاز المسلمون إلى مؤتة[(١)]، فالتقى الناس، فتعبأ المسلمون ثم اقتتلوا والراية في يد زيد بن حارثة، فلم يزل يقاتل بها حتى شاط[(٢)] في رماح القوم وخر صريعًا.

وأخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها ثم قاتل، وكان أول من عقر فرسه في الإسلام عند القتال، فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره، فاحتضن الراية حتى قتل وله ثلاث وثلاثون سنة.

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... ما لي أراك تكرهين الجنه

قد طالما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نطفة في شنه

---

(١) بلدة بالأردن، تقع جنوب الكرك (والكرك تبعد قرابة ١١٥ كيلًا جنوب عمان مع ميل إلى الغرب) غير بعيدة منها، إذا سرت من معان إلى عمان كانت مؤتة على يسارك إذا كنت في منتصف المسافة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٣٠٤).

(٢) أي: سال دمه حتى نهك. ينظر: تهذيب اللغة (١١/ ٢٦٨).

ويقول:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم قاتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. قال: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى[(١)] بهم، ثم انحازوا ثم انصرف الناس.

وذكر ابن سعد[(٢)] أن الهزيمة كانت على المسلمين، والذي في صحيح البخاري[(٣)] أن الهزيمة كانت على الروم، والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل طائفة انحازت وانحيز عنها[(٤)]. انتهى.

وروي عن أبي هريرة قال: فلما قتل ابن رواحة انهزم المسلمون، فجعل خالد يدعو أخراهم ويمنعهم عن الفرار وهم لا يسمعون، حتى نادى قطبة بن عامر: أيها الناس، لأن يقتل الرجل في حرب الكفار خير من أن يقتل في حال الفرار. فلما سمعوا كلام قطبة تراجعوا.

---

(١) **المخاشاة**: المحاجزة، وهي مفاعلة من الخشية، لأنه خشي على المسلمين لقلة عددهم. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٢١٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨).

(٣) البخاري [٤٢٦٢].

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٨٣).

وفي البخاري: عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[١].

وفيه عن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أحذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم[٢].

وفيه[٣] عن ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة فألفينا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة وضربة.

وفي رواية[٤]: فعددت به خمسين طعنة وضربة ليس منها شي في دبره.

وللطبراني[٥] بسند حسن عن عبد الله بن جعفر قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هنيئًا لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء.

عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة. أخرجه الترمذي والحاكم[٦].

وفي / [١٤٧] رواية عن ابن عباس أن جعفرًا يطير مع الملائكة جبريل وميكائيل له جناحان عوضه الله عن يديه. وإسناده جيد[٧].

---

(١) البخاري [٤٢٦٦، ٤٢٦٦]. والصفيحة: السيف العريض. لسان العرب (٢/ ٥١٣).
(٢) البخاري [٤٢٦٢].
(٣) البخاري [٤٢٦١].
(٤) البخاري [٤٢٦٠].
(٥) انظر: الفتح، (٧/ ٩٦).
(٦) سنن الترمذي [٢٧٦٣].
(٧) المستدرك [٤٩٩٠] (٤/ ٩٩).

وفي البخاري[(١)] عن ابن عمر: كان إذا حيَّى ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين.

وفيه عن عائشة: لما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل ابن حارثة وابن رواحة وجعفر جلس يعرف فيه الحزن، وأنا أنظر من صائر الباب، تعني شق الباب، فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر. فذكر بكاءهن. قالت: فأمره أن ينهاهن. قالت: فذهب الرجل ثم أتاه فقال: قد نهيتهن. وذكر أنهن لم يطعنه، قال: فأمره أيضًا فذهب ثم أتاه الثالثة فقال: والله لقد غلبننا.

قال: فزعمت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فاحث في أفواههن التراب. قالت عائشة: فقلت: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل، وما تركت رسول الله من العناد[(٢)].

وفي رواية لابن إسحاق: قالت: وربما ضر التكلف أهله.

قال موسى بن عقبة: قدم يعلى بن أمية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتك. قال: فأخبرني يا رسول الله. فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما تركت من حديثهم حرفًا واحدًا لم تذكره. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله رفع الأرض حتى رأيت معتركهم»[(٣)].

واستشهد يومئذ من المسلمين: الأمراء الثلاثة، ومسعود بن أوس، ووهب بن سعد بن أبي سرح، وعبادة بن قيس، وحارثة بن النعمان، وسراقة بن عمرو بن عطية،

---

(١) حديث [٣٧٠٩].

(٢) البخاري [١٢٩٩، ٤٢٦٣]، ومسلم [٩٣٥].

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٨٤-٣٨٥).

وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد، وعمرو وعاصم ابنا سعد بن الحارث وغيرهم. رضى الله عنهم أجمعين[١]. انتهى.

فلما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقبل مشيع القوم على دابة فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر، فأخذه فحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله. رواه ابن إسحاق[٢] في السيرة.

غزوة ذات السلاسل

وسميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل: لأن بها ماء يقال له: السلسل، وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام[٣]، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، جزم به في الهدي[٤]، وقيل: كانت سنة سبع جزم به ابن أبي خالد في كتاب صحيح التاريخ[٥].

قال ابن سعد[٦]: بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جمعًا من قضاعة تجمعوا للإغارة على المدينة وأن يدنوا منها، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ٤٤-٤٥).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٦-٣٧).
(٣) جاء في سيرة ابن إسحاق أنها من أرض بني عُذْرة، وأنها بأرض جذام. والقبيلتان متجاورتان، فديار عذرة كانت من وادي القرى (وادي العلا اليوم) إلى تبوك إلى تيماء، وتقرب من خيبر شمالًا. وديار جذام كانت بين تبوك والبحر. والأكثر احتمالًا أنها من أرض عذرة. معجم المعالم الجغرافية (ص١٥٩).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٨٦).
(٥) انظر: فتح الباري (٧/ ٦٧٤) شرح حديث [٤٣٥٨].
(٦) الطبقات الكبرى (٢/ ١٣١).

فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلي وعذرة وبلقين.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا.

فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مددًا لي وأنا الأمير. فأطاع له بذلك أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وطئ بلاد قضاعة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا، وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريدًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بقفولهم وسلامتهم.

قال الإمام أحمد[(١)]: حدثنا ابن أبي عدي عن داود عن عامر قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش ذات السلاسل، واستعمل أبا عبيدة على المهاجرين واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب وقال لهما: تطاوعا. قال: وكانوا أمروا أن يغيروا على بكر، فانطلق عمرو وأغار على قضاعة لأن بكرًا أخواله، قال: فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعملك علينا، وإن ابن فلان قد اتبع أمر [القوم، وليس لك معه أمر][(٢)]. قال أبو عبيدة: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا أن نتطاوع، فأنا أطيع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن عصاه عمرو.

وفي هذه الغزوة احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص، وكانت ليلة باردة فخاف على نفسه من الماء، فتيمَّم وصلى بأصحابه الصبح، فذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) المسند (١/ ١٩٦).

(٢) في المخطوط غير واضح، والمثبت من مسند أحمد.

فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبره بالذي منعه عن الاغتسال وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] فضحك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقل شيئًا[١].

سرية أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم[٢]

فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ثمان، وذلك أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما همَّ أن يغزو أهل مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم، ليظن / [١٤٨] ظان أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار. فلقوا عامر بن الأضبط فسلم عليهم بتحية الإسلام فقتله محلم بن جثامة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] إلى آخر الآية، رواه أحمد[٣].

وفي الهدي[٤]: وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وزاد ابن جرير[٥]: فجاء محلم بن جثامة في بردين فجلس بين يدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستغفر له، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا غفر الله لك» فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه،

---

(١) أبو داود [٣٣٤].

(٢) وادي المدينة إذا اجتمعت أوديتها الثلاثة - بطحان وقناة والعقيق -، بين أحد والشرثاء يسمى الوادي «الخليل» إلى أن يتجاوز كتانة - وهي غير كتانة غَيقة - فيسمى الوادي «وادي الحمض» إلى أن يصب في البحر بين الوجه وأم لج. هذه أسماؤه اليوم، أما اسمه قديمًا فكان يسمى إضَمًا منذ اجتماع تلك الروافد إلى أن يصب في البحر. معجم المعالم الجغرافية (ص٢٩).

(٣) المسند (٦/ ١١).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٦٦).

(٥) تفسير الطبري (٩/ ٧٢).

فما مضت له ساعة حتى مات فلفظته الأرض، فذكروا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر منه، ولكن يريد الله أن يعظكم»[١].

ونسب ابن إسحاق هذه السرية لأبي حدرد.

وبعث [أبا] حدرد ومعه رجلان إلى الغابة[٢] لما بلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رفاعة بن قيس - أو قيس بن رفاعة - الجشمي أقبل في عدد كثير حتى نزلوا الغابة يريد أن يجمع قيسًا على محاربة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذا شرف، فخرجوا حتى إذا كانوا قريبًا منهم فكمنوا في ناحية العسكر وخرج رفاعة وقد غشيهم الليل يطلب راعيًا لهم قد أبطأ عليهم، حتى مرَّ بأبي حدرد فنفحه بسهم فوضعه في فؤاده فاحتز رأسه، ثم شدوا في ناحية العسكر وكبروا، فهرب القوم بكل ما قدروا عليه وما خف من أموالهم ونسائهم وأبنائهم، واستاق أبو حدرد وصاحباه إبلًا عظيمة وغنمًا كثيرة فجاؤوا بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء أبو حدرد برأسه يحمله، فأعطاه من الإبل ثلاثة عشر. هذا معنى ما ذكره ابن إسحاق[٣].

غـزوة الفتـح

قال في زاد المعاد[٤]: وهو الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ودخل الناس في دين الله أفواجًا

(١) أخرجه أبو داود [٤٥٠٣].

(٢) أرض من مقصر جبل أحد إذا أكنع في قناة إلى الشمال، تشمل مدفع وادي النقمى في الخُليل، ويمكن اعتبار الخُليل كله من الغابة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٢٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٦٧-٣٦٩).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٩٤).

وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا. خرج له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية، كما تقدم ذلك في رمضان سنة ثمان. وفي البخاري[(١)]: على رأس ثمان ونصف من مقدمه المدينة.

وكان سبب ذلك على ما ذكره إمام أهل المغازي والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار أن بني بكر بن عبد مناة كان بينهم وبين خزاعة حروب قبل الإسلام وقتل، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به، فلما كانت الهدنة دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا الثأر من خزاعة، فخرج نوفل بن معاوية في نفر من بني بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل مكة يقال له: الوتير[(٢)]، فأصابوا منها رجالًا وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيًا، حتى [حازوا][(٣)] خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ فقاتلوهم حتى لَجَأُوا إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم.

---

(١) البخاري [٤٢٧٦].

(٢) موضع معروف جنوب غربي مكة على حدود الحرم، يبعد عن مكة ١٦ كيلًا، وهو من ديار خزاعة قديمًا وحاليًا، وقد أطلق اليوم على حيز منه اسم الكعكية، ويطلق على حيز آخر اسم العُكَيشيَّة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٣٣١).

(٣) في المخطوط: «جاروا»، والمثبت من زاد المعاد (٣/ ٣٩٤).

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبًا، حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرونه بما قد وقع، ويستنصرونه، فقام وهو يجر رداءه ويقول: [لا نصرت][(١)] إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي.

وفي معجم الطبراني الصغير[(٢)] عن ميمونة أنها سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في متوضئه ليلًا: لبيك لبيك - ثلاثًا -، نصرت نصرت - ثلاثًا -. فلما خرج قلت: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثًا، نصرت نصرت ثلاثًا، كأنك تكلم إنسانًا، فهل كان معك أحد؟ فقال: هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بني بكر.

ثم خرج عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمر عائشة أن تجهزه ولا تعلم أحدًا، قالت: فدخل عليها أبو بكر، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري. فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر؟ فأين يريد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالت: والله لا علم لي. قالت: فأقمنا ثلاثًا، حتى صلى الصبح بالناس، فسمعت الراجز ينشده:

يا رب إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

/[١٤٩] وزعموا أن لست أدعو أحدا ... فانصر هداك الله نصرًا أيدا

وادع عباد الله يأتوا مددا ... فيهم رسول الله قد تجردا

إن سيم خسفًا وجهه تربدا[(٣)]

---

(١) بياض في المخطوط، والمثبت من الزاد.

(٢) المعجم الصغير (٢/ ٧٣).

(٣) أي: تغير. لسان العرب (٣/ ١٧٠).

زاد ابن إسحاق:

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... هم بيتونا بالوتير هُجدا[(١)]

وقتلونا ركعًا وسجدًا ... وهم أذل وأقل عددا

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نصرت يا عمرو بن سالم[(٢)]. وفي رواية: نصرت نصرت ثلاثًا. ثم عرض لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل لنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم.

ثم ندمت قريش على ما صنعت، وعلموا أن ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للناس: كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوته عنه، قال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنت رجل نجس مشرك. فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلمه فلم يرد عليه شيئًا. ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فقال: أنا أشفع لكم، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم أتى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعندها الحسين بن علي غلام يدب بين يديها فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة

(١) أي: نائمين. لسان العرب (٣/ ٤٣١).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢-٥٣).

فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول لله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: ما بلغ ابني ذلك، وما يجير أحد على رسول الله. فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني. قال: والله ما أرى شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. فقال: أوترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله، ولكن ما أجد لك غيره. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس.

ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك، قال: أتيت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد منه خيرًا. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو - وفي لفظ: أعدى العدو -، ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني شيئًا أم لا. قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك[(١)].

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. فتجهز الناس، فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم. وفي رواية كتب فيه: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٥٣-٥٤).

كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له وعده. فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر من السماء.

وفي البخاري[(١)] عن علي قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[(٢)]، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها. وفي رواية: فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة فخذوه منها. قال: وكلنا فارس. قال: فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلنا: الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابًا، فقلنا: ما كذب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لتُخرِجِنَّ الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته.

فانطلقنا به إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاطب: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنًا بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: صدق، ولا تقولوا له إلا خيرًا. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه. فقال: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من / [١٥٠] شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وفي رواية: فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم. فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

---

(١) البخاري [٣٩٨٣، ٤٢٧٤]، ومسلم [٤٢٧٤].

(٢) موضع بين الحرمين، وهو بقرب حمراء الأسد من المدينة. المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزآبادي (٢/ ٧٧١). وحمراء الأسد جبل أحمر جنوب المدينة على ٢٠ كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٠٥).

وفي رواية: فأنزل الله تعالى السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١] إلى قوله: ﴿ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ انتهى.

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لاقاه بالطريق.

وخرج في عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل: أبا رهم الغفاري.

وفي البخاري[(١)] عن ابن عباس: صام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا بلغ الكَدِيد[(٢)] - الماء الذي بين قديد وعسفان - أفطر وأفطر الناس معه. قال الزهري: وإنما يؤخذ من أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآخر فالآخر، وفي رواية لمسلم[(٣)] عن ابن شهاب: ويرونه الناسخ المحكم. وفي رواية عن ابن عباس: فلم يزل مفطرًا حتى انسلخ الشهر. وفي رواية عن ابن عباس: صام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر. انتهى.

قال ابن إسحاق[(٤)]: وقد كان العباس عم رسول الله خرج بأهله وعياله مهاجرًا مسلمًا، فلقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجحفة، وكان ممن لقيه بالطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه، وعبد الله بن أبي أمية ابن عمته أخو أم سلمة أم المؤمنين، لقياه بالأبواء، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن

---

(١) البخاري [١٩٤٤]، ومسلم [١١٣].

(٢) يعرف اليوم باسم «الحَمْض»، أرض بين عسفان وخُليص على ٩٠ كيلًا من مكة على الجادة العظمى إلى المدينة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٦٣).

(٣) مسلم [١١١٣].

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٦٠-٦١).

عمتك وصهرك. قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال. فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان ومعه بني له: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بنيي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا. فلما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك رقَّ لهما وأذن لهما.

وحكى أبو عمر أن عليًّا قال لأبي سفيان: ائت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١]، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدَى وأهتدي

هدانيَ هادٍ غير نفسي ودلني ... على الله مَن طرَّدتُ كلَّ مطرَّدِ

قال ابن إسحاق[1]: فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب صدره وقال: أنت طردتني كل مطرد.

قال أبو عمر: وأسلم فحسن إسلامه بعد ذلك، ويقال: ما رفع رأسه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أسلم حياءً منه، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفًا من حمزة. ولما حضرته الوفاة قال لأهله: لا تبكوا علي، فوالله ما تنطفت بخطيئة منذ أسلمت.

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٦٢).

ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزل مر الظهران[١] عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشًا مسيره وهم مهتمون لما يخافون من غزوه إياهم.

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال: فركبت بغلة رسول الله فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت: لَعلِّي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذي حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال: يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفت صوته فقلت: أبا حنظلة. فعرف صوتي فقال: أبا الفضل؟ فقلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ قال: فقلت: هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله. قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك. فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله. حتى مررت بنار

(١) واد فحل من أودية الحجاز يأخذ مياه النخلتين، فيمر شمال مكة على ٢٢ كيلًا، ويصب في البحر جنوب جدة بقرابة عشرين كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٨٨).

عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك / [١٥١] بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم ركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، واقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلًا يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا. قال: مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به. فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبحت غدوت به على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئًا بعد. قال: يا ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يضرب عنقك. فأسلم وتشهد شهادة الحق.

فقال له العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس أن يحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم، [فيقول: ما لي ولسليم][(١)]. ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان. حتى مر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا. قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النجاء[(٢)] إلى قومك.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرَّ بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، اليوم أذل الله قريشًا[(٣)]. وفي رواية البخاري[(٤)] في الصحيح: فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار، تمنى أن تكون له يد فيحجي قومه. وفي رواية البخاري: وراية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: قال كذا وكذا. قال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة. قال: فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تركز رايته بالحجون،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٦٥).
(٢) أي: السرعة.
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٦٩)، وأصله في البخاري.
(٤) حديث [٤٢٨٠].

وفي رواية ابن إسحاق[١]: فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله قريشًا. ثم أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سعد فنزع منه اللواء فدفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذا صار إلى ابنه، وروي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخذ الراية دفعها إلى الزبير.

ومضى أبو سفيان حتى جاء قريشًا، فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن. قال: فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل مكة من أعلاها، وضربت هناك قبته.

وفي رواية البخاري[٢] عن عروة: وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَداء[٣]، ودخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كُدًا[٤]، فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان حبشي بن الأشقر وكرز بن جابر الفهري. قال الحافظ ابن حجر[٥]: وهذا يخالف الأحاديث الصحيحة الآتية للبخاري وغيره عن ابن عمر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد، قال: وقد

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٦٩)، وليس القائل في روايته عثمان وعبد الرحمن، بل عمر، وفيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر عليًّا أن يأخذ منه الراية فقط، وليس فيه ذكر لدفعها لقيس ابنه. انظر تفصيل كل ذلك في الفتح (٧/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٢) البخاري [٤٢٨٠].

(٣) يعرف اليوم بريع الحجون، يدخل طريقه بين مقبرتي المعلاة. معجم المعالم الجغرافية (ص٢٦٢).

(٤) يعرف اليوم بريع الرسام، بين حارة الباب وجرول. معجم المعالم الجغرافية (ص٢٦٢).

(٥) الفتح (٧/ ٦٠٣).

ساق موسى بن عقبة / [١٥٢] سياقًا واضحًا قال: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدا من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند البيوت، وبعث ابن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم[١]. واندفع خالد بن الوليد حتى دحل من أسفل مكة وقد جمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش فقاتلوا خالد بن الوليد فقاتلهم فانهزموا، وقتل من بني بكر نحوًا من عشرين رجلًا ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحَزْوَرة[٢] إلى باب المسجد، حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن. قال: ونظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البارقة، فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ فقالوا: نظن أن خالدًا قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتلهم.

ولمسلم[٣] عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وعلى الأخرى الزبير، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر - بضم المهملة وتشديد السين، أي الذين لا سلاح معهم - فقال لي: يا أبا هريرة، اهتف لي بالأنصار. فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا به فقال لهم: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ - ثم

---

(١) الفتح (٧/ ٦٠٤).

(٢) يعرف اليوم بالقُشَاشيَّة، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس، كان ولا يزال سوقًا من أسواق مكة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٩٨).

(٣) مسلم [١٧٨٠].

قال بإحدى يديه على الأخرى - احصدوهم حصدًا حتى توافوني بالصفا، فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحدًا منهم إلا قتلناه. قال: فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم، ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فإذا جاء ليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ينقضي الوحي. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم. فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا نضن بالله ورسوله. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم...»، الحديث.

قالوا: ولما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا بشقة برد أحمر وعليه المغفر[(١)]، وهو يقرأ سورة الفتح ويرجع[(٢)]، وإنه ليضع رأسه تواضعًا لله وشكرًا له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وخضوعًا لعظمته أن أحلَّ له بلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل - والعثنون بالعين والمثلثة والنونين بينهما واو: اللحية، أو ما فضل منها بعد العارضين، كذا في القاموس[(٣)] -.

(١) البخاري [٤٢٨٦].
(٢) البخاري [٤٢٨١]، ومسلم [٧٩٤].
(٣) (ص ١٥٦٧).

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه عهد في نفر سماهم أمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة[١]: الحويرث بن نقيذ، [وعبد الله][٢] بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومولاة لبعض بني عبد المطلب اسمها سارة.

فأما ابن خطل فقتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة، وقيل: قتله الزبير[٣].

وأما الحويرث ومقيس وإحدى القينتين فقتلوا، وكان مقيس قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين، ثم قتل.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله حين هاجرت حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها، ففرَّ ثم أسلم وحسن إسلامه.

واستؤمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا.

وأما ابن أبي سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمنه بعد أن أمسك رجاء أن يقوم له بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم هاجر ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب، فقدم وأسلم وحسن إسلامه[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٧٤).

(٢) في المخطوط: «هلال»، والصحيح ما أثبته كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٧٤)، وسنن أبي داود (٢٦٨٥)، وانظر: الفتح (٧/ ٦١٠).

(٣) في المخطوط: «ابن الزبير»، وهو خطأ.

(٤) انظر في ذلك: سنن أبي داود [٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥]، والنسائي [٤٠٧٣، ٤٣٥٩].

ثم نهض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها في عيونها بالقوس ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، / [١٥٣] جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[١]، والأصنام تتساقط على وجوهها، وكانت مثبتة بالحديد والرصاص[٢]. وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذ فاقتصر على الطواف. قلت: كذا ذكر في الهدي[٣]. وفي صحيح مسلم[٤] من حديث أبي هريرة: فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه، فجعل يحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو. انتهى.

ثم دعا بعثمان بن طلحة الحجبي فأخذ منه مفتاح الكعبة[٥] فأمر بها ففتحت ودخلها فرأى فيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط[٦]. ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده، فأمر بالصور فمحيت، ثم أغلق عليه الباب وعلى أسامة وبلال وعثمان بن طلحة فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك[٧].

---

(١) البخاري [٢٤٧٨]، ومسلم [١٨٠٢].
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٨٤).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٠٦).
(٤) مسلم [١٧٨٠] (٣/ ١٤٠٦).
(٥) البخاري [٤٢٨٩]، وانظر: الفتح (٧/ ٦١٢).
(٦) البخاري [٤٢٨٨].
(٧) سيرة ابن هشام (٤/ ٧٨-٨٠).

وفي الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام فقال رسول الله: «قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط». فدخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل[(١)].

ولمسلم[(٢)] عن ابن عباس: أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين. انتهى.

وفي حديث ابن عمر عند مسلم[(٣)]: قال بلال: جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى. انتهى.

ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ووحد الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينظرون ماذا يفعل، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها[(٤)]. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب». ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم

(١) أخرجه أبو داود [٢٠٢٧] بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري [١٦٠١] نحوه.
(٢) حديث [١٣٣٠]، وهو في البخاري أيضًا [٣٩٨].
(٣) مسلم [١٣٢٩].
(٤) أخرجه أبو داود [٤٥٤٧]، وابن ماجة [٢٦٢٧].

مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣]. ثم قال: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(١)].

ثم جلس في المسجد. فقام إليه علي ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. وفي رواية أن الذي قال ذلك العباس بن عبد المطلب. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»[(٢)]. وفي رواية: وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يدفعه إلى العباس فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] الآية[(٣)].

وذكر ابن سعد في الطبقات[(٤)] عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلقته ونلت منه، فحلم عني ثم قال: يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت. فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت. فقال: بل عمرت وعزت يومئذ. ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعًا ظننتُ أن الأمر يومئذ سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح، فأتيته به فأخذه

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٧٧-٧٨).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٧٨).
(٣) انظر: الفتح (٧/ ٦١٢) حديث [٤٢٨٩].
(٤) لم نجده في الطبقات (٢/ ١٣٧) بهذا اللفظ، وهو في تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨/ ٣٨٣).

مني ثم دفعه إلي وقال: خذوها[١] تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. قال: فلما وليت ناداني فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ قال: فذكرت قوله لي قبل الهجرة فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله. انتهى[٢].

وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته. فقال أبو سفيان: والله لا أقول شيئًا، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء. فخرج عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لهم: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول: أخبرك[٣].

وفي البخاري[٤] عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله / [١٥٤] أين ننزل غدًا؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ وفي رواية[٥]: وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي شيئا لأنهما كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين، وكان عمر بن الخطاب يقول: لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر[٦].

---

(١) في المخطوط: «خذوه»، والمثبت من الطبقات (٢/ ١٣٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٦٠).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٨٠).

(٤) البخاري [٤٢٨٢].

(٥) البخاري [١٥٨٨]، ومسلم [١٣٥١].

(٦) أخرجه البخاري [٤٢٨٣] مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي رواية أخرى قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر[١]، يعني به المحصب، وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم.

فصل

ثم دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها، وكانت ضحى، كما في الصحيحين من حديث أم هانئ[٢].

وفي رواية: قالت: لم أره صلى صلاة قط أخف منها غير أنه أتم الركوع والسجود فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح. وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنًا أو بلدًا صلوا هذه الصلاة اقتداءً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذه القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرًا لله عليه، فإنها قالت: ما رأيته صلاهما قبلها ولا بعدها. وأجارت أم هانئ حموين لها فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[٣]، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما فأغلقت باب بيتها وذهبت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لها ذلك.

فلما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه كما في البخاري[٤] عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولًا قام به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) البخاري [١٥٨٩]، ومسلم [١٣١٤].
(٢) البخاري [٣٥٧، ١١٠٣]، ومسلم [٢٣٦].
(٣) البخاري [٣٥٧].
(٤) البخاري [٤٢٩٥].

الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله حرمها ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب..» الحديث.

ولمسلم[(١)] من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الفتح فتح مكة: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وقال يوم الفتح فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الإذخر[(٢)].

وفي رواية له عن أبي هريرة أن خزاعة قتلت رجلًا من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فركب راحلته فخطب فقال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسول الله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدي، ألا وإنها أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يخبط شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يعطى - يعني الدية - وإما أن يقاد أهل القتيل.

---

(١) مسلم [١٣٥٥]، وهو في البخاري أيضًا [٣٠٧٧].

(٢) البخاري [٤٣١٣].

قال: فجاء رجل من أهل اليمن يقال له: أبو شاه فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكتبوا لأبي شاه... الحديث[(١)].

وفي الهدي[(٢)]: وهمَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفضالة. قال: نعم. قال: ماذا تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله. فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحبَّ إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت شعرًا فأجبتها شعرًا:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى الإله عليك والإسلامُ

لو قد رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسَّرُ الأصنامُ

لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلامُ

وفر يومئذ صفوان بن أمية، / [١٥٥] فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمنه وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده وقال: يا صفوان فداك أبي وأمي، أذكر الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جئتك به. فقال: اغرب عني فلا تكلمني. فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك. قال: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك

---

(١) البخاري [١١٢، ٦٨٨٠، ٢٤٣٤].

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤١٢).

وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله فقال: هذا يزعم أنك أمنتني؟ فقال: صدق. قال: فاجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعة أشهر[(١)].

فصل

ثم اجتمع الناس للبيعة، فجلس لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفي المدارك: روي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفًا من رسول الله أن يعرفها لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئًا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح فإن أنا أصبت من ماله هنات. فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله وعرفها فقال لها: وإنك لهند؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: ولا يزنين. فقالت: أوتزني الحرة. فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلوهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى. فتبسم رسول الله فقال: ولا يأتين ببهتان. فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: ولا يعصينك في معروف. فقالت: والله

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٨٦).

ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك[١]. ولما رجعت جعلت تكسر صنمها، وتقول: لكنا منك في غرور.

وفي الصحيح[٢] عن مجاشع قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأخي بعد الفتح فقلت: يا رسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة. قال: ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد.

قال في الهدي[٣]: وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن أسد الخزاعي فحدد أنصاب الحرم. وبث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرها كلها، منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

سرية خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني جذيمة من كنانة

قال ابن سعد[٤]: ولما رجع خالد من هدم العزى ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقيم بمكة بعثه إلى بني جذيمة داعيًا لهم إلى الإسلام، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فلما انتهى خالد إليهم قال: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون صبأنا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحتنا.

وفي صحيح البخاري[٥]: بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا فجعلوا يقولون: (صبأنا صبأنا)، فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرًا، فأمر يومًا أن يقتل كل رجل

(١) انظر: السيرة الشامية (٥/ ٣٧٢)، وتاريخ الطبري (٣/ ٦١-٦٢).
(٢) البخاري [٤٣٠٥، ٤٣٠٦، ٤٣٠٧، ٤٣٠٨]، ومسلم [١٨٦٣].
(٣) زاد المعاد (٣/ ٤١٣).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٤٧-١٤٨).
(٥) البخاري [٤٣٣٩].

أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكروا ذلك له فرفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه وقال: اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد - مرتين -.

وفي الهدي[١]: فلما كان في السحر نادى خالد: من كان معه أسير فليضرب عنقه. فأما بنو سليم فقتلوا من كان بأيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد. وبعث عليًا فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام وشر، فبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: مهلًا يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحد ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته[٢].

قال ابن إسحاق[٣]: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف: من سليم سبع مائة، وقيل: ألف، ومن غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.

وكان مما قيل من الشعر في يوم الفتح قول حسان بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

/ [١٥٦] عفت ذات الأصابع فالجواء	**إلى عذراء[٤] منزلها خلاء**
ديار من بني الحسحاس قفر	**تُعفِّيها الروامس[٥] والسماء**
وكانت لا يزال بها أنيس	**خلال مروجها نعم وشاء**
فدع هذا ولكن [من لطَيف][٦]	**يؤرقني إذا ذهب العشاء**

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١٥).
(٢) مسلم [٢٥٤١].
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٩١).
(٤) عذراء: على بريد من دمشق إلى الشمال الغربي منها. وانظر: معجم المعالم الجغرافية (ص١٩٩).
(٥) كل دابة تخرج بالليل فهي رامس ترمس تدفن الآثار. لسان العرب (٦/ ١٠١).
(٦) في المخطوط: «مر طيف»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٩١).

لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيئة[١] من بيت رأس ... يكون مزاجَها عسل وماء

إذا ما الأشربات ذكرن يومًا ... فهن لطَيِّب الراح الفداء

نُوَليها الملامة إن أَلَمْنا ... إذا ما كان مَغْث أو لِحاء[٢]

ونشربها فتتركنا ملوكًا ... وأُسْدًا ما يُنَهْنِهنا اللقاء

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء

ينازعن الأعنة مصعدات[٣] ... على أكتافها الأسل الظماء[٤]

تظل جيادنا متطمرات[٥] ... تلطمهن بالخُمُر النساء

نساء بني أمية صاغرات ... عَدَتْهن المذلة والرَّداء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله: قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق ليس به الخفاء[٦]

وقال الله: قد سيرت جندًا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد ... سباء أو قتال أو هجاء

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

---

(١) عند ابن هشام: «كأنَّ خبيئة»، ومعناهما واحد: الخمر.

(٢) أي: إذا ما كان شَرٌّ أو ملاحاة، وهي المنازعة. لسان العرب (٢/ ١٩١).

(٣) عند ابن هشام: «مصغيات».

(٤) كل شجر له شوك طويل فهو أسل، وكنى به هنا عن الرماح. انظر: لسان العرب (١١/ ١٥).

(٥) أي: يسبق بعضها بعضًا. النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٤٠).

(٦) عند ابن هشام (٤/ ٩٢): «إن نفع البلاء»، وهو كذلك في ديوان حسان (ص ٨).

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة[١] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركًا برًا حنيفًا ... رسول الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

قال ابن هشام[٢]: قالها حسان قبل يوم الفتح، وبلغني[٣] عن الزهري أنه قال: لما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء يلطمن الخيل بالخمر تبسم إلى أبي بكر. وقال في الهدي[٤]: كان قد قالها في عمرة الحديبية، وذكرها بهذا اللفظ فيه، وذكر أكثرها مسلم في صحيحه[٥].

فصل

في الإشارة إلى بعض ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضًا وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام، ولهذا سماه الله فتحًا.

وفيها أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام صاروا حربًا له بذلك، فله أن يبيتهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة.

(١) رسالة محمولة من بلد إلى بلد. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٧٨).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٩٣).
(٣) في المخطوط: «وبلغه»، وهو خطأ.
(٤) زاد المعاد (٣/ ٤١٦).
(٥) مسلم [٢٤٩٠].

وفيها انتقاض عهد جميعهم بذلك، ردئهم ومباشرهم، إذا رضوا بذلك وأقروا عليه ولم ينكروه، فإن الذين أعانوا بني بكر بعضهم.

وفيها أن رسول الكفار لا يقتل، فإن أبا سفيان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلمًا، لأن عمر سأله قتل حاطب ولم يقل رسول الله: لا يحل قتله، بل قال: وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر.. الخ.

وفيها استحباب إظهار كثرة المسلمين وشوكتهم لرسل العدو كما أمر بإيقاد النيران، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان حتى عرضت عليه عساكر الإسلام.

وفيها البيان الصريح بأن مكة فتحت عنوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم، ولا يعرف في ذلك خلافٌ إلا عن الشافعي وأحمد في أحد قوليه، وسياق القصة / [١٥٧] أوضح شاهد لمن تأمله. انتهى ملخصًا من الهدي[(١)].

وفي هذه الغزوة سرقت امرأة من بني مخزوم، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع يدها كما في الصحيح[(٢)] عن عروة أن امرأة سرقت في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد بن حارثة يستشفعونه. فقال عروة: فلما كلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها تلون وجه رسول الله فقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟ فقال: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١٩-٤٤١).

(٢) البخاري [٤٣٠٤].

بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رواه مسلم[١].

وفيه: «فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فأتى بها رسول الله... »الحديث[٢].

وفي رواية عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده[٣].

ومما وقع في غزوة الفتح إباحته متعة النساء ثم حرمها قبل خروجه من مكة كما ثبت في صحيح مسلم[٤] عن سبرة الجهني أنه غزا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح مكة قال: فأقمنا بها خمس عشرة ليلة، ثلاثين بين ليلة ويوم. قال: فأذن لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في متعة النساء... الحديث.

وفي رواية: فقال: يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا.

وقال طائفة من العلماء: إنها حرمت يوم خيبر ثم أبيحت ثم حرمت، منهم الشافعي وقال: لا أعلم شيئًا أبيح ثم حرم ثم أبيح ثم حرم إلا المتعة، واحتجوا بما ثبت في الصحيحين[٥] عن علي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية.

---

(١) مسلم [١٦٨٨].
(٢) البخاري [٣٤٧٥].
(٣) أبو داود [٤٣٧٤].
(٤) مسلم [١٤٠٦].
(٥) البخاري [٦١١، ٤٢١٦]، ومسلم [١٠٤٧].

قلت: وأجيب عن ذلك بأن هذا الحديث صحت روايته بلفظين هذا أحدهما، والثاني الاقتصار على نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر[(١)]، هذه رواية ابن عينية عن الزهري، قال قاسم بن أصبغ: قال سفيان بن عيينة: يعني أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر لا عن المتعة، ذكره أبو عمر في التمهيد[(٢)]، ثم قال: على هذا أكثر الناس. انتهى.

قال في الهدي[(٣)]: فتوهم بعض الرواة أن يوم خيبر ظرف لتحريمهن، فرواه: حرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتعة زمن خيبر، فجاء بالغلط البين. فإن قيل: فأي فائدة في الجمع بين التحريمين إذا لم يكونا قد وقعا في وقت واحد، وأين المتعة من تحريم الحمر؟ قيل: هذا الحديث رواه علي رضى الله عنه محتجًا به على ابن عمه عبد الله بن عباس في المسألتين، فإنه كان يبيح المتعة ولحوم الحمر، فناظره في المسألتين فقيَّد تحريم الخمر زمن خيبر وأطلق تحريم المتعة، فقال: إنك امرؤ تائه، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرم المتعة، وحرم الحمر الأهلية يوم خيبر. والله أعلم.

وفي البخاري[(٤)] عن ابن عباس: أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة تسعة عشر يومًا يصلي ركعتين، قال ابن عباس: ونحن إذا سافرنا فأقمنا تسعة عشر يومًا قصرنا، وإن زدنا أتممنا.

---

(١) في المخطوط: «الاقتصار على نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية..»، بزيادة «عن نكاح المتعة»، وهو خطأ.

(٢) التمهيد (١٠/ ٥٥).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٦١).

(٤) البخاري [١٠٨٠].

وفيه[١]: عن عمرو بن سلمة كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومه بإسلامه، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي حقًا. فقال: صلوا كذا في حين كذا، فإذا أحضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا...» الحديث.

وفيه[٢] عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئًا. فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه الله إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

وفيه[٣] عن عائشة قالت: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن.

وفي رواية لمسلم[٤]: سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك. /[١٥٨] قالت: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: جعلت

(١) البخاري [٤٠٥١].
(٢) البخاري [٤٠٤٣]، [٤٦٨٦].
(٣) البخاري [٨١٧].
(٤) مسلم [٤٨٤].

[لي][(١)] علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ والفتح فتح مكة، إلى آخر السورة.

غـزوة حنيـن

قال في المواهب: وهو وادٍ قرب ذي المجاز، وقيل: بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف، وتسمى غزوة أوطاس[(٢)]. قال في الهدي[(٣)]: وهما موضعان بين مكة والطائف فسميت الغزوة باسم مكانهما.

قال أهل السير: وسببها أن الله لما فتح على رسوله مكة أطاعت له قبائل العرب كلها وأسلموا، إلا هوازن وثقيفًا فإنهم كانوا عتاة، فاجتمع أشرافهم فقالوا: إن محمدًا قاتل قومًا لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم، وإنه سيقصدنا فقبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه. فقصدوا محاربة المسلمين، واجتمعت هوازن وثقيف كلها، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النضري، وعلى ثقيف قائدهم ورئيسهم قارب بن الأسود، واتفق معهما نضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهد من قيس عيلان إلا هؤلاء.

واجتمعوا في أربعة آلاف مقاتل وخرجوا بأموالهم ونسائهم وأولادهم لئلا يفروا، وكان فيهم دريد بن الصمة في بني جشم وكان شيخًا كبيرًا قد عمي من الكبر

---

(١) غير موجود في المخطوط، والمثبت من صحيح مسلم.

(٢) انظر: المواهب (١/ ١٦١). وحنين واد من أودية مكة، يقع شرقها بقرابة ثلاثين كيلًا، يسمى اليوم وادي الشرائع. وأوطاس سهل يقع على طريق حاج العراق إذا أقبل من نجد، فهي (أوطاس) شمال شرقي مكة، وشمال بلدة عشيرة، وتبعد عن مكة قرابة ١٩٠ كيلًا على طريق متعرجة. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٠٧، ٣٤).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٦٥).

وكان له مائة وخمسون سنة، وكان صاحب رأي وتدبير وكان له معرفة بالحروب، فسار حتى انتهوا إلى أوطاس، فلما نزلوا بأوطاس اجتمع إليه الناس - وفيهم دريد بن الصمة - فلما نزل قال: في أي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس[(١)]. قال: ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قيل: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ فدعي له فقال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا اليوم له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. قال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟! إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الجد والحد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر، قال: ذانك الجذعان لا ينفعان ولا يضران، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن في نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفى ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد فيها رأي وذكر. قالوا: أطعناك. قال: فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

---

(١) ليس بمرتفع كثير الحجارة، ولا منخفض لين الأرض. انظر: غريب الحديث للخطابي (٢/ ١٤٥).

يـــا لـــيـــتـــني فـــيـــهـــا جـــذع أخـــب فـــيـــهـــا وأضـــــع[١]
أقـــود وطـــفـــاء الـــزمـــع[٢] كـــأنـــهـــا شـــاة صـــدع[٣]

وبعث مالك بن عوف عيونًا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بُلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى. فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

ولما سمع بهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاه وأخبره الخبر.

فلما أجمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا فأرسل إليه - وهو يومئذ مشرك - فقال: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا. فقال: أغصبًا يا محمد؟ فقال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله أن يكفيهم حملها ففعل[٤].

واستعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعاذ بن جبل إمامًا بها ومفقهًا لمن فيها. قال ابن عبد البر[٥]:

---

(١) الخبب مثل الرمَل، والوضع العَدْو.
(٢) طويلة شعر الزمع، وهو الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة، يريد فرسًا بهذا الوصف. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٢٥٧).
(٣) المراد بالشاة هنا الوعل، والصدع الوسط من الأوعال. لسان العرب (٨/ ١٩٤).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ١١٨).
(٥) الاستيعاب، الترجمة [١٧٧٥].

فأقام بها أميرًا على مكة حتى قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقره أبو بكر، فلم يزل عليها إلى أن مات. وكانت وفاته فيما ذكر الواقدي يوم مات أبو بكر وماتا في يوم واحد.

قال السهيلي[١]: قال أهل التعبير: رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام أسيد بن أبي العاص واليًا على مكة مسلمًا فمات على الكفر، وكانت الرؤيا لولده عتاب حين أسلم، فولاه رسول الله / [١٥٩] على مكة وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامدًا إلى حنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله عليهم، فكانوا اثني عشر ألفًا[٢].

وذكر أن رجلًا قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرج من مكة إلى حنين يوم السبت لست ليال خلون من شوال، وخرج معه ناس من المشركين منهم صفوان بن أمية. فلما كان عشية فجاء فارس فقال: يا رسول الله إني طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم[٣]، اجتمعوا على حنين . فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: تلك غنيمة للمسلمين غدًا إن شاء الله. ثم قال: من يحرسنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: اركب. فركب فرسًا له فقال: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ففعل.

---

(١) الروض الأنف (٤/ ١٧٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١١٨).

(٣) في المخطوط تكرر قوله: «على بكرة أبيهم» بعد «وشائهم» أيضًا.

فلما أصبح جاء وقال: طلعت الشعبين كليهما فلم أر أحدًا. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل نزلت الليلة؟ قال: لا إلا مصليًا أو قاضي حاجة. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلا عليك أن تعمل عملًا بعد هذا. رواه أبو داود(١).

وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بالجاهلية، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا. قال: فرأينا ونحن نسير معه إلى حنين شجرة سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]. إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم. رواه الترمذي، والإمام أحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن إسحاق(٢) في السيرة وهذا لفظه.

قال العلماء في الكلام على هذا الحديث: فأنكر عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجرد مشابهتهم للمشركين في ذلك، فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه، فإذا كان العكوف حول هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله، مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده، فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون؟

---

(١) أبو داود [٢٥٠١].

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٤٧٥) [٢٢٨١].

قال بعض أصحاب مالك وهو أبو بكر الطرطوشي[(١)]: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها. انتهى.

فلما انتهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال، وكان قد سبقهم مالك بن عوف فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي وفرقهم في الطرق والمداخل وحرضهم على قتال المسلمين وأمرهم أن يكمنوا لهم ويرشقوهم أول ما طلعوا ويحملوا عليهم حملة واحدة وقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة واحدة.

فلما كان وقت السحر عبأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه وعقد ألويته والرايات وفرقها على الناس، ثم ركب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء دلدل، ولبس درعين والمغفر والبيضة.

قال ابن إسحاق[(٢)]: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارًا، وذلك في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأخبائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيؤوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذات اليمين ثم قال: إليَّ أيها الناس هلم إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، فلا شيء، حملت

(١) الحوادث والبدع (ص١٨، ١٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٢١-١٢٢).

الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه الفضل وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبد الله وقتل يومئذ انتهى.

ولما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفرقة أصحابه طفق يركض بغلته قبل الكفار، وكان العباس بن عبد المطلب آخذًا بركابه الأيمن، وفي رواية: إن العباس بركابه الأيمن وأبو سفيان بن [الحارث](١) بالأيسر يكفانها إرادة ألا تسرع، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت في الصحيحين(٢) من حديث شعبة عن أبي إسحاق / [١٦٠] عن البراء بن عازب أنه قال له رجل: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وفي رواية لمسلم(٣): ولكنه خرج شبان أصحابه وخفافهم حسرًا ليس عليهم سلاح - أو كبير سلاح - فلقوا قومًا رماة، لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبني

---

(١) في المخطوط: «ابن حرب»، وهو خطأ، والتصويب من مستخرج أبي عوانة (٤/ ٢٧٧).
(٢) البخاري [٢٨٦٤]، ومسلم [١٧٧٦، ١٧٧٧].
(٣) مسلم [١٧٧٦].

نضر، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء، فنزل واستنصر وقال: اللهم أنزل نصرك. قال البراء: وكنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به.

وفي رواية سلمة بن الأكوع عند مسلم[١]: فلما غشوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم ثم قال: شاهت الوجوه. فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وفي حديث العباس عند مسلم[٢]: فقال رسول الله: أي عباس، ناد أصحاب السمرة. فقال عباس - وكان رجلًا صيتًا - فقلت بأعلى صوتي: يا أصحاب السمرة. قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار. ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج: يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على بغلته البيضاء كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال: هذا حين حمي الوطيس.

قال: ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بهن في وجوه القوم ثم قال: انهزموا ورب محمد. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حَدهم كليلًا وأمرهم مدبرًا. قال: وكأني أنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركض خلفهم على بغلته.

---

(١) مسلم [١٧٧٧].

(٢) مسلم [١٧٧٥].

وفي رواية جابر عند ابن إسحاق[١]: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اصرخ: يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة فأجابوا: يا لبيك يا لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه والترس ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا.

قال جابر بن عبد الله[٢]: ما رجعت راجعة الناس حتى وجدوا الأسارى مُكَتَّفين بين يدي رسول الله، والتفت رسول الله إلى أبي سفيان بن الحارث وكان حسن إسلامه وكان ممن صبر يومئذ معه وهو آخذ بثفين[٣] بغلته فقال: من هذا؟ قال: ابن عمك يا رسول الله.

وقال شيبة بن أبي عثمان بن طلحة أخو بني عبد الدار وكان أبوه قتل يوم أحد: قلت: اليوم أدرك ثأري أقتل محمدًا، فأردت رسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك وعلمت أني ممنوع منه.

وذكر ابن أبي خيثمة حديث شيبة هذا قال: لما رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين ذكرت أبي وعمي قتلهما حمزة، قلت: اليوم أدرك ثأري في محمد، فجئته عن يمينه فإذا أنا بالعباس قائمًا عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجئت عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث قلت: ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه فدنوت منه ودنوت حتى لم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف فرفع إلي شواظ من النار كأنه البرق، فنكصت على عقبي القهقرى، فالتفت رسول الله فقال: يا شيبة ادن، فدنوت، فوضع

(١) ذكره ابن هشام (٤/ ١٢٥) من رواية العباس عبد المطلب.
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٢٦)، وفي مسند أحمد (٣/ ٣٧٦) بعضه.
(٣) كذا في المخطوط، وعند ابن هشام: «ثفر»، وهو السير في مؤخر السرج، والثفنة: ما مس الأرض من الفخذ والساق والكركرة. ينظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (٤/ ١٥٢).

يده على صدري فاستخرج الله الشيطان من قلبي، فرفعت إليه بصري فهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال: يا شيبة هكذا قاتل الكفار، فقاتلت معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي رواية: فمسح صدري وقال: اللهم أعذه من الشيطان، فوالله فهو كان ساعتئذ أحب إليَّ من سمعي وبصري، وأذهب الله ما كان، ثم قال: ادن فقاتل، فتقدمت بين يديه، ولو لقيت تلك الساعة أبي أوقعت به السيف.

فلما تراجع المسلمون كروا كرة واحدة، فركب بغلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستوى عليها فخرج في أثرهم فتفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه، فدخلت عليه فقال: يا شيبة، الذي أراد الله خير مما أردت لنفسك. ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أكن أذكره لأحد قط. قلت: أشهد أن لا إله الله وأنك رسول الله. قلت: استغفر لي يا رسول الله. قال: غفر الله لك[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جفاة أهل مكة الهزيمة / [١٦١] تكلم رجال بما في نفوسهم من الضغن، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته. وصرخ جبلة بن الحنبل أخو صفوان بن أمية لأمه: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان بن أمية: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

ولما انهزمت هوازن استحر القتل في ثقيف من بني مالك فقتل منهم سبعون رجلًا تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة وكانت معه راية ثقيف، وكانت

(١) هو في دلائل البيهقي (٥/ ١٤٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٢٢-١٢٣)، وهو في مغازي الواقدي (٣/ ٩١٠).

راية الأحلاف مع قارب بن الأسود، فلما انهزم الناس هرب هو وقومه من الأحلاف فلم يقتل منهم غير رجلين، ثم أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة، وتبعت خيل رسول الله من سلك نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا[١]، فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام البعير وهو يظن أنه امرأة وذلك أنه كان في شجار له فأناخ به، فإذا شيخ كبير وإذا هو دريد ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: من أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي. ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا. فقال: بئس ما سَلَّحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم منعت فيه نساءك. فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تَكشَّف فإذا [عجانه][٢] وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل عُرِي، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: والله لقد أعتق أمهاتٍ لك ثلاثًا[٣].

سرية أبي عامر الأشعري

وهو عم أبي موسى الأشعري. قال ابن إسحاق: ابن عمه، والأول أشهر[٤].

وأوطاس وادٍ معروف بين حنين والطائف.

---

(١) تخرج أولاها من رأس حنين على قرابة ٥٠ كيلًا شرق مكة، ثم تقابلها أخرى قرب قرية الخُليصة، ثم أخرى تخرجك على وادي قرن المنازل قرب دحنا، ثم يأتي طريقها الطائف من الشمال من جهة المُليساء. معجم المعالم الجغرافية (ص ٧٢).

(٢) في المخطوط: «أعجابه»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٧)، والعجان ما بين الفخذين.

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٦-١٣٧).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٩)، وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٣٨).

روي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ من حنين عقد لواء دفعه إلى أبي عامر الأشعري وأمره على جمع من الأصحاب وبعثه في آثار من توجه قبل أوطاس من فرار هوازن، فأدرك بعض المنهزمة فناوشوه القتال، فرمي أبو عامر بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ففتح الله عليه وهزمهم الله.

وفي الصحيح[١] عن أبي موسى الأشعري قال: لما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريدًا وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: بعثني مع أبي عامر فرمي أبو عامر في ركبته فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزل منه الماء. قال: يا ابن أخي أقرئ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مني السلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيرًا ثم مات. فرجعت فدخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقوله: قل له: استغفر لي. فدعاء بماء فتوضأ، ثم رفع يديه وقال: اللهم اغفر لعبيدك أبي عامر، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك ومن الناس. فقلت: ولي فاستغفر، فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى.

(١) البخاري [٤٣٢٣]، ومسلم [٢٤٩٨].

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله وحبس بالجعرانة إلى أن فرغ من غزوة الطائف[١]، وكان السبي ستة آلاف رأس[٢]، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وكان على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري[٣].

قال ابن هشام[٤]: وأنزل الله في حنين: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦] الآيات.

وروي أن المسلمين أخذوا السبايا يوم حنين وأوطاس، وكانوا يتكرهون نساء السبي إذا كنَّ ذوات أزواج، فاستفتوا في ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يريد ملكت أيمانهم من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للسابين والنكاح مرتفع بالسبي.

قال أبو سعيد: أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزلت الآية فاستحللناهن[٥].

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبايا حنين وأوطاس ألا توطأ حامل من السبي حتى تضع حملها، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة[٦]، فسألوا عن العزل فقال: ليس من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد [الله] أن يخلق شيئًا لم يمنعه شيء[٧].

---

(١) أخرجه البزار (كما في كشف الأسفار ٢/ ٣٥٣).
(٢) المصنف (٥/ ٣٨١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٥٥) من رواية الزهري عن ابن المسيب مرسلًا.
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٤٥).
(٤) سيرة ابن هشام (١/ ١٤٥).
(٥) مسلم [١٤٥٦].
(٦) مسلم [١٤٤١].
(٧) مسلم [١٤٣٨].

وأخذوا في جملة السبي الشيماء أخت رسول الله / [١٦٢] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، فقالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة. قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك. فعرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه. وفي رواية: ودمعت عيناه، وخيرها وقال: إن أحببت فأقيمي عندي محببة مكرمة، وإن أحببتِ أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت، قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي. فأسلمت ومتعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وردها إلى قومها. فزعم بنو سعد أنه أعطاها غلامًا له يقال له: مكحول وجارية، فزوجت أحدهما للآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية[١].

وقال في المواهب[٢]: جاءته عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم حنين أمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب من هوازن، وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه، فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه. واختلف في إسلامها وإسلام زوجها كما اختلف في إسلام ثويبة[٣].

وفي الصحيح[٤] عن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلًا من المشركين قد علا رجلًا من المسلمين، فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع، وأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله. ثم رجعوا. فجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه. فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثله، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست. قال: ثم قال النبي

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٤٤).
(٢) المواهب اللدنية (١/ ٤٢٨).
(٣) انظر: الإصابة (٧/ ٥٤٨).
(٤) البخاري [٤٣٢١]، ومسلم [١٧٥١].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثله، فقمت فقال: ما لك أبا قتادة؟ فأخبرته فقال رجل: صدق، وسلبه عندي [فأرضه مني][(١)]. فقال أبو بكر: لاها الله إذًا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أعطه إياه، فأعطانيه، فابتعت به مخرفًا في بني سلمة، وإنه لأول مال تأثلته في الإسلام.

قالوا: واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر، منهم أيمن بن أم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث رجل من الأنصار، وأبو عامر الأشعري[(٢)]، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلا[(٣)]. والله أعلم.

غزوة الطائف

قالوا: ولما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين صنم من خشب لعمرو بن حممة ليهدمه ويوافيه بالطائف، فخرج الطفيل سريعًا فهدمه وجعل يحشوه النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكَفَيْنِ لست من عبادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا[(٤)]

وانحدر معه من قومه أربعمائة رجل سراعًا، فوافوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدموا معهم بالمنجنيق والدبابة[(٥)] - بالدال المهملة وتشديد الموحدة آلة تتخذ للحرب تدفع أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفه. كذا في القاموس[(٦)].

(١) غير موجود في المخطوط، والمثبت من الصحيح.
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٤٥).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٢)، ودلائل البيهقي (٥/ ١٤٢).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩).
(٥) زاد المعاد (٣/ ٤٩٥).
(٦) (ص١٠٦).

قالوا[١]: ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين لعشر من شوال في السنة الثامنة من الهجرة سار إلى الطائف يريد جمعًا من هوازن وثقيف قد هربوا من معركة حنين وتحصنوا بحصن الطائف، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل، فسلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في طريقه إلى الطائف نخلة اليمانية ثم على قرن[٢] ثم على المُلَيْح[٣] ثم على بَحْرة الرغاء من لِيَّة[٤]، فابتنى بها مسجدًا فصلى فيه، وأقاد فيها يومئذ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بني ليث فقتله به، وهو أول أدم أقيد به في الإسلام.

ومر في طريقه بحصن مالك بن عوف فهدمه، ثم سلك في طريق فسأل عن اسمها فقيل: الضيقة فقال: بلى هي اليسرى. ثم خرج منها حتى نزل تحت سدرة قريبًا من مال رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج فأمر بإخراجه.

ثم مضى حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبًا من حصنه فضرب به عسكره، فرموا المسلمين رميًا شديدًا كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلًا فيهم عبد الله بن أبي أمية، ورمي يومئذ عبد الله بن أبي بكر الصديق فجرح فاندمل، ثم انتقض بعد ذلك فمات منه في خلافة أبيه.

---

(١) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لسليمان بن موسى الكلاعي (٢/ ٢٥٥).

(٢) قرن المنازل، وهو ما يعرف اليوم باسم السيل الكبير، وما زال الوادي يسمى قرنًا، يبعد عن مكة ٨٠ كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٥٤).

(٣) واد يصب في وادي قرن إذا تجاوز السيل الكبير، يصب فيه من ضفته اليمنى من الشرق، وأعلاه يسمى السيل الصغير، شمالَ الطائف على ٣٠ كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص٢٥٤).

(٤) في المخطوط: «نحرة الرعاء»، والتصويب من سيرة ابن هشام. والبحرة في لغتهم المجرى المتسع بين الجبال، وهي معروفة اليوم بطرف لِيَّة من الجنوب على ١٥ كيلًا جنوب الطائف. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٥٤).

فارتفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناك، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب فضرب لهما قبتين، ثم صلى بينهما طول حصاره الطائف، فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وهو الصحيح[١]، وقيل: بضعًا وعشرين ليلة[٢]، وفي حديث أنس عند مسلم[٣]: فحاصرناهم أربعين ليلة، ونصب عليهم المنجنيق ورماهم، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع أعناب ثقيف وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعًا ذريعًا، ثم سألوه أن يدعها لله / [١٦٣] وللرحم فقال: إني أدعها لله وللرحم.

ثم نادى مناديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا من الحصن فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلًا، منهم أبو بكرة واسمه نفيع بن الحارث فتسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة[٤] يستقي عليها فكناه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أبا بكرة»، فأعتق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نزل منهم. ودفع كل رجل إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة[٥]، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أولئك عتقاء الله. ولم يؤذن له في فتح الطائف سنتئذ.

وفي الصحيح[٦] عن أم سلمة قالت: دخل عليَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعندي مخنث، فسمعه يقول لعبد الله بن أبي أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدًا

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ١٥٧)، والسنن الكبرى (٩/ ٨٤).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧٦).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ٧٣٦) [١٠٥٩].
(٤) أخرج البخاري معناه [٤٣٢٦، ٤٣٢٧].
(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٨-١٥٩).
(٦) البخاري [٤٣٢٤]، ومسلم [٢١٨٠].

فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يدخلن هؤلاء عليكم. وفي رواية له[١]: وهو محاصر بالطائف يومئذ.

وفي الصحيح[٢] أيضًا عن عبد الله بن عمرو قال: لما حاصر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطائف فلم ينل منهم شيئًا قال: إنا قافلون غدًا إن شاء الله. فثقل ذلك عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح فقال: إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فأعجبهم، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال سفيان مرة: فتبسم. انتهى.

وفقئت عين أبي سفيان بن حرب يومئذ، فذكر ابن سعد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له وهي في يده: أيهما أحب إليك، عين في الجنة أو أدعو الله لك يردها عليك؟ قال: عين في الجنة. ورمى بها. وشهد اليرموك فقاتل وفقئت عينه الأخرى يومئذ. ذكره الحافظ زين الدين العراقي[٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. فلما ارتحلوا قال: قولوا آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون[٤].

قال العلماء: فانظر كيف كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خرج للجهاد يعتد لذلك بجمع الصحابة واتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الجهاد والسفر، ثم إذا رجع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتعرى من ذلك ويرد الأمر كله لمولاه لا لغيره. وانظر إلى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(١) البخاري [٤٣٢٤].
(٢) البخاري [٤٣٢٥]، ومسلم [١٧٧٨].
(٣) طرح التثريب (١/ ١٣٣).
(٤) البخاري [٦٣٨٥]، ومسلم [١٣٤٤].

«وهزم الأحزاب وحده» فنفى ما تقدم ذكره، وهذا هو التوكل على الله حقًّا، لأن الإنسان وفعله خلق لربه، فهو الذي خلق ودبر وأعان وأجرى الأمور على يدي من يشاء ومن اختار من خلقه، فكل منه وإليه، ولو شاء الله أن يبيد أهل الكفر من غير قتال لفعل، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد:٤]، فيثيب الصابرين ويجزل الثواب للشاكرين.

ولما قيل له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادع الله على ثقيف قال: اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم[١].

وذكر أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو محاصر ثقيفًا قال لأبي بكر: يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت إلي قعبة[٢] مملوءة زبدًا فنقرها ديك فهرق ما فيها - وكان أبو بكر ماهرًا في تعبير الرؤيا مشهورًا به بين العرب - فقال له: ما أظنك تدرك منهم في يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأنا لا أرى[٣]. ثم انصرف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الطائف مارًا على دَحْنَا[٤] ثم على قرن المنازل ثم على نخلة حتى خرج إلى الجِعْرانة[٥] ونزلها وهي إلى مكة أدنى وبها قسم غنائم حنين. وفي هذا السفر أسلم صفوان بن أمية.

واستأنى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهوازن - أي انتظر أن يقدموا عليه مسلمين - بضع عشرة، ثم بدأ يقسم الأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم قبل الناس وهم سادات العرب من قريش وغيرهم من وجوه القبائل، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٩).

(٢) قدح من خشب مقعر. لسان العرب (١/ ٦٨٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) لم يزد ياقوت على أن قال: «هي من مخاليف الطائف». معجم البلدان (٢/ ٤٤٤).

(٥) في رأس وادي سرف في الشمال الشرقي من مكة، يعتمر منها المكيون، وبها مسجد، وقد عطلت بئرها اليوم، وكانت عذبة الماء يضرب المثل بعذوبته. معجم المعالم الجغرافية (ص٨٣).

وروي أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده، فقال: يا رسول الله أنت اليوم أغنى قريش، فتبسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو سفيان: حظنا من هذه الأموال. فأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالًا فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، فقال: حظ ابني يزيد، فأعطاه أيضًا مائة من الإبل وأربعين أوقية. فقال أبو سفيان: فأين حظ ابني معاوية؟ فأمر له أيضًا بمائة من الإبل وأربعين أوقية حتى أخذ أبو سفيان يومئذ ثلاثمائة من الإبل / [١٦٤] ومائة وعشرين أوقية من الفضة. فقال أبو سفيان: بأبي وأمي يا رسول الله، لأنت كريم في الحرب والسلم، هذا غاية الكرم جزاك الله خيرًا.

وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة كذا في الشفاء[(١)].

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مائة أخرى فأعطاه إياها.

وأعطى الحارث بن كلدة - وقيل: اسمه نصير بن الحارث - أخا بني عبد الدار، وهو أخو النضر بن الحارث عدو الله ورسوله، أعطاه مائة من الإبل، والحارث بن هشام أخا أبي جهل وعبد الرحمن بن [يربوع][(٢)] المخزوميين وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى والعلاء بن حارثة الثقفي وعده بعضهم في أهل الخمسين والأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ومالك بن عوف النضري أعطى كل هؤلاء المسمين من قريش وغيرهم على مائة من الإبل.

---

(١) الشفاء للقاضي عياض (١/ ١٤٦).

(٢) في المخطوط: «عبد الرحمن بن عوف»، والتصويب من الإصابة (٤/ ٣٦٦، ٣٦٧).

وأعطى دون المائة رجالًا من قريش وغيرهم، منهم مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، قال ابن إسحاق: لا أحفظ ما أعطاهم إلا أنها دون المائة[(١)].

وأعطى سعيد بن يربوع المخزومي وعدي بن قيس السهمي وعثمان بن نوفل خمسين.

وأعطى عباس بن مرداس إبلًا فسخطها كما في مسلم[(٢)]، وقال شعرًا:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين عيينة والأقرع

فما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

قال: فأتم له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مائة. زاد ابن إسحاق: فقال رسول الله: اقطعوا عني لسانه[(٣)].

وممن أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا دون ذلك: طليق بن سفيان بن أمية بن عبد شمس، وخالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وهو الذي أراد الفتك برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم، وأبو السنابل بن بعكك بن الحارث من بني عبد الدار، وزهير بن أبي أمية المخزومي أخو أم المؤمنين أم سلمة، وخالد بن هشام بن المغيرة المخزومي، وهشام بن الوليد أخو خالد، وسفيان بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، والسائب بن [أبي][(٤)] السائب المخزومي، ومطيع بن

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٠-١٩١).

(٢) مسلم [١٠٦٠].

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩١-١٩٢)، وفي الأبيات عنده اختلاف عن المثبت هنا.

(٤) ما بين المعقوفين ليس في المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٣)، والإصابة (٣/ ٢٢).

الأسود أخو بني عدي، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، وأحيحة بن عدي بن خلف الجمحي، ونوفل بن معاوية من بني بكر بن عبد مناة، وعلقمة بن علاثة بن عوف، وخالد بن هوذة.

وقال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائل من أصحابه: أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة، ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه[(١)].

وفي الصحيحين[(٢)] عن عبد الله - ولفظه لمسلم - قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأتيته فأخبرته فغضب من ذلك غضبًا شديدًا واحمر وجهه حتى تمنيت أني لم أذكره له، ثم قال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه حديثًا بعدها.

ولمسلم[(٣)] عن جابر بن عبد الله قال: أتى رجل بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٥).

(٢) البخاري [٣١٥٠، ٤٣٣٥، ٤٣٣٦]، ومسلم [١٠٦٢].

(٣) مسلم [١٠٦٣].

فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أفأقتل هذا المنافق؟ فقال: معاذ الله، أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية.

وفي رواية ابن إسحاق[١] عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل من بني تميم يقال له: ذو الخويصرة، فوقف عليه وهو يعطي الناس فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال: أجل فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت. فغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: ألا نقتله؟ قال: دعه، سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النَّصل فلا يوجد فيه شيء، ثم في القِدح فلا يوجد فيه شيء، ثم في الفُوق فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث والدم.

وفي الصحيحين[٢] عن عبد الله بن زيد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح حنينًا قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس. وللبخاري[٣]: فكأنهم وجدوا إذا لم يصبهم ما أصاب الناس، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي؟ ويقولون: الله ورسول أمن. فقال: ألا تجيبوني؟ فقالوا: الله ورسوله أمن. فقال: أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا وكان من الأمر كذا وكذا - لأشياء عددها زعم عمر أنه لا يحفظها

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٥-١٩٦).
(٢) البخاري [٤٣٣٠]، ومسلم [١٠٦١].
(٣) البخاري [٤٣٣١].

- / [١٦٥] فقال: ألا ترضون أن تذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رحالكم؟ الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم. إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض.

وفي رواية أنس في الصحيحين أن ناسًا من الأنصار قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس: فحدثت بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: يا رسول الله قد رضينا. فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ستجدون أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض. قالوا: سنصبر. قال أنس: فلم يصبروا[(١)].

وفي رواية ابن إسحاق[(٢)] عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فواسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار

(١) البخاري [٣١٤٧، ٤٣٣١].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٩-٢٠٠) بسند حسن.

في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحاكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

فصل

وقد كان وفد هوازن قد أسلموا وأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يقسم أموالهم، وهم أربعة عشر رجلًا ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال.

وقال ابن إسحاق[١]: وحدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن وفد هوازن أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام رجل من هوازن يقال له: زهير يكنى أبا صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا[٢] للحارث بن شمر أو النعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعيادته علينا، وأنت خير المكفولين.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) أي: أرضعنا.

وفي الصحيح[١] من حديث الزهري أن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي. وقد كنت استأنيت بكم، وكان أنظرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإننا نختار سبينا. فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل.

فقال الناس: قد طبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم.

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا. هذا الذي بلغنا عن سبي هوازن.

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن إسحاق[٢]: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

---

(١) البخاري [٤٣١٨، ٤٣١٩].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٥).

قال ابن إسحاق[١]: وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوفد هوازن: ما فعل مالك؟ فقالوا: هو في الطائف مع ثقيف. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخبروا مالكًا إن هو أتاني مسلمًا رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. فأتي مالك بذلك، فخرج / [١٦٦] إليه من الطائف فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، فأسلم وحسن إسلامه. فقال مالك بن عوف النضري المذكور:

ما إن سمعت ولا رأيت بمثله ... في الناس كلهم كمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدِي[٢] ... وإذا تشأ يخبرك عما في غد

وإذا الكتيبة عردت[٣] أنيابها ... بالسَّمْهَرِيِّ وضرب كل مهند

فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر في مرصد[٤]

فاستعمله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه الناس مقبلًا من حنين علقت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت بردائه، فوقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذوبًا. أخرجه البخاري في الصحيح[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٧-١٨٨).

(٢) سئل حاجةً. القاموس المحيط (ص ١٦٣٨).

(٣) **عردت أنياب الجمل**: غلظت واشتدت. **والسمهري**: الرمح الصليب العود. لسان العرب (٣/ ٢٨٧، ٤/ ٣٨١).

(٤) **الهباءة**: الغبار. **وخادِر**: أي لازِمٌ خدره وعرينه. لسان العرب (١٥/ ٣٥٠، ٤/ ٢٣١).

(٥) برقم [٢٨٢، ٣١٤٨].

وفي سيرة ابن إسحاق[١] أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا أيها الناس، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمِخْيط، فإن الغلول يكون على أهله عارًا وشنارًا يوم القيامة. فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بَرْذعة[٢] بعير لي من وبر. فقال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إذا بلغت ذلك فلا حاجة لي بها. ثم طرحها من يده[٣].

وروي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس، ثم عد الإبل والغنم وقسمها على الناس، فوقع في سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم، وإن كان فارسًا فسهمه اثنا عشر بعيرًا مع مائة وعشرين شاة من الغنم.

قال ابن إسحاق[٤]: ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجعرانة معتمرًا، فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمرته انصرف راجعًا إلى المدينة، وكانت عمرته في ذي القعدة، فقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة في بقية ذي القعدة أو في أول ذي الحجة، وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد الذي استعمله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مكة وهو ابن نيف وعشرين سنة، وكان في غاية الورع والزهد، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٨٩).
(٢) الحلس الذي يلقى تحت الرحل. لسان العرب (٨/ ٩).
(٣) أخرج أبو داود نحوه [٢٦٩٤].
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٠).
(٥) جوامع السيرة (ص٢٤٩).

قال ابن حزم[١]: وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم حاشا عيينة بن حصن فلم يزل مغمورًا، وكان خيرهم متفاضلين: فمنهم الفاضل المجتهد كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، وفيهم خيار دون هؤلاء كصفوان بن أمية وعمير بن وهب ومطيع بن الأسود ومعاوية بن أبي سفيان، وسائرهم لا يظن بهم إلا الخير. وكان ممن أسلم يوم الفتح وبعده من الأشراف نظراء من ذكرنا، ووثق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصحة نياتهم في الإسلام فلم يدخلهم فيمن أعطاه: عكرمة بن أبي جهل وعتاب بن أسيد وجبير بن مطعم رضي الله عنهم أجمعين.

وكان مدة غيبته مذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يومًا. انتهى والله أعلم.

وفي هذه السنة أسلم عروة بن مسعود الثقفي، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم ما بين ذي القعدة إلى انصراف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تبوك سنة تسع في رمضان.

قال ابن إسحاق[٢]: وكان من حديث ثقيف أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنهم قاتلوك، وعرف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال له عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم - ويقال: من أبصارهم - وكان فيهم كذلك محببًا مجابًا مطاعًا، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا

(١) جوامع السيرة (ص٢٤٨).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤٦-٢٤٩).

يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف عليهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل / [١٦٧] من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله لي، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم. فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه.

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير - وكان في سن عروة بن مسعود - وعرضوا عليه ذلك، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلًا حتى ترسلوا معي رجالًا. فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونون ستة، فبعثوا الحكم بن عمرو بن وهب وشرحبيل بن غيلان بن سلمة، ومن بني مالك عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان وأوس بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة، فخرج بهم عبد ياليل وهو نائب القوم وصاحب أمرهم، ولم يخرج بهم إلا خشية أن يصنع به مثل ما صنع بعروة لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه، فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة[١] لقوا بها المغيرة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت رعيتها نوبًا عليهم، فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين وضبر[٢] يشتد ليبشر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدومهم

(١) وادي قناة الذي يمر بين المدينة وأحد.

(٢) **ضبر**: أي: وثب.

عليه، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره عن ركب ثقيف أنهم قد قدموا يريدون البيعة والإسلام وأن يشترطوا شروطًا ويكتبوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا في قومهم وبلادهم وأموالهم، فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بأن لا تسبقني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أكون أنا أحدثه، ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، ولما قدموا ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبة عليهم في ناحية مسجده كما يزعمون، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي يكتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعامًا يأتيهم من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وقد كانوا فيما سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدع لهم الطاغية - وهي اللات - لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ذلك، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوه شهرًا واحدًا فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى، وإنما يريدون في ذلك - فيما يظهر - أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، وكرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلوا الإسلام، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمانها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا محمد فسنؤتيكها ولو كانت دناءة.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًّا، وذلك [أنه كان][(١)] من أحرصهم على التفقه في الدين وفي الإسلام، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

قال ابن إسحاق[(٢)]: وحدثني عيسى بن عبد الله بن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفي عن بعض وفدهم قال: وكان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بقي من شهر رمضان بفطورنا وسحورنا من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيأتينا بالسحور وإنا لنقول: إنا لنرى الفجر قد طلع فيقول: قد تركت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتسحر لتأخير السحور، ويأتينا بفطورنا وإنا لنقول: ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد، فيقول: ما جئتكم حتى أكل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يضع يده في الجفنة فيلت قسمه منها.

قال ابن إسحاق[(٣)]: وحدثني سعيد بن أبي هند عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عثمان بن أبي العاص قال: كان من آخر ما عهد إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بعثني إلى ثقيف أن قال: يا عثمان تجاوز في الصلاة، واقْدُرِ الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة.

قال ابن إسحاق[(٤)]: فلما فرغوا / [١٦٨] من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في

(١) ما بين المعقوفين مثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤٩-٢٥٠).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٠-٢٥١).
(٤) المصدر السابق.

هدم الطاغية مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم، فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمعول، وقام قومه دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حسرًا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها: واها لك واها لك.

فلما هدمها المغيرة أخذ مالها وحليها وأرسل إلى أبي سفيان، وحليها ومالها مجموع من الذهب والجزع.

وقد كان أبو مليح ابن عروة وقارب [بن][(١)] الأسود قدما على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفد ثقيف حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف ولا يريدان مجامعتهم على شيء أبدًا، فقال [لهما][(٢)] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: توليا من شئتما. قالا: نتولى الله ورسوله. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وخالكما أبا سفيان بن حرب. فقالا: وخالنا أبا سفيان بن حرب.

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية سأل رسول الله أبو المليح ابن عروة أن يقضي عن أبيه دينًا كان عليه من مال الطاغية. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [نعم. فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضه، وعروة والأسود أخوان لأب وأم][(٣)]. فقال رسول الله: إن الأسود مات مشركًا. فقال قارب لرسول الله: لكن تصل مسلمًا ذا قرابة، يعني نفسه،

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥١).
(٢) في المخطوط: «لهم»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٢).
(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٢).

إنما الدين عليَّ وإنما أنا الذي أطلب به. فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطاغية. فلما جمع المغيرة مالها قال لأبي سفيان: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [قد أمرك][١] أن تقضي عن عروة والأسود دينهما، فقضى عنهما. انتهى.

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها سقناها كما هي، وإن كان إسلامها بعد غزوة تبوك لينتظم أولها بآخرها وليقع الكلام على فقه هذه القصة وأحكامها في موضع واحد فنقول:

فيها من الفوائد والحكم ما ذكره ابن القيم[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وغيره أن الله سبحانه قد وعد رسوله وهو الصادق الوعد أنه إذا دخل مكة دخل الناس في دينه أفواجًا ودانت له العرب بأسرها، فلما أتم له الفتح المبين اقتضت حكمة الله أن أمسك قلوب هوازن عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله والمسلمين، ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح، وليظهر الله رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، وغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين وتبدو للمتوسمين.

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولًا مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عَددهم وعُددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسًا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده كما دخله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعًا رأسه منحنيًا على فرسه حتى إن ذقنه يكاد أن

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٧-٤٩٥، ٥٠٢-٥٠٨).

يمس سرجه تواضعًا لربه وخضوعًا لعظمته واستكانة لعزته أن أحل له حرمه وبلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين الله سبحانه لمن قال: «لن نغلب اليوم من قلة» أن النصر إنما هو من عنده وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئًا فوليتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم أرسل إليها خلع الجبر مع بريد ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة:٢٦]، وقد اقتضت حكمته أن خِلَع النصر وجوائزه إنما [تفيض][(١)] على أهل الانكسار: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص:٥] الآيتين.

ومنها أن الله سبحانه منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهبًا ولا فضة ولا متاعًا ولا سبيًا ولا أرضًا، كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال: سألت جابرًا هل غنموا يوم الفتح شيئًا؟ قال: لا[(٢)]. وقد كانوا فتحوها بإيجاف الخيل والركاب وهم عشرة آلاف وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرَّك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم معهم نزلًا وضيافة وكرامة لحزبه وجنده، وتمم القدير سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

فلما أنزل الله نصره على رسوله /[١٦٩] وأوليائه، وبردت الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله قيل: لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم

(١) في المخطوط: «تفض»، والتصويب من زاد المعاد (٣/ ٤٧٨).
(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/ ٥٨٧).

وذراريكم، فأوحى الله إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاؤوا مسلمين، فقيل: إن من شكران إسلامكم أن يرد عليكم أبناءكم ونساءكم، و﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠].

ومنها أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزاة حنين، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر - بدر وحنين - وإن كان بينهما سبع سنين، وقاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رمى وجوه المشركين بالحصباء، وبهذا يتبين أن بهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله والمسلمين، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم، والثانية استفرغت قواهم واستنفدت سهامهم وأذلت جمعهم، حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله[(١)].

ومنها أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم، وعرفهم تمام نعمه عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، وأنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله.

وفيها من الفقه:

أن الإمام ينبغي له أن يبعث البعوث ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدو له وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد لينتظرهم بل يسير إليهم كما سار رسول الله إلى هوازن.

وفيها أن الإمام يجوز له أن يستعير سلاح الكفار وعدتهم لقتال عدوه.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٧٧-٤٧٩).

ومنها أن من تمام التوكل استعمال الأسباب لمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإن رسول الله [وأصحابه][(١)] أكمل الخلق توكلاً، وإنما كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح.

وفيها كمال خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعفوه عمن همَّ بقتله، ولم يعاجله بل مسح صدره حتى عاد كأنه ولي حميم.

ومنها ما ظهر من معجزات النبوة في هذه الغزاة من إخباره لشيبة بما أضمر في نفسه، ومن ثباته وقد تولى عنه الناس، وهو ينوه بذكره ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقد استقبلته كتائب المشركين وهو على البغلة التي لا تعد للكر والفر.

ومنها إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته في تلك القبضة حتى ملأت أعين القوم، إلى غير ذلك من الآيات، كنزول الملائكة للقتال حتى رآهم العدو جهرة ورآهم بعض المسلمين.

ومنها جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار ودخولهم في الطاعة، فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم، وفي هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تملك بالقسمة لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء لم يستأنِ بهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليردها عليهم، وعلى هذا فلو مات من الغانمين أحد قبل القسمة وإحرازها بدار الإسلام رد نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته، وهو مذهب أبي حنيفة.

ومنها جواز التنفيل من أربعة أخماس الغنيمة، وهذا العطاء الذي أعطاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤلفة قلوبهم هو من النفل، نفل به رؤوس القبائل والعشائر ليتألفهم به

---

(١) ما بين المعقوفين مثبت من زاد المعاد (٣/ ٤٨٠).

وقومهم على الإسلام، فهو أولى بالجواز من تنفيل الثلث بعد الخمس والربع بعده لما فيه من تقوية الإسلام وأهله وشوكته واستجلاب عدوه إليه، وهكذا وقع سواء، كما قال بعض هؤلاء الذين نفلهم: لقد أعطاني رسول الله وإنه لأبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي، فما ظنك بعطاء قوى الإسلام وأهله وأذل الكفر وحزبه، واستجلب به قلوب رؤوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم، وإذا رضوا رضوا لرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلف أحد من قومهم. فلله ما أعظم موقع هذا العطاء وما أجداه وأنفعه للإسلام وأهله.

ومعلوم أن الأنفال لله ورسوله يقسمها رسوله حيث أمره لا يتعدى الأمر، فلو وضع الغنائم بأسرها في هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة لما خرج عن الحكمة والمصلحة والعدل، ولما عميت أبصار ذي الخويصرة التميمي وأضرابه عن هذه المصلحة والحكمة قال له قائلهم: اعدل فإنك لم تعدل، وقال مشبهه: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله. ولعمر الله إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله وبمعرفته بربه وطاعته له وتمام عدله وإعطائه لله ومنعه لله، [ولله سبحانه أن يقسم الغنائم كما يحب][1]، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة وقد أوجفوا عليها بخيلهم وركابهم، وله أن يسلط عليها نارًا من السماء تأكلها، وهو في ذلك كله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين، وما فعل شيئًا من ذلك عبثًا ولا قدره سدى، بل هو عين المصلحة والحكمة والعدل والرحمة، مصدره كمال علمه وعزته ورحمته. ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله يقودونه إلى ديارهم وأرضى من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير كما يعطى الصغير ما يناسب عقله ومعرفته، ويعطى العاقل اللبيب ما يناسبه،

(١) في المخطوط: «والله سبحانه أمره أن يقسم الغنائم كما يحب»، والمثبت من زاد المعاد (٣/ ٤٨٥)، وهو الموافق لسياق الكلام.

وهذا فضله، وليس هو سبحانه تحت حجر أحد من خلقه فيوجبون عليه بعقولهم ويحرمون، ورسوله منفذ لأمره. والله أعلم.

وفيها أن السلامة من ألسنة الناس غاية لا تدرك / [١٧٠] كما قال الشافعي، فعليك بما يصلحك عند الله ودع عنك الناس، فإذا كان رسول الله تكلم فيه ونسب إلى الجور والظلم وهو رسول رب العالمين وأعظم الخلق عدلًا وأمانة ومع هذا قيل فيه ما قيل، فكيف يطمع العاقل في السلامة من الناس؟!

ومنها التأسي بالأنبياء والصبر كصبرهم، لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر».

ومنها - وهي من علامات نبوة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إخباره بخروج الخوارج قبل خروجهم بمدة، فصار الأمر كما أخبر.

وفيها أنها تفيدك الخوف العظيم على نفسك ولا تغتر بالهالك ولو كان من أعبد الناس وأزهدهم.

وفيها معرفة المؤمن أن كل ما خالف هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدي أصحابه فهو باطل مردود على صاحبه، وإن كان قصده رضا الله، لأن الخوارج لم يقصدوا ببدعتهم إلا رضا الله والجنة، ولكن لما كان دينهم ومذهبهم خلاف هدي رسول الله وهدي أصحابه كانوا هم شر الخلق والخليقة، ولهذا حرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتالهم إذا خرجوا وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[(١)]، وقال: «هم شر الخلق والخليقة»[(٢)].

---

(١) البخاري [٣٣٤٤]، ومسلم [١٠٦٤].

(٢) مسلم [١٠٦٧].

وفيها معرفة المؤمن أن المنتسب إلى الإسلام والسنة والزهد والعبادة قد يمرق من الإسلام، فإذا كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلفائه الراشدين ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام، وذلك بأسباب: منها الغلو الذي ذمه الله حيث قال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١، المائدة:٧٧]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من قبلكم الغلو»[(١)].

ومن ذلك الغلو في المخلوق كائنًا من كان، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح كالمسيح أو عزير أو علي بن أبي طالب أو عبد القادر أو معروف الكرخي أو غيرهم وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يدعوه مع الله أو يستغيث به في رخاء أو شدة ليفرج كربته أو يجذب إليه منفعته أو ينذر له ليجلب له خيرًا أو يدفع عنه شرا، أو يذبح له ذبيحة يتقرب بها إليه، أو يقول: أذبح شاة باسم سيدي، أو يعبده بالسجود له أو لقبره، فكل هذا شرك وضلال وغلو في الدين وجعل إله مع رب العالمين، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًّا، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يدعى معه آلهة أخرى. وقد عمَّت البلوى بهذا الأمر في كثير من البلاد، نسأل الله العفو والعافية.

ومنها أنه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة: «من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه»، وقاله قبلُ في غزوة أخرى، فاختلف الفقهاء هل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط على قولين هما روايتان عن أحمد، أحدهما أنه له - شرطه الإمام أو لم يشرطه -،

(١) النسائي (٢/ ٤٩).

وهو قول الشافعي، والثاني أنه لا يستحق إلا بشرط الإمام، وهو مذهب أبي حنيفة. وقال مالك: لا يستحق إلا بشرط الإمام بعد القتال، فلو نصَّ قبله لم يجز.

ومأخذ النزاع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإمام والحاكم وهو المفتي وهو الرسول، فقد يقول الحكم لمنصب الرسالة فيكون شرعًا عامًا إلى يوم القيامة، وقد يقوله لمنصب الفتوى كقوله لهند: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[(١)]، فهذه فتيا لا حكم، وقد يقوله لمنصب الإمام فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت وذلك المكان وعلى تلك الحال، فيلزم من بعده من [الأئمة][(٢)] مراعاة ذلك على حسب المصلحة التي راعاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمانًا ومكانًا وحالًا.

ومن هاهنا تختلف الأئمة في كثير من المواضع التي فيها أثر عنه كقوله: «من قتل قتيلًا فله سلبه»، هل قاله بمنصب الإمامة فيكون حكمه متعلقًا بالأئمة، أو بمنصب الرسالة والنبوة فيكون شرعًا عامًا. وكذلك قوله: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»[(٣)] هل هو شرع عام لكل أحد أذن فيه الإمام أو لم يأذن، أو هو راجع إلى الأئمة فلا تملك بالإحياء إلا بإذن الإمام؟ على قولين: فالأول للشافعي وأحمد في ظاهر مذهبهما، والثاني لأبي حنيفة. وفرق مالك بين الفلوات الواسعة وما لا يتشاح الناس فيه وبين ما يقع فيه التشاح، فاعتبر إذن الإمام في الثاني دون الأول.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**له عليه بينة**» يدل على مسألتين: إحداهما أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر لا تقبل، الثانية الاكتفاء في ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من

---

(١) البخاري [٢٢١١، ٦٦٤١]، ومسلم [١٧١٤].

(٢) في المخطوط: «الأمة»، والمثبت من زاد المعاد (٤/ ٤٩٠)، وهو أولى.

(٣) البخاري [٢٣٣٥].

غير يمين لحديث أبي قتادة المتقدم في الصحيح في قتل الرجل، وهذا أحد الأقوال في المسألة وهو وجه في مذهب أحمد، والثاني أنه لا بد من شاهد ويمين كإحدى الروايتين عن أحمد، [والثالث][(١)] لا بد من شاهدين نص عليه أحمد لأنه دعوى قتل فلا تقبل إلا بشاهدين.

وفي القصة دليل على مسألة أخرى، وهي أنه / [١٧١] لا يشترط في الشهادة التلفظ بلفظ «أشهد»، قال في الهدي[(٢)]: وهذا أصح الروايات عن أحمد في الدليل، قال شيخنا: فلا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط لفظة الشهادة، وقد قال ابن عباس: شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح، ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظة «أشهد».

وقوله: «له سلبه» دليل على أنَّ له سلبه غير مخموس، وقد صرح بهذا في قوله لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلًا: «له سلبه أجمع». وفي المسألة ثلاثة مذاهب: هذا أحدها. والثاني أنه يخمس كالغنيمة، وهذا قول الأوزاعي وأهل الشام، وهو مذهب ابن عباس لدخوله في آية الغنيمة. والثالث إن استكثره الإمام خمسه، وهو قول إسحاق، وفعله عمر بن الخطاب، رواه عنه سعيد في سننه في مبارزة البراء للمرزبان. قال في الهدي: والأول أصح، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخمس السلب وقال: هو له أجمع، ومضت على ذلك سنته وسنة الصديق بعده، وما فعله عمر اجتهاد.

---

(١) في المخطوط: «والثاني»، والسياق يقتضي ما أثبته، وهو كذلك في زاد المعاد (٤/ ٤٩٢).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٩٢).

وفي الحديث دليل على أنه من أصل الغنيمة، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى به للقاتل ولم ينظر في قيمته وقدره واعتبار خروجه من خمس الخمس، وقال مالك: هو من خمس الخمس.

وفيها جواز نصب المنجنيق على الكفار ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية.

ومنها جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم وهو أنكى فيهم.

ومنها أن العبد إذا أبق من المشركين إلى المسلمين صار حرًا.

ومنها استجابة الله دعاء رسوله لثقيف أن يهديهم ويأتي بهم، وقد حاربوه وقاتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه وقتلوا رسوله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله فدعا لهم ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رحمته ورأفته ونصيحته.

ومنها كمال محبة الصديق وقصده التقرب إليه بكل ما يمكنه، ولهذا أنشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدوم وفد الطائف ليكون هو الذي فرحه وسره بذلك، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه، وقول من قال من الفقهاء: «لا يجوز الإيثار بالقرب» لا يصح، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألها عمر ذلك فلم تكره له السؤال ولا لها البذل، وهل إهداء القرب المجمع على جوازها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها فيحرز ثوابها وبين أن يعملها ثم يؤثره بثوابها؟

ومنها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون [الله]، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شركًا عندها وبها، وبالله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد فيها أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتَّبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا مآخذهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم فيه الكبير، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء وغلبت السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ومنها جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تساق إليها كلها ويصرفها إلى الجند والمقاتلة ومصالح الإسلام، كما

أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال اللات وأعطاها لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا، وله أن يقطعها للمقاتلة أو يبيعها ويستعين بثمنها على مصالح المسلمين، وكذلك الحكم في أوقافها فإن وقفها والوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيصرف في مصالح المسلمين، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف / [١٧٢] على مشهد ولا قبر يسرج عليه ويعظم وينذر له ويحج إليه ويعبد من دون الله ويتخذ وثنًا من دون الله، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ومن اتبع سبيلهم. انتهى ملخصًا من الهدي النبوي لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وفيها من الفوائد والفقه أكثر مما ذكر. والله أعلم.

ذكر قصة كعب بن زهير مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال ابن إسحاق[(١)]: ولما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب - وكان بجير قد أسلم قبل ذلك وهو حسن الإسلام - يخبره أن رسول الله قتل رجالًا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن [كانت لك في نفسك حاجة][(٢)] فطر إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإن لم تفعل فانج إلى نجائك. وكان كعب قد قال:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠١-٢٠٤).

(٢) في المخطوط: «فإن كنت لك في نفسك لك حاجة»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٢).

على خلق لم تلف أمًا ولا أبا ... عليه ولم تلف عليه أخًا لكا
فإن كنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت لعًا لكا
سقاك بها المأمون كأسًا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

قال: فبعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيرًا كره أن يكتمها رسول الله، [فأنشده إياها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع][(١)] «سقاك بها المأمون»: صدق وإنه لكذوب، وأنا المأمون. ولما سمع: «على خلق لم تلف أمًا ولا أبًا عليه» قال: أجل، لم يلف عليه أباه ولا أمه. ثم قال بجير لأخيه كعب:

من مبلغ كعبًا فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلًا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى علي محرم

فلما بلغ كعبًا ضاقت به الأرض بما رحبت وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقال: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بدًا قال قصيدته التي مدح فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: هذا رسول الله، فقم إليه واستأمنه.

فذكر لي أنه قام إلى رسول الله حتى جلس إليه فوضع يده في يده - وكان رسول الله لا يعرفه - فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبًا

(١) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٢).

مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق[١]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب إليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعه عنك، فقد جاء تائبًا نازعًا. فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته اللامية المشهورة يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[٢] ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن[٣] غضيض الطرف مكحول

هيفاء[٤] مقبلةً عجزاء مدبرةً ... لا يشتكى قصر منها ولا طول

تمشي الغواة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آله حدباء محمول

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلًا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذَنِّي بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فيَّ الأقاويل

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٤-٢١٢) بتصرف.

(٢) يقال: قلب متبول إذا غلب الحبُّ وهيمه. النهاية في غريب الحديث (١/ ١٨٠).

(٣) الأغن من الغزلان وغيرها: الذي في صوته غُنة. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٩٠).

(٤) من الهَيَف، وهو رقة الخصر وضمور البطن. لسان العرب (٩/ ٣٥٢).

لقد أقوم مقامًا لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني لا أنازعها ... في كف ذي نقمات قوله القيل
فلهْو أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل: إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم من ضراء الأسد مخدره ... في بطن عثَّر[1] غيل دونه غيل[2]
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كُشُف[3] ... عند اللقاء ولا ميل معازيل[4]
يمشون مشيَ الجِمال الزُّهْر يعصمهم ... ضرب إذا عَرَّد السود التنابيل[5]
شُمُّ العرانين[6] أبطالٌ لبوسُهمُ ... من نسج داود في الهيجا سرابيل[7]
بيض سوابغ قد شُكَّت لها حِلق ... كأنها حِلق القفعاء مجدول[8]

---

(١) موضع باليمن تكثر الأسود فيه. معجم البلدان (٤/ ٨٥).
(٢) **الغيل**: شجر ملتف يستتر فيه كالأجمة. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٠٣).
(٣) الأنكاس جمع نِكس بالكسر، وهو الرجل الضعيف. والكشف جمع أكشف وهو الذي لا ترس معه. النهاية في غريب الحديث (٥/ ١١٥، ٤/ ١٧٦).
(٤) جمع معزال، وهو من لا رمح معه. القاموس المحيط (ص ١٣٣٣). والميل جمع أميل، وهو الكَسِل الذي لا يحسن الركوب والفروسية. النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٨٣).
(٥) جمع تنبال، وهو الرجل القصير. وعرد من التعريد وهو الفرار وسرعة الذهاب في الهزيمة. لسان العرب (١١/ ٨٠، ٣/ ٢٨٨).
(٦) شم جمع أشم، والعرانين الأنوف، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف الأنفس. النهاية في غريب الحديث (٢/ ٥٠٢).
(٧) المراد بها الدروع.
(٨) **شُكَّتْ**: نُظمت، والقفعاء شجر، مجدول أي: محكم، والجدل أن يضرب عرض الحديد حتى يدملج، وهو أن تضرب حروفه حتى تستدير. لسان العرب (١١/ ١٠٥).

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمُ ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

/ [١٧٣] لا يقع الطعن إلا في نحورهمُ ... وما لهم عن حياض الموت تهليل[(١)]

قال ابن إسحاق[(٢)]: قال عاصم بن عمر بن قتادة: فلما قال كعب: «إذا عرد السود التنابيل»، وإنما يريد معاشر الأنصار. لما كان صاحبنا صنع به ما صنع، وخص المهاجرين من قريش بمدحته غضبت الأنصار، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ويذكر بلاءهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... في مِقنب[(٣)] من صالحي الأنصار

ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ... إن الخيار همُ بنو الأخيار

المكرهين السمهري بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار

والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الإبصار

والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تَعانُقٍ وكِرار

يتطهرون يرونه نسكًا لهم ... بدماء من علقوا من الكفار

دربوا كما دربت ببطن خَفِيَّة[(٤)] ... غُلْب الرِّقاب[(٥)] من الأسود ضواري

وإذا حللت ليمنعوك إليهمُ ... أصبحت عند معاقل الأعفار[(٦)]

ضربوا عليًّا[(٧)] يوم بدر ضربة ... دانت لوقعتها جميع نزار

---

(١) أي: نكوص وتأخر. النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٧١).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٢-٢١٤).

(٣) المِقنب بالكسر الجماعة. لسان العرب (١/ ٦٩٠).

(٤) أجمة في سواد الكوفة، بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلًا، ينسب إليها الأسود. معجم البلدان (٢/ ٣٨٠).

(٥) أي: غليظة الرقاب والأعناق. انظر: القاموس المحيط (ص ١٥٥).

(٦) جمع عُفر، وهو الشجاع الجلد. القاموس المحيط (ص ٥٦٨).

(٧) أي: علي بن مسعود الغساني، تنسب إليه بنو كنانة.

لو يعلم الأقوام علمي كلهم فيهم لصدقني الذين أماري
قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقاري

قال ابن هشام[(١)]: ويقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له حين أنشده بانت سعاد: لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل، فقال كعب هذه الأبيات.

وفي رواية أبي بكر بن الأنباري: لما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

رمى عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بردة كانت عليه، وإن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف فقال: وما كنت لأوثر بثوب رسول الله أحدًا. فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفًا وأخذها منهم، قال: وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم[(٢)].

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء هو وأبوه زهير وابنه عقبة وابن ابنه العوام بن عقبة.

فصل

ولما دخلت سنة تسع بعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصدقين يأخذون الصدقات من الأعراب.

قال ابن سعد[(٣)]: ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصدقين. قالوا: لما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هلال المحرم سنة تسع بعث المصدقين يصدقون العرب،

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٤).
(٢) قال ابن كثير في السيرة النبوية (٣/ ٧٠٧): «وهذا من الأمور المشهورة جدا، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم».
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٠).

فبعث عيينة بن حصن إلى بني تميم، وبعث [بريدة بن الحصيب][(١)] إلى أسلم وغفار، وبعث عباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة، وبعث الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب، وبعث بشير بن سفيان إلى بني كعب، وبعث ابن اللتبية الأزدي إلى بني ذبيان.

وأمر رسول الله أن يأخذوا العفو منهم، ويتوقوا كرائم أموالهم.

قال ابن إسحاق[(٢)]: وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث عدي بن حاتم إلى طي وبني أسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقات بني سعد على رجلين: فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث عليًّا إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

فصل

في السرايا والبعوث في سنة تسع

فمنها سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، وذلك في المحرم من هذه السنة، في خمسين فارسًا ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري. فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء وقد سرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلًا وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا، فساقهم إلى المدينة، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث.

---

(١) في المخطوط: «يزيد بن الحصين»، والتصويب من الطبقات.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٢٨).

فقدم فيهم في عدة من رؤسائهم عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث. فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا إليهم، فعجلوا فجاؤوا إلى باب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنادوه: يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك.

فنزل فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤] الآية، فخرج إليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلمونه فوقف معهم، ثم مضى فصلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب، وأمر عَلَيْهِ السَّلَامُ ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم فغلبهم، فقام الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم فأنشد مفاخرًا:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفعل العز يتبع

/[١٧٤]ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع

بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هُويًا ثم نصطنع

فننحر الكوم عبطًا في أرومتنا[١] ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استقادوا فكان الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

(١) الأرومة الأصل.

قال ابن إسحاق[١]: وكان حسان غائبًا فبعث إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال حسان: جاءني رسولُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرني[٢] أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على أنف راض من معد وراغم

منعناه لما حل بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

زاد بعضهم:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالًا عند ذكر المكارم

وإن كنتمُ جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فلا تجعلوا لله ندًا وأسلموا ... ولا تلبَسوا زيًا كزي الأعاجم

فلما انتهيت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقام شاعر القوم فقال ما قال [عرضت في قوله وقلت على نحو ما قال][٣]، فلما فرغ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قم يا حسان فأجب الرجل، فقام حسان فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سننا للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧٨).

(٢) في المخطوط: «فأخبره»، وهو خطأ، والتصويب من سيرة ابن هشام.

(٣) ما بين المعقوفين مثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٧).

سجية [تلك منهم][(١)] غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهمُ من مطمع طبع

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجدٍ بالندى منعوا

أعفَّة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطمعون ولا يرديهم الطمع

إذا نصبنا لحي لم ندبَّ لهم ... كما يدبُّ إلى الوحشية الذَّرَعُ

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ

كأنهم في الوغى والموت مكتنف ... أسْد بحَلْيَة[(٢)] في أرساغها فَدَعُ[(٣)]

خذ ما أتى منهمُ عفوًا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

فإن في حربهم - فاترك عداوتهم - ... شرًا يخاض[(٤)] عليه السُّمُّ والسَّلَعُ

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحتي قلبٌ يؤازره ... فيما أحب لسانٌ حائكٌ صَنَعُ[(٥)]

فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

---

(١) في المخطوط: «منهم تلك»، ويختل به الوزن، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧٩).

(٢) في المخطوط: «جبلة»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٠)، وهي مأسدة بناحية اليمن. معجم البلدان (٢/ ٢٩٧).

(٣) **الفدع**: اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل. القاموس المحيط (ص ٩٦٣).

(٤) في المخطوط: «يخال»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٠)، ويخاض: يُخلط، والسَّلَع: الشجر المر. القاموس المحيط (ص ٨٢٧، ٩٤٢).

(٥) **صَنَع**: بليغ. القاموس المحيط (ص ٩٥٤).

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. ثم أسلموا وجوزهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحسن جوائزهم ورد عليهم نساءهم وأبناءهم.

سرية قطبة بن عامر في سنة تسع

قالوا[١]: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم بناحية تَبالة[٢] [وأمره][٣] أن يشن الغارة، فخرجوا على عشرة أبعرة فاعتقبوها فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثر الجرحى في الفريقين، وقتل قطبة بن عامر من قتل وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة. وفي القصة أن القوم اجتمعوا وركبوا في آثارهم، فأرسل الله سيلًا عظيمًا حال بينهم وبين المسلمين فساقوا النعم والسبي وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا إليهم.

سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب

في ربيع الأول سنة تسع. قالوا: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشًا إلى بني كلاب وعليهم الضحاك بن سفيان بن عوف ومعهم الأصيد بن سلمة، فلقوهم [بالزُّجِّ زُجِّ لاوَةَ][٤]، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم، فلحق الأصيد

---

(١) مغازي الواقدي (٣/ ٩٨١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٢).

(٢) واد فحل ذو قرى ومياه ونخل، يقع جنوب شرقي الطائف على قرابة ٢٠٠ كيل، يسيل من سراة غامد وبلقن، من نواحي الباحة وبلجرشي وما والاهما جنوبًا، ثم يتجه شرقًا فيصب في بيشة، فهو أحد روافد وادي بيشة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٥٩).

(٣) في المخطوط: «وأمرهم»، والتصويب من الطبقات.

(٤) في المخطوط: «بالرخزج»، وهو مصحف، والتصحيح من طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٢-١٦٣). وهو موضع بنجد. انظر: معجم البلدان (٣/ ١٣٢).

أباه سلمة، وسلمة على فرس له في غدير [بالزج][(١)]، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبه وسب دينه، فضرب الأصيد عرقوب فرس أبيه ولما وقع الفرس على عرقوبه ارتكز سلمة على الرمح في الماء ثم استمسك حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتله ابنه.

سرية علقمة بن محرز المدلجي إلى الحبشة

في ربيع الآخر سنة تسع، وقال الحاكم: في صفر.

قال ابن سعد: فلما بلغ[(٢)] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ناسًا من الحبشة نرى أنهم[(٣)] أهل جُدة فبعث إليهم علقمة بن محرز في ثلاثمائة، / [١٧٥] فانتهى إلى جزيرة وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه[(٤)].

ذكر سرية علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى صنم طي ليهدمه

في هذه السنة قالوا[(٥)]: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفُلْس[(٦)]، وهو صنم طي ليهدمه، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموه، وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وكان عدي قد هرب إلى الشام ووجدوا في خزانته ثلاثة أدراع وثلاثة أسياف،

---

(١) في المخطوط: «بالرخرخ»، والتصويب من الطبقات.

(٢) في الطبقات (٢/ ١٦٣): «بلغ» دون قوله: «فلما».

(٣) في الطبقات (٢/ ١٦٣): «ترايا‌هم».

(٤) مغازي الواقدي (١/ ٩٨٢)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٤).

(٦) كان لطيءٍ بجبلي طيء، وهما أجأ وسلمى. انظر: معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٣٧).

واستعمل على السبي أبا قتادة وعلى الماشية [والرِّثَّة][(١)] عبد الله بن عتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله، ولم يقسم آل حاتم حتى قدم بهم.

قال ابن إسحاق[(٢)]: قال عدي بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشد كراهة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مني حين سمعت به، وكنت امرءًا شريفًا، وكنت نصرانيًا، وكنت أسير في قومي بالمرباع، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكًا في قومي. فلما سمعت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرهته، فقلت لغلام لي عربي - كان راعيًا لإبلي-: لا أبا لك، أعد لي من إبلي جمالًا ذللًا سمانًا فاحبسها قريبًا مني، فإذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذني. ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد. قال فقلت: فقرب لي أجمالي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي [ثم قلت][(٣)]: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلفت بنتًا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام[(٤)] أقمت بها، وخالفتني خيل رسول الله فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبايا من طي وقد بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هربي إلى الشام، فمر بها رسول الله فقالت: يا رسول الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة فامنن علي، من الله عليك. فقال: من وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الذي فر من الله ورسوله؟ قالت: ثم

---

(١) في المخطوط: «والمرقة»، والمثبت من طبقات ابن سعد، والرثة: السقط من متاع البيت. القاموس المحيط (ص ٢١٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٨-٣٠١).

(٣) في المخطوط: «ثم ألحق ثم»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٨).

(٤) في المخطوط: «بالشام»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٨).

مضى رسول الله وتركني، فلما كان من الغد مر بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، قالت: حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه، قالت فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك. قال رسول الله: قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني. فسألت عن الرجل الذي أشار إليَّ أن كلميه فقيل: علي بن أبي طالب. فأقمت حتى قدم ركب من طي أو قضاعة. قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت: فجئت رسول الله فأخبرته، فكساني وحملني وأعطاني نفقة.

قال عدي: فأتتني أختي بالشام فقالت: لقد [فعلت][(١)] فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائتِه راغبًا أو راهبًا، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وفلان فأصاب منه. قال عدي: فأتيته وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم. وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قبل ذلك قال: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي. قال فقام بي، فلقيته امرأة ومعها صبي، فقالا: إن لنا إليك حاجة. فقام معهما حتى قضى حاجتهما. فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك. ثم أخذ بيدي حتى أتى داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه.

وعند ابن إسحاق:[(٢)] فتناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه. فقلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: بل أنت. فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض. قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم

(١) في المخطوط: «فعل»، والمثبت من مسند أحمد (٤/ ٣٧٨)، والمعجم الكبير (١٧/ ٩٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٠-٣٠١).

قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسيًا؟ قال: قلت: بلى. قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. قال: قلت: أجل والله، قال: وعرفت أنه نبي مرسل يعرف ما يجهل. ثم قال: يا عدي، لعلك إنما منعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية[(١)] على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم. قال: فأسلمت.

فكان عدي يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، ووالله لتكونن الثالثة؛ ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه. كذا في رواية ابن إسحاق.

وفي رواية غيره بعد قوله: «فجلست بين يديه»: فحمد الله / [١٧٦] وأثنى عليه، ثم قال: ما يضرك أن تقر أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟ قال: قلت: لا. ثم تكلم ساعة، ثم قال: إنما تفر أن يقال: الله أكبر، وهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ قال: قلت: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون. قال: فقلت: فإني حنيف مسلم. فرأيت وجهه منبسطًا فرحًا. قال: ثم أمر بي فأنزلت

(١) تقع القادسية بين النجف والحيرة إلى الشمال الغربي من الكوفة وإلى الجنوب من كربلاء. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٤٨).

عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه آتيه طرفي النهار. قال: فبينا أنا عنده إذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار، قال: فصلى وقام فحثَّ عليهم، ثم قال: أيها الناس ارضخوا[(١)] من الفضل ولو صاعًا، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقي أحدكم وجهه من جهنم أو النار، ولو بتمرة، ولو بشق تمرة، فإن أحدكم لاقٍ الله وقائلٌ له ما أقول لكم: ألم أجعل لك مالًا وولدًا؟ فيقول: بلى. فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدامه وبعده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئًا يقي به وجهه جهنم، ليق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق. قال: فجعلت أقول في نفسي: فأين لصوص طي؟ رواه الإمام أحمد والترمذي[(٢)] وغيرهما بزيادات ونقص.

وفي رواية أحمد: دخلت على رسول الله وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. قال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم. ثم قال: يا عدي، أسلم تسلم. فقلت: إني من أهل دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ فقلت: بلى. قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك. قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها. وذكر نحو ما تقدم.

---

(١) أي: أعطوا وأنفقوا. القاموس المحيط (ص ٣٢١).

(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٧٨)، وجامع الترمذي [٢٩٥٣].

فصل

قالوا: وفي هذه السنة هجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه وقال: ما أنا بداخل عليكن شهرًا، فاعتزل في مشربة له، فنزل لتسع وعشرين ليلة، فبدأ بعائشة، فقالت له: يا رسول الله، كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلةً أعدها عدًا. فقال: الشهر تسع وعشرون. وكان ذلك الشهر تسعًا وعشرين. والقصة في الصحيحين[١].

غزوة تبوك

قالوا: وكانت في رجب من هذه السنة[٢]، وهي آخر غزواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتبوك موضع معروف، وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق[٣]، وهي غزوة العسرة[٤]، والفاضحة لافتضاح المنافقين فيها.

ولعبد الرزاق[٥] عن معمر عن ابن عقيل قال: خرجوا في قلةٍ من الظهر وفي حرٍّ شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر وفي النفقة، فسميت «غزوة العسرة».

وللطبراني[٦] من حديث عمران بن حصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدَّعي النبوة هلك وأصابتهم سنون،

---

(١) البخاري [٢٤٦٨]، ومسلم [١٤٧٩].
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٥)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٢).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ٤٣).
(٤) البخاري [٤٤١٧].
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٩٠)، وابن عقيل هو عبد الله بن محمد بن عقيل.
(٦) المعجم الكبير (١٨/ ٢٣١).

فهلكت أموالهم. فبعث رجلًا من عظمائهم وجهَّز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن للناس قوة وكان عثمان قد جهز عيرًا إلى الشام، فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية. قال: فسمعته يقول: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها».

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كمه حين جهَّز جيش العسرة فنثرها في حجره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأيت رسول الله يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم». خرجه الترمذي، وقال: حسن غريب[(١)].

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة - وكانوا كلهم مسلمين في هذا الوقت - يستنفرهم، وحضَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عنده من المسلمين على الجهاد، وأمرهم بالصدقة فجاؤوا بصدقات كثيرة.

وكان أول من جاء بها أبو بكر، جاء بماله كله، وكان أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير، وجاء طلحة بمال، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء سعد بن عبادة بمال، وجاء محمد بن مسلمة بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقًا من تمر. وبعثت النساء كل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم.

قال ابن إسحاق[(٢)]: فذكر لنا الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر وغيرهم من أصحابنا - وبعض القوم يحدث ما لا يحدث بعض - أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرةٍ من

---

(١) الترمذي [٣٧٠٠، ٣٧٠١].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٥-٢١٦).

الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، حين طابت الثمار والناس يحبون المقام ويكرهون الشخوص على حال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلَّما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يعمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يعمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته. فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / [١٧٧] ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد، هل لك العام في جِلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما مِن رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أني لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله وقال: قد أذنت لك. ففيه نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة:٤٩] الآية[(١)].

وقال قوم من المنافقين: لا تنفروا في الحر، زهادةً في الجهاد وشكًّا في الحق وإرجافًا بالرسول، فأنزل الله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:٨١] الآية.

ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدَّ في سفره، ثم إن رجالًا من المسلمين أتوا رسول الله وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، [وعُلبة][(٢)] بن زيد أحد بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن مغفل المازني، وبعض الناس يقول: هو عبد الله بن عمرو [المزني][(٣)]، وهرمي بن

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٢) في المخطوط: «وغلبة» بالغين، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٩)، والإصابة (٤/ ٥٤٦).
(٣) في المخطوط: «المازني»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٩)، والإصابة (٤/ ١٩٧).

عبد الله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية، فاستحملوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. فتولَّوْا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون[١].

قال: وجاءه المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله. وجاءه المنافقون وهم ثمانون فأذن لهم. ثم استحث برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير في سفره وأجمع السير، وقد كان نفر من المسلمين تخلفوا عنه من غير شكٍّ ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية أخو بني واقف، وأبو خيثمة أخو بني سالم، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم[٢].

فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب عسكره على ثنية الوداع.

قال ابن هشام[٣]: واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وذكر الدراوردي أنه استعمل سباع بن عرفطة.

وخلف رسول الله على أهله علي بن أبي طالب وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالًا [له][٤] وتخففًا منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، قال: كذبوا، ولكني خلفتك

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤١٩-٤٢٣).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٠).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٠-٢٢١).
(٤) في المخطوط: «منه»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢١).

لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في [أهلي][(١)] وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع علي إلى المدينة.

قلت: وفي الصحيح[(٢)] عن سعد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى تبوك واستخلف عليًا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي. انتهى.

فهذا يدل على أنه استخلف عليًا على المدينة كما رجحه ابن عبد البر ، وجزم ابن القيم بأن خلافة علي خاصة على الأهل، وأما الاستخلاف العام فهو لمحمد بن مسلمة كما تقدم[(٣)].

قال ابن إسحاق[(٤)]: ومضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سفره. ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيامًا إلى أهله في يوم حارٍّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطٍ قد رشت كل واحدة عريشها وبردت فيه ماء وهيأت له فيه طعامًا. فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الضحى والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأتين حسناوين في ماله مقيم! ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهيِّئا لي زادًا. ففعلتا. ثم قدم ناضحة فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله فترافقا حتى إذا دنوا

(١) في المخطوط: «في أهلك»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢١).
(٢) البخاري [٤٤١٦]، ومسلم [٢٤٠٤].
(٣) الدرر لابن عبد البر (ص٢٨٨)، وزاد المعاد (٣/ ٥٥٩).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٢-٢٢٤).

من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا فما عليك أن تخلَّف عني حتى آتي رسول الله. ففعل. حتى إذا دنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كن أبا خيثمة. فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل على رسول الله وأخبره خبره. فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له بخير.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مر بالحجر نزلها واستسقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله: لا تشربوا من مائها شيئًا ولا توضؤوا من مائها للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ففعل الناس ما أمرهم رسول الله إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما في حاجة وخرج الآخر في طلب بعير له[١]، فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الذي خرج في طلب بعيره فحملته الريح حتى طرحته في جبل طي، فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ألم أنهكم أن يخرج / [١٧٨] أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟ ثم دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذي أصيب على مذهبه فشفي، وأما الآخر فأهدته طي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قدم المدينة.

وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي حميد: انطلقنا حتى أتينا تبوك، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تهب عليكم ريح شديدة فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله. فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طي.

وفي الصحيحين[٣] عن ابن عمر قال: لما مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجر قال: لا

(١) أصل القصة في البخاري [٣٣٧٨-٣٣٧٩].
(٢) مسلم (٤/ ١٧٨٥) [١٣٩٢].
(٣) البخاري [٣٣٨٠]، ومسلم [٢٩٨٠].

تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين. ثم قنع رأسه وأسرع المسير حتى أجاز الوادي. وفي البخاري أنه أمرهم بإلقاء العجين. وفي مسلم[١] أنه أمرهم أن يعلفوه الإبل وأن يهريقوا الماء وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. ورواه البخاري أيضًا، وقد حفظ راويه ما لم يحفظ الأول.

قال ابن إسحاق[٢]: فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، فقيل لبعض المنافقين: ويحك هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة. حتى إذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها فقال زيد بن [نُصيت][٣]: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن رجلًا قال: هذا محمد يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وأنا والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها. فذهبوا فجاؤوا بها.

ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائرًا فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه. حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه. وتلوَّم[٤] على أبي ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على

(١) مسلم [٢٩٨١].
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٥-٢٢٦) بتصرف.
(٣) في المخطوط: «الصيب»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٦)، والإصابة (٢/ ٦١٩).
(٤) تمهل وتمكث.

ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله فقالوا: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله: كن أبا ذر. فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو أبو ذر. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

قال ابن إسحاق[(١)]: فحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة فأصابه بها قدره لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، قال: فأوصاهما أن غسلاني وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول راكب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله، فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، فأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمَّارًا، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطأها، وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه. فاستهل عبد الله يبكي ويقول: صدق رسول الله، تمشي وحدك وتموت وحدك. ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك.

وقد كان رهط من المنافقين - منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مخشي بن حُمَيِّر - قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأني بكم غدًا مقرنين في الحبال - إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين - فقال مخشي بن حمير:

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٨-٢٢٩).

والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا [ننفلت][(١)] أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمار بن ياسر - فيما بلغني[(٢)] -: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا فسلهم عمَّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى فعلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار فقال لهم، فأتَوْا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، [فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥]][(٣)]، وقال مخشي بن حمير: قعد بي يا رسول الله اسمي واسم أبي، وكان هو الذي عفي عنه في هذه الآية، وتسمَّى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة / [١٧٩] فلم يوجد له أثر.

قلت: روى ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبْتَ ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟! لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم. قال ابن كثير: وقد رواه الليث بن سعد عن هشام بنحوه[(٤)].

(١) في المخطوط: «ننقلب»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٩).
(٢) وصله ابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٨٣١).
(٣) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٠).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٦٣).

فصل

قال ابن إسحاق[١]: فلما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [إلى تبوك] أتاه صاحب أَيْلَة، فصالحه وأعطاه الجزية، [وأتاه][٢] أهل جَرْباء وأَذْرُح - بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدين بالشام بينهما ثلاثة أيام[٣] -، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله كتابًا.

وذكر ابن عائذ في مغازيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل بتبوك في زمانٍ قلَّ ماؤها فيه، فاغترف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غرفة من ماء فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت، فهي كذلك حتى الساعة.

قلت: في صحيح مسلم[٤] عن معاذ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال قبل وصوله إليها: إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي. قال فجئنا وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من مائها، فسألهما رسول الله: هل مسستما من مائها شيئًا؟ قالا: نعم. وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرف من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٠)، وما بين المعقوفين زيادة منه.

(٢) في المخطوط: «وأعطاه»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٠).

(٣) هما اليوم قريتان في الأردن، تقعان شمال غربي مدينة معان على قرابة ٢٢ كيلًا، ومن قال: بين أذرح والجرباء ثلاثة أيام فهو خطأ، ولعله ثلاثة أميال. معجم المعالم الجغرافية (ص ٨١).

(٤) مسلم [٧٠٦].

وذكر البيهقي في الدلائل والحاكم[١] من حديث عقبة بن عامر قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك فاسترقد رسول الله لما كان منها على ليلة، فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قِيدَ رمح، فقال: ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر؟ فقال: يا رسول الله ذهب بي النوم الذي ذهب بك. فانتقل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك المكان غير بعيد ثم صلى، ثم ذهب بقية يومه وليلته.

ثم أصبح بتبوك، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوارفها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدي ما تبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرًا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرًا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما وقر في القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من حر جهنم، والكنز كي من النار، والشعر من مزامير إبليس، والخمر جماع الإثم، وشر المآكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر بآخره، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وسباب المسلم فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألَّ على الله يكذبه،

(١) دلائل النبوة (٥/ ٢٤١)، ولم نقف عليه عند الحاكم.

ومن يغفر يغفر الله له، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به، ومن يتصبر يضعف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله. ثم استغفر ثلاثًا. انتهى.

ولمسلم[١] عن ابن عباس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع بين الصلاتين في غزوة تبوك، فجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال [سعيد][٢]: فقلت لابن عباس: ما حمله على ذلك؟ قال: أراد أن / [١٨٠] لا يحرج أحدًا من أمته.

وله[٣] عن معاذ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك فكان يصلي الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا.

وأخرجه مالك في الموطأ[٤] وزاد: فأخر الصلاة يومًا، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعًا.

وفي رواية أبي داود والترمذي[٥] عن معاذ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر، لكن أعل هذه الرواية جماعة من أئمة الحديث. وذكر البخاري أن بعض الضعفاء أدخلها على قتيبة، حكاه الحاكم في علوم الحديث[٦]. قال ابن عبد البر[٧]: هذا أوضح دليل على من قال لا يجمع إلا إذا جد به السير. انتهى.

---

(١) مسلم [٧٠٥].

(٢) في المخطوط: «شعبة»، وهو تصحيف، وسعيد هو ابن جبير.

(٣) مسلم [٧٠٦].

(٤) موطأ مالك [٩/ ١/ ١٥٦].

(٥) أبو داود [١٢٠٨].

(٦) معرفة علوم الحديث (ص١٨٣-١٨٥).

(٧) التمهيد (١٢/ ١٩٦).

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر دومة ابن عبد الملك بن كندة، كان ملكًا عليها وكان نصرانيًا بدومة الجندل. قال أبو عبيد: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طي، ودومة من قريات من وادي القرى. وذكر أن عليها حصنًا حصينًا يقال له: مارد، وهو حصن أكيدر الملك. فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب وأنمار، وأنا في أناس يسير؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ستلقاه يصيد الوحش أو قال: البقر فتأخذه. فخرج خالد ومن معه، فلما بلغ خالد قريبًا من حصنه بمنظر العين وكانت ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له في الحصن معه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب الحصن، وأشرفت امرأته على باب الحصن، فرأت البقر، فقالت: ما رأيت كالليلة. وفي لفظ: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذه الليلة؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان، فقاتل حتى قتل، وهرب من كان معه ودخل الحصن، وكان على أكيدر قباء مخوص بالذهب، فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله قبل قدومه به عليه[(١)].

وفي الصحيح[(٢)] عن أنس قال: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله، فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجبون منه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا. انتهى.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣١).

(٢) مسلم [٢٤٦٩].

وقال خالد لأكيدر: هل لك على أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله على أن تفتح دومة الجندل؟ قال: نعم، ذلك لك. فلما صالح خالد أكيدرًا وأكيدر في وثاق ومضاد أخو أكيدر في الحصن، أبى مضاد أن يفتح باب الحصن لما رأى أخاه في الوثاق، فطلب أكيدر من خالد أن يصالحه على شيء حتى يفتح له باب الحصن وينطلق به وبأخيه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيحكم فيهم بما شاء، فرضي خالد بذلك، فصالحه أكيدر على ألفي بعير وثلاثمائة فرس، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، ففعل خالد وخلى سبيله، ففتح له باب الحصن، فدخله وأحقن دمه ودم أخيه، فانطلق بهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قد وصل إلى المدينة، فلما قدم بهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صالحه على الجزية وخلى سبيلهما. وكتب لهما كتاب إمارة.

وقال ابن الأثير[(١)]: ومات أكيدر نصرانيًا بلا خلاف بين أهل السير، لأنه بعد المصالحة عاد إلى حصنه وبقي فيه، فحاصره خالد زمن أبي بكر فقتله مشركًا بنقضه العهد.

فصل

فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، وقيل: عشرين ليلة، يصلي بها ركعتين ركعتين، ولم يلق كيدًا[(٢)].

وفي مسند أحمد[(٣)] أن هرقل كتب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني مسلم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كذب وهو على نصرانيته. ولأبي عبيد بسند صحيح[(٤)] نحوه، ولفظه: قال كذب عدو الله، وليس بمسلم.

---

(١) أسد الغابة (١/ ١٣٥)، بمعناه.

(٢) أبو داود [١٢٣٥].

(٣) كذا في الفتح (١/ ٣٧)، ولم نقف عليه في المسند.

(٤) الفتح (١/ ٣٧)، والمواهب (١/ ٣٥٠) من مرسل بكر بن عبد الله.

وفي المواهب اللدنية[١]: كتب رسول الله كتابًا من تبوك إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، رواه ابن حبان في صحيحه[٢] عن أنس. وفي المنتقى[٣]: شاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتقدم والمسير إليهم، فقال عمر: إن كنت أمرت بالمسير فسر، فقال رسول الله: لو أُمِرْتُ ما استشرتكم فيه، فقال عمر: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وأفزعهم دنوك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك / [١٨١] في ذلك أمرًا عظيمًا. فانصرف رسول الله إلى المدينة، ولم يلق كيدًا.

وكان في الطريق ماء يخرج من وشلٍ[٤] يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: وادي المشقق[٥]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سبقنا إلى الماء فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتيه، فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله وقف عليه، فلم ير فيه شيئًا فقال: من سبقنا إلى هذا؟ فقيل: يا رسول الله، فلان وفلان. فقال: ألم أنهكم أن تستقوا منه شيئًا حتى آتيه؟ ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل ووضع يده تحت الوشل، ثم جعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده، ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء كأهول ما سمع من سمعه، أما إن له حسًا كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال

---

(١) المواهب (١/ ٣٥٠).

(٢) الإحسان (١٤/ ٤٩٢) [٦٥٥].

(٣) لم نجده.

(٤) **الوشل**: الماء القليل، والمراد هنا العين قليلة الماء. وانظر: العين (٦/ ٢٨٥).

(٥) قال عاتق البلادي في معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٩٨): «لم أجد من يعرف هذا الاسم بين الحجر وتبوك، غير أن رأس الوادي الأخضر إذا تعلق في الحرة به ماء سرب، وهو على طريق غزوة تبوك، فلعله هو».

رسول الله: لئن بقيتم أو بقي منكم لتسمعن بهذا الطريق وقد أخصب ما بينه وما خلفه[١].

وفي مرجعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك همَّ المنافقون بالفتك به فعصمه الله منهم، ذكره البيهقي في الدلائل[٢] من حديث ابن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة قال: كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوق وعمار يقوده، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكبًا قد اعترضوه فيها. قال: فأنبهت رسول الله فصرخ فيهم فولوا مدبرين، فقال رسول الله: هل عرفتم القوم؟ قلنا: يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكن عرفنا الركاب. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. قال: هل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا. قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيقتلوه بها. قلنا: يا رسول الله، ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال : لا، أكره أن تتحدث العرب أن محمدًا قاتل [بقوم] حتى [إذا] أظهره الله[٣] بهم أقبل عليهم يقتلهم. ثم قال: اللهم ارمهم بالدُّبَيلة. قلنا: يا رسول الله، وما الدبيلة؟ قال: شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم، فيهلك.

ولأحمد[٤] عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله من غزوة تبوك أمر مناديًا، فنادى، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فعقبوا عمارًا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار يضرب وجوه

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٢) دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠-٢٦١).
(٣) في المخطوط: «قاتل القوم حتى أظهره الله»، والمثبت من دلائل النبوة (٥/ ٢٦١).
(٤) المسند (٥/ ٤٥٣).

الرواحل، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد قد، حتى هبط رسول الله، فلما هبط ونزل رجع عمار، فقال: يا عمار، هل عرفت القوم؟ فقال: عرفت الرواحل، والقوم متلثمون. قال: وهل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ويطرحوه. قال: فسارَّ عمار رجلًا من أصحاب النبي، فقال: نشدتك بالله، هل تعلم كم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. قال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فتعذر لرسول الله منهم ثلاثة وقالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. انتهى.

وأعلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة وعمارًا بأسمائهم وما هموا به وأمرهما أن يكتما عليهم، وكان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة:٧٤]: إنها نزلت في أهل العقبة.

قال ابن إسحاق[(١)]: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن عبد الله بن مسعود كان يحدث، قال: قمت من جوف الليل في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدليا إليَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: اللهم إني أمسيت راضيًا عنه فارض عنه. قال: يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٣-٢٣٤).

قال ابن هشام: و إنما سمي ذا البجادين، لأنه كان ينازع الإسلام فيمنعه قومه ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، والبجاد الكساء الغليظ الجافي، فهرب منهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما كان قريبا منه شق بجاده باثنين، فاتزر بواحدة واشتمل بالأخرى، ثم أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل له: ذو البجادين.

قال ابن إسحاق[1]: ثم أقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من / [١٨٢] تبوك ونزل بذي أوان وبينها وبين المدينة ساعة من نهار، جاءه خبر مسجد الضرار من السماء، وذكر غيره أن بني عمرو بن عوف لما اتخذوا مسجد قباء، فبعثوا إلى رسول الله أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوتهم بنو غنم - وكانوا من منافقي الأنصار-، فقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلى رسول الله، فيصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام.

وروى عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ [التوبة:١٠٧] الآية: هم ناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إنا فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ [التوبة:١٠٨] يعني مسجد قباء ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] إلى قوله: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:١٠٩] يعني قواعده ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٦).

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة:١١٠] من الشك ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة:١١٠] يعني بالموت[١]. انتهى.

قال ابن إسحاق[٢]: وقد كان أهل مسجد الضرار أتوا رسول الله وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال رسول الله: إنا على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم، فصلينا لكم فيه.

فلما انصرف رسول الله من تبوك ونزل بذي أوان أتوه المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، فسألوه إتيان مسجدهم، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبرهم وما هموا به، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه.

فخرجوا سراعًا حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهو رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي. فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد فحرقوه وهدموه وتفرق أهله عنه.

ولما دنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ٢٤).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٦).

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[١]

قال في الهدي[٢]: وبعض الناس يهم في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام.

فلما أشرف على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه»[٣].

وفي البخاري[٤] لما رجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تبوك فدنا من المدينة قال: إن في المدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة.

فصل

ولما دخل المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين - كما في حديث كعب بن مالك في الصحيحين[٥] - ثم جلس للناس، فجاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل رسول الله منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله. وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من غير شك ولا نفاق: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه ألَّا يكلموا هؤلاء الثلاثة.

وروى البخاري ومسلم[٦] وغيرهما عن كعب بن مالك قال: ما تخلفت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت في غزوة بدر،

---

(١) خبر تلقي الصبيان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند البخاري [٤٤٢٧].

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٥١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري [٤٤٢٣].

(٥) البخاري [٤٤١٨]، ومسلم [٢٧٦٩].

(٦) المصدر السابق.

وكان غزوة بدر لم يعاتب أحدًا تخلف عنها، وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما خرج يريد عير قريش، فجمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر / [١٨٣] مني حين تخلفت عن تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا لي في تلك الغزوة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا، واستقبل عدوًا كثيرًا، فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم بوجهه الذي يريده، والمسلمون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - وغزا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتجهز المسلمون معه، وغزا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وجعلت أغدو لأتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئًا فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى [بي][(١)] حتى شمر بالناس الجد وأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [غاديًا] والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت فلم أقض شيئًا، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى [بي] حتى أسرعوا وتفارط الغزو.

فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت ولم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله فطفت فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه

(١) في المخطوط: «به».

بالنفاق، أو رجلًا ممن عذره الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرًا، فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه قافلًا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله غدًا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أظلَّ قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه.

وأصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادمًا المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله وبايعهم واستغفر لهم، حتى جئت فسلمت عليه، فلما سلمت عليه تبسم تبسُّم المغضب ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا ولكني والله قد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أما هذا][1] فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

(١) سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام.

وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما اعتذر به المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة[1] - ولم يذكر ابن إسحاق في روايته قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة - فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، وكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في / [١٨٤] الأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله وهو في مجلسه فأسلم عليه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل علي، فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة الناس مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت له فناشدته فسكت، فعدت له فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤١)، وسيأتي التعليق من المصنف على هذا الكلام.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك». فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك. قال: فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت - زاد ابن إسحاق: وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سَلْع[1] فكنت أكون فيها - فسمعت صوت صارخ

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤٣).

أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون. وركض رجل إلي فرسًا وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتلقاني الناس فوجًا فَوْجًا يهنئوني بالتوبة يقولون: ليهنئك توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، ووالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث منذ

ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

وأنزل الله على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١١٧] إلى قوله: ﴿ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]. وقال كعب: فوالله ما أنعم الله علي نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله يومئذ أن أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة:٩٥] الآيتين.

قال كعب: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله / [١٨٥] حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه بذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة:١١٨]. وليس الذي ذكر الله من تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل عنه. انتهى.

وقوله: «فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا» قال في الهدى[(١)]: هذا الموضع مما عد من أوهام الزهري، فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازي والسير البتة ذكر هذين الرجلين في أهل بدر، لا ابن إسحاق ولا ابن عقبة ولا الواقدي. وكذلك ينبغي ألاَّ يكونا من أهل بدر، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يهجر حاطبًا ولا عاقبه وقد جس عليه، وأين ذنب التخلف عن ذنب الجس؟ قال أبو الفرج ابن الجوزي: ولم أزل حريصًا على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهري

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٧٧).

وفضله وحفظه وإتقانه وأنه لا يكاد يحفظ عليه غلط إلا في هذا الموضع، وهذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه إنسان.

فصل

قالوا: ولما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك وجد عويمر العجلاني امرأته حبلى فلاعن عَلَيْهِ السَّلَامُ بينهما، كما ثبت ذلك في الصحيحين[١] وغيرهما.

قالوا: وفيها رجم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغامدية، وذلك أنها جاءته فقالت: يا رسول الله قد زنيت وأنا أريد أن تطهرني. فقال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارجعي. ثم أتته من الغد فقالت أيضًا، وقالت بعد الغد أيضًا وقالت: يا رسول الله فلعلك تردني كما رددت ماعز بن مالك، فوالله إني لحبلى من الزنا. فقال لها: ارجعي حتى تلدين.

فلما ولدت جاءت بالصبي [فقال لها: ارجعي بالصبي حتى تفطميه، فلما فطمته جاءت بالصبي][٢] في يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله، هذا فطمته. فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين، وأمر بها فحفر لها حفرة فجعلت فيها إلى صدرها ثم أمر الناس أن يرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبَّهُ إياها فقال: مهلًا يا خالد، لا تسبَّها، فوالذي نفس محمد بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. فأمر بها فصلى عليها ودفنت[٣].

---

(١) البخاري [٥٣٠٨]، ومسلم [١٤٩٢].

(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) مسلم [١٦٩٥].

قالوا: وفي هذه السنة توفي النجاشي ملك الحبشة في الغرب، واسمه أصحمة، وهو الذي هاجر إليه المسلمون، فنعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه وخرج إلى المصلى وصف أصحابه خلفه وكبر عليه أربع تكبيرات كما ثبت ذلك في الصحيحين[(١)]، وتقدم ذلك عند ذكر هجرة الحبشة. وروي أنه رفع الحجاب حتى رآه الصحابة على سريره بالحبشة و هم بالمدينة و روي أنه لا يزال يُرى على قبره نور.

وفيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت عثمان بن عفان، فحزن عليها حزنًا شديدًا فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها يا عثمان. وجلس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على قبرها وعيناه تدمعان وقال: هل منكم أحد لم يقارف الليلة أهله؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: انزل، فنزل في قبرها أبو طلحة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري[(٢)].

وفيها مات عبد الله بن أبي رأس المنافقين، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشهده وصلى عليه وألبسه قميصه. ولما قام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصلي عليه وثب إليه عمر وقال: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا، وعدد قوله، فتبسَّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: أخر عني يا عمر. فلما أكثر عليه قال: إني خيرت فاخترت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها. فصلى عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة:٨٤] الآيتان، قال عمر: فعجبت من جرأتي على رسول الله يومئذ، والله ورسوله أعلم[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البخاري [١٣٤٢].

(٣) البخاري [١٢٦٩، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢، ٥٧٩١]، ومسلم [٢٧٧٤].

وعن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله عبد الله بن أبي بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبته فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه، وكان كسا عباسًا قميصًا لما أتي به يوم بدر ولم يكن عليه ثوب، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه كساه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه فلذلك ألبسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قميصه[١]، قال ابن عيينة: كانت له عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يد فأحب أن يكافئه عليها[٢].

وفي هذه السنة قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك سنة تسع، وهم الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قيل ذي رعين، وهمدان، ومعافر. ورسولهم إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالك بن مرة الرهاوي.

قال الواقدي: بعث زرعة ذو يزن إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالك بن مرة بإسلام ملوك حمير ومفارقتهم الشرك وأهله، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسيره إلى تبوك يقول: إني بشرت بالكنزين فارس والروم، وأمددت بالملوك ملوك حمير يأكلون في الله ويجاهدون في سبيل الله، فلما قدم مالك بن مرة بإسلامهم كتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله النبي، / [١٨٦] إلى الحارث بن عبد كلال وإلى النعمان بن قيل ذي رعين ومعافر وهمدان. أما بعد، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنه وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قلتم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة

(١) البخاري [١٣٥٠].
(٢) البخاري [٣٠٠٨].

وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي [و]ما كتب على المؤمنين من الصدقة -وبيَّن لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم. ثم قال -: فمن زاد فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم. ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار وافٍ من قيمة المعافر أو عرضه ثيابًا، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله. أما بعد، فإن محمدًا النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن: إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة وأصحابهم، وإنَّ ما جمعوا عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم فأبلغوها رسلي، وإن أميرهم [معاذ] بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيًا. أما بعد فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله، وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد [حدثني][(١)] أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيرًا، ولا تخاونوا ولا تخاذلوا، إن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم. وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكى بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، وإن مالكًا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيرًا، وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم، وآمركم بهم خيرًا، فإنه منظور إليهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهذا ما ذكره ابن إسحاق[(٢)] من شأن ملوك حمير وما كتبوا به وما كتب إليهم.

---

(١) بياض في المخطوط أثبتناه من سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٣).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٢-٣١٣).

وفي هذه السنة في ذي القعدة بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر على الحج. ذكره ابن سعد[١] وغيره بسند صحيح عن مجاهد، ووافقه عكرمة بن خالد. وقال قوم: في ذي الحجة، وبه قال [الداودي][٢] والماوردي ومحمد بن سعد. ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بعدما رجع من تبوك رمضان وشوالًا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر على الحج، فيكون حجه في ذي الحجة. والله أعلم[٣].

ثم حج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العام القابل في ذي الحجة، وذلك حين قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجته تلك: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٤]. وذلك أن العرب كانوا يستعملون النسيء فيؤخرون [المحرم][٥] إلى صفر، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور فيستدير التحريم على السنة كلها، روي نحو هذا عن مجاهد.

قال ابن كثير في تفسيره[٦]: وقول مجاهد فيه نظر. وأيضًا كيف تصح حجة [أبي بكر] في ذي القعدة وأنى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ [التوبة:٣] الآية. وإنما نودي ذلك في حجة أبي بكر، فلو لم يكن في ذي الحجة لما قال الله: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾. ولا يلزم من فعلهم النسيء الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل عام شهرًا،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٨).
(٢) في المخطوط: «الدراوردي»، والمثبت من فتح الباري (٧/ ٦٨٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ٦٨٣).
(٤) البخاري [٣١٩٧].
(٥) في المخطوط: «الحج»، وهو خطأ.
(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١).

فإن النسيء حاصل بدون هذا، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عامًا عوضوا صفرًا وبعده ربيعًا وربيع الآخر والسنة حالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفرًا وربيعًا وربيعًا الآخر إلى آخرها، فيحلونه عامًا [ويحرمونه عاما][(١)] ليواطئوا عدة ما حرم الله أي في تحريمه أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسوئه إلى صفر أي يؤخرونه.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الزمان قد استدار كهيئته...» إلى آخره فهو تقرير منه وتثبيت للناس على ما جعله الله لهم في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا نقص ولا نسيء ولا تبديل، كما قلا في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال هاهنا: «إن الزمان قد استدار» الخ، أي الأمر شرعًا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السماوات والأرض. انتهى كلامه[(٢)].

قال ابن إسحاق[(٣)]: ثم أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج / [١٨٧] من سنة تسع ليقيم للناس حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين، قال في المواهب[(٤)]: وكان معه ثلاثمائة رجل من المدينة وعشرون بدنة.

(١) ما بين المعقوفين من تفسير ابن كثير.
(٢) أي الحافظ ابن كثير في تفسيره.
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٣).
(٤) المواهب اللدنية (١/ ١٧٦).

قال ابن إسحاق[١]: ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه: أن لا يصد عن البيت أحدٌ جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهدَ ما بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين قبائل العرب خصائص إلى آجال مسماة، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في غزوة تبوك وفي قول من قال منهم، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، منهم من سمي لنا ومنهم من لم يسم لنا.

قال ابن إسحاق[٢]: وكانت براءة في زمان رسول الله ومن بعده تسمى المبعثرة لما كشفت سرائر الناس.

قال: وحدثني حكيم بن حكيم بن عبادة بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي أنه لما نزلت براءة على رسول الله قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب فقال: اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته. فخرج علي على ناقة رسول الله العضباء، حتى أدرك أبا بكر الصديق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور. ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج[٣].

وللنسائي[٤] عن جابر قال: كنا مع أبي بكر في حجته، فلما كان بالعرج ثوب بالصبح، فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره، فوقف عن التكبير فقال:

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٦٦).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٦).
(٤) السنن الكبرى (٥/ ٢٣٤).

هذه رغوة ناقة رسول الله الجدعاء، لقد بدا لرسول الله في الحج، فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه، فإذا هو علي عليها، فقال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ فقال: لا بل رسول، أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببراءة أقرؤها على الناس في موقف الحج. فقدمنا مكة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدَّثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر فأفضنا، فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم. فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون، يعلمهم مناسكهم. فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر ألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[(١)]. ثم أردف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة، فأذن معنا في أهل منى ببراءة ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال: فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع مشرك[(٢)]. فأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر المشركين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة:٢٨] الآية.

(١) البخاري [٣٦٩، ٤٦٥٦].

(٢) البخاري [٣١٧٧].

وفي رواية للبخاري[(١)]: فكان حميد بن عبد الرحمن يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر، من أجل حديث أبي هريرة.

وقال الحميدي: حدثنا سفيان، حدثني أبو إسحاق الهمداني، عن زيد بن يثيع قال: سألنا عليًا بأي شيء بعثت في الحج؟ قال: بعثت بأربع، قال: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع كافر ومؤمن في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر»[(٢)].

قال في الهدي[(٣)]: واختلف في حجة الصديق هل هي التي أسقطت الفرض أو المسقطة هي حجة الوداع مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قولين، أصحهما الثاني. والقولان مبنيان على أصلين: أحدهما هل كانت حجة الصديق في ذي الحجة أو وقعت في ذي القعدة من أجل النسيء الذي كان أهل الجاهلية يؤخرون له الأشهر. والثاني قول مجاهد وغيره. وعلى هذا فلم يؤخر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحج بعد فرضه عامًا واحدًا، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فرض فيه، وهذا هو الأليق بهديه وحاله، وليس بيد من ادعى تقدم فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمان دليل واحد، وغاية ما احتجوا به قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦]، وهي نزلت بالحديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، إنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه، وآية فرض الحج هي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران:٩٧] الآية وهي نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع. انتهى. والله أعلم. / [١٨٨]

(١) البخاري [٤٦٩٧].
(٢) مسند الحميدي [٤٨].
(٣) زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).

فصل

في قدوم وفود العرب وغيرهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وقد كان ابتداء الوفود بعد رجوعه[١] عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجعرانة آخر سنة ثمان وما بعدها.

وقال ابن إسحاق[٢]: لما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعته ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام[٣]: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى «سنة الوفود».

وقال ابن إسحاق[٤]: وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم وقادة العرب، لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلافه. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدخلوا في دين الله كما قال عَزَّ وَجَلَّ أفواجًا. فقدم عليه وفد هوازن وهو بالجعرانة كما تقدم. وقدم عليه وفد ثقيف وتقدم ذلك أيضًا. وقدم عليه وفد بني تميم وتقدم ذلك أيضًا.

---

(١) في المخطوط: «بعد رجوعه بعد قدومه».
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧٣).
(٣) المصدر السابق.
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧٣-٢٧٤).

وقدم عليه وفد بني عامر بن صعصعة، وفيهم عامر بن الطفيل عدو الله، [وأربد بن قيس بن خالد بن جعفر][(١)] أخو لبيد الشاعر لأمه، [وجبار][(٢)] بن أسلم بن مالك. وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم، فأقبل عدو الله عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقيل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوه، إن يرد الله به خيرًا يهده. فأقبل حتى قام عليه فاستشرف له الناس لجمال عامر، وكان من أجمل الناس، فقال: يا محمد، ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. فقال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال: ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء. قال: فاجعلني على الوبر وأنت على المدر. قال: لا. قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك إلى اليوم؟

وكان عامر قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني شاغل عنك وجهه فإذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف. فدار أربد ليضربه فاخترط من سيفه شبرًا، ثم حبس الله يده على سيفه، فلم يقدر على سله، فعصم الله نبيه. فالتفت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرأى أربد وما يصنع بسيفه فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت.

فلما خرجوا من عند رسول الله قال لأربد: أين ما أمرتك به؟ قال: ويحك والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا وحُلْتَ بيني وبينه، أفأضربك بالسيف؟ فأرسل الله على أربد وعلى جمله صاعقة فأحرقته[(٣)]، وكان أربد أخا لبيد لأمه فبكاه ورثاه، ومما قال:

(١) في المخطوط: «وأربد بن قيس أخو لبيد الشاعر لأمه، وخالد بن جعفر» بالتفريق بين أربد وخالد، وهو خطأ، وإنما هو رجل واحد، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٤)، وليس فيه: «أخو لبيد الشاعر لأمه».

(٢) في المخطوط: «حبان»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤)، والثابت في الصحيح أنه مات بالطاعون، كما في البخاري [٤٠٩١]، والفتح (٧/ ٤٤٧).

أخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والأسد
ما إن تُعدِّي المنونُ من أحد ... لا والد مشفق ولا ولد
فجَّعني الرعد والصواعق بالـ ... ـفارس يوم الكريهة النُّجُد
يا عين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد

وقال:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلْف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يُرَجَّى خيرهم ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان كل أخ كضوء الكوكب

قال ابن عبد البر[1]: ومما يستجاد قوله في قصيدة يرثي بها أخاه قوله:

أعاذلُ ما يدريك ألا تظننا ... إذا رحل السُّفَّار من هو راجع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع؟
لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى ... ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يعود رمادًا بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مضمرات من التقى ... وما المال إلا معمرات ودائع

قال ابن إسحاق[2]: وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣].

وفي رواية: قال عامر: والله لأربطن بكل نخلة فرسًا. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يمنعك الله من ذلك، وأبناء قيلة، يعني الأوس والخزرج.

(١) الاستيعاب (٣/ ١٣٣٧).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٨٦).

وفي صحيح البخاري[(١)] أن عامرًا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال؛ يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء. فطُعن في بيت امرأة فقال: أغدة / [١٨٩] كغدة البعير في بيت امرأة من بني فلان؟ ايتوني بفرسي، فركب، فمات على ظهر فرسه.

وقدم وفد عبد القيس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي قبيلة كبيرة ينتسبون إلى عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

وفي الصحيحين[(٢)] عن ابن عباس أن وفد عبد القيس قدموا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ممن القوم؟ فقالوا: من ربيعة. قال: مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى. فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة. فقال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس. وأنهاكم عن أربع: الدباء والحنتم والنقير والمزفت. فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم.

زاد مسلم: قالوا: يا رسول الله ما علمك بالنقير؟ قال: بلى، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر، ثم تصبون عليه الماء حتى يغلي، فإذا سكن شربتموه، فعسى أحدكم أن يضرب ابن عمه بالسيف. وفي القوم رجل به ضربة من ذلك. قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله. قالوا: ففيم نشرب يا رسول الله؟ قال: اشربوا في

---

(١) البخاري [٤٠٩١].

(٢) البخاري [٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦]، ومسلم [١٧].

أسقية الأدم التي تلاث على أفواهها. قالوا: يا رسول الله، إن أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى بها أسقية الأدم. قال: وإن أكلتها الجرذان (مرتين أو ثلاثًا). ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأشج عبد القيس: إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة. قال في الهدي[١]: وفي هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه الخصال من القول والعمل كما على ذلك أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعون وتابعوهم كلهم. ذكره الشافعي في المبسوط. وعلى ذلك ما يقارب مائة دليل من الكتاب والسنة. وفيها أنه لم يعدَّ الحج من هذه الخصال. وكان قدومهم في سنة تسع، وهذا أحد ما يحتج به على أن الحج لم يكن فرض بعد، وأنه إنما فرض في العاشرة، لأنه لو فرض لعده.

وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد [بني][٢] حنيفة، فيهم مسيلمة الكذاب. قال ابن إسحاق[٣] عن شيخ من أهل اليمامة: إن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له مكانه، فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبًا لنا في رحالنا وركابنا. فأمر له رسول الله بما أمر للقوم وقال: أما أنه ليس بشركم مكانًا، يعني حفظه ضيعة أصحابه. ثم انصرفوا وجاءوه بالذي أعطاه، فلما قدم اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ، وقال: إني أشركت في الأمر معه، ألم يقل لكم حين ذكرتموني: إنه ليس بشركم مكانًا. ثم جعل يسجع السجعات: فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين شغاف وحشى، ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا»، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله أنه نبي. فأصفقت معه بنو حنيفة على ذلك.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٠٧).

(٢) سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٥-٢٩٦)، وأصح منه ما جاء في الصحيحين كما سيذكره المؤلف وينبه عليه.

وقد كان كتب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، وليس قريشًا قوم يعدلون. فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب، وكتب إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. فكان في آخر سنة عشر.

وفي الصحيحين[(١)] عن ابن عباس قال: لما قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته. وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإن أراك الذي رأيت فيه ما رأيت[(٢)]، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني. ثم انصرف.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنك الذي رأيت فيه ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، فهذان أحدهما العنسي [صاحب] صنعاء، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة.

وهذا أصح من حديث ابن إسحاق المتقدم.

❁ ❁ ❁

(١) البخاري [٤٣٧٣]، ومسلم [٢٢٧٣، ٢٢٧٤].

(٢) في صحيح البخاري [٤٣٧٣]: «وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت».

وقدم وفد طي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلَّمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ذكر لي رجل من العرب / [١٩٠] بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه. ثم سماه «زيد الخير»، وأقطعه فَيْدًا[(١)] وأرضين معه وكتب له بذلك.

وخرج من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن ينج زيد من حمى المدينة - فإنه [قال: قد سماها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسم غير الحمى وغير أم ملدم، فلم يثبته][(٢)] -. فلما انتهى إلى ماءٍ من مياه نجد يقال له: فَرْدَة[(٣)] أصابته الحمى فمات.

كذا ذكر ابن إسحاق. قال ابن عبد البر[(٤)]: وقيل: مات في آخر خلافة عمر.

وفي رواية: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا زيد، تقتلك أم ملدم، يعني الحمى، فلما رجع إلى أهله حُمَّ ومات. وله ابنان حريث ومكنف أسلما وصحبا رسول الله وشهدا قتال أهل الردة[(٥)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد كندة سنة عشر. قال ابن إسحاق[(٦)]: حدثني ابن شهاب أنهم قدموا في ثمانين أو ستين راكبًا من كندة فيهم الأشعث بن قيس، فدخلوا عليه مسجده وقد

(١) اسم موضع في الطريق من الكوفة إلى مكة، وتقع فيد جنوب حائل، وكانت على الحدود بين طيء وبني أسد، طيء شمالها وأسد جنوبها. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٤٠).
(٢) سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩٧).
(٣) هو قبل فَيد مما يلي المدينة، تبدأ بعد الحرار المتصلة بخيبر، وبعد صدور وادي الرمة. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٣٦).
(٤) الاستيعاب (٢/ ١٢٧، ١٢٨).
(٥) طبقات ابن سعد (١/ ٣٢١).
(٦) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٤١).

تسلحوا جباب الحبرات[١] مكفوفة بالحرير، فلما دخلوا قال رسول الله: أولم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: فما هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه ونزعوه فألقوه.

وفي المسند[٢]: عن الأشعث بن قيس قال: قدمنا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد كندة ولا يرون إلا أني أفضلهم، قلت: يا رسول الله ألستم منا؟ قال: لا، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا. فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى رجلًا من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد.

قال في الهدي[٣]: وفيه من الفقه أن من كان من ولد النضر فهو من قريش. وفيه جواز إتلاف المال المحرم استعماله كثياب الحرير على الرجال، وأن ذلك ليس إضاعة. وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدة من كندة مذكورة، وهي أم كلاب بن مرة، وإياها أراد الأشعث. وفيه أن من انتسب إلى غير أبيه فقد انتفى من أبيه، وقفا أمه أي رماها بالفجور. وفيه أن كندة ليسوا من ولد النضر بن كنانة. وفيه أن من أخرج رجلًا من نسبه المعروف جلد حد القذف.

❁ ❁ ❁

قال ابن إسحاق[٤]: وقدم فروة بن مسيك المرادي مفارقًا لملوك كندة ومباعدًا لها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رسول الله: هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ فقال: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوؤه ذلك؟ فقال له رسول الله: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا. واستعمله على مراد

(١) كذا في المخطوط، وفي سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٧): «وقد رجَّلوا جممهم، وتكحَّلوا، عليهم جُبُ الحبرات».

(٢) المسند (٥/ ٢١٢).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦١٨)

(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠١-٣٠٣).

وزبيد ومذحج كلها. وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله.

وقد كان بين مراد وهمدان وقعة قبل الإسلام أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم في يومٍ كان يقال له: يوم الردم، وفي ذلك يقول فروة بن مسيك:

مررن على لُفاتَ وهُنَّ خُوص ... ينازعن الأعنة ينحنينا[1]
فإن نغلب فغلاَّبون قِدمًا ... وإن نغلب فغير مغلَّبينا
وما إن طِبُّنا جُبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال ... تكرُّ صروفه حينا فحينا
فبينا ما نُسَرُّ به ونرضى ... ولو لبثت غضارته سنينا
إذا انقلبت به كرات دهر ... وألفيت الألى غُبِطوا طحينا
فمن يُغبَط بريب الدهر منهم ... يجد ريب الزمان له خؤونا
فلو خلد الملوك إذنْ خلدنا ... ولو بقي الكرام إذن بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا

❁ ❁ ❁

وقدم عمرو بن معديكرب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أناس من زبيد فأسلم، ثم رجع إلى قومه فأقام فيهم وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتد عمرو بن معديكرب ثم رجع إلى الإسلام وقتل في قتال العجم زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

❁ ❁ ❁

(١) كذا في المخطوط، وفي سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٢): «ينتحينا».
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٤-٣٠٦) بتصرف.

وقدم على رسول الله الأشعريون وأهل اليمن، روى يزيد بن هارون عن حميد عن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبًا، فقدم الأشعريون فجعلوا يترجزون:

غـــدًا نـلـقـى الأحـبـه محـمـدًا وحـزبـه[1]

ولمسلم[2] عن أبي هريرة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوبًا، الإيمان يمان والحكمة يمانية، السكينة في أهل الغنم، والخيلاء في الفدادين أهل الوبر قِبَل مطلع الشمس.

وفي البخاري[3] عن عمران [أن] نفرًا من بني تميم جاؤوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أبشروا يا بني تميم. فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجاءه نفر من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد قبلنا. ثم قالوا: يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر. فقال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء. انتهى.

وليس أراد / [١٩١] اجتماع الأشعريين وأهل اليمن في الوفادة، فإن الأشعريين قدموا مع أبي موسى سنة سبع في فتح خيبر، وقدوم هؤلاء كان سنة الوفود سنة تسع، ولهذا اجتمعوا مع بني تميم.

❁ ❁ ❁

وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صُرَد بن عبد الله الأزدي، فأسلم وحسن إسلامه في وفد من الأزد، فأمَّره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من أسلم من قومه، وأمره

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٨٢).
(٢) مسلم [٥٢].
(٣) البخاري [٣١٩١، ٣١٩٠، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٧٤١٨]. وما بين المعقوفين منه.

أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج يسير بأمر رسول الله حتى نزل بِجُرَش[(١)]، وهي يومئذ مدينة مغلقة وبها قبيلة من قبائل العرب. قال: فدنت إليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين، فحاصروهم قريبًا من شهر وامتنعوا فيها فرجع عنهم قافلًا، حتى إذا كان في جبل لهم يقال له: [شكر][(٢)] ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزمًا فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلًا شديدًا.

وقد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشية بعد العصر إذ قال رسول الله: بأي بلاد الله شكر؟ فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له: [كَشْر]، وكذلك يسميه أهل جرش. فقال: إنه ليس [بكشر][(٣)] ولكنه شَكْر. قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن. قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان فقال لهما: ويحكما إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينعى لكما قومكما، فقوما فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما. فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: اللهم ارفع عنهم.

فخرجا من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا في اليوم الذي قال فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال وفي الساعة التي ذكر فيها

---

(١) مدينة عظيمة كانت قائمة إلى القرن الرابع، ثم اندثرت وتوجد آثارها اليوم قرب خميس مشيط. معجم المعالم الجغرافية (ص ٧٩).

(٢) في المخطوط: «سكن»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٠).

(٣) في المخطوط في الموضعين: «كسر» بالسين، والمثبت من سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٠). وهو جبل قرب خميس مشيط مثل جُرش، وكلاهما شرقي أبها إلى الشمال على نحو من ٣٠ كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٦٤).

ما ذكر، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم. ذكره ابن إسحاق في السيرة[١].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد بني الحارث بن كعب. قال ابن إسحاق[٢]: ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه. قال: فقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، فكتب إلى رسول الله بذلك، فكتب إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أقبل ويقبل معك وفدهم. فأقبل وأقبل معه وفدهم، منهم قيس بن الحصين ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المُحَجَّل وعبد الله بن قراد وشداد بن عبد الله. وقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بم كنتم تغلبون من قاتلتم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم. قال: صدقتم، وأمر عليهم قيس بن الحصين فرجعوا إلى قومهم فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ ❁ ❁

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٠٩-٣١١).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٧).

وقدم وفد همدان. منهم مالك بن النمط ومالك بن أيفع وضمام بن مالك وعمرو بن مالك، فلقوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية، ومالك بن النمط يرتجز بين يدي رسول الله يقول:

همدان خير سوقة وأقيال ... ليس لها في العالمين أمثال

محلها الهضب ومنها الأبطال ... لها إطابات بها وآكال

ويقول الآخر:

إليك جاوزن سواد الريف ... في هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال الليف

وذكروا له كلامًا كثيرًا حسنًا فصيحًا، فكتب لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه وأمر عليهم مالك بن النمط، وقال مالك بن النمط شعرًا:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ... ونحن بأعلى رَحْرَحان وصَلْدَد[(١)]

وهن بنا خوص طلائح تغتلى ... بركبانها في لاحب متمدد[(٢)]

على كل فَتلاء الذراعين جَسْرَةٍ[(٣)] **... تمر بنا مرَّ الهجيف**[(٤)] **الخفيدد**

حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادرًا بالركبان من هضب قَرْدَد[(٥)]

---

(١) رحرحان جبل شرقي المدينة على قرابة ١٢٠ كيلًا، إذا وقفت في بلدة الحناكية رأيت رحرحان مطلع الشمس إلى الجنوب قليلًا. وصلدد أراه تحريف من صِنْدَد، وهو جبل غير معروف اليوم، لكنه من شرقي المدينة. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٣٨-١٣٩).

(٢) **خوص**: غؤور العين، طلائح: النوق التي جهدها السير وهزلها. تغتلي: تسرع. لاحب: طريق واضح.

(٣) ناقة طويلة ضخمة. لسان العرب (٤/ ١٣٦).

(٤) في سيرة ابن هشام (٤/ ٣٢٦): «الهجفِّ». والهجف النعام، والخفيدد السريع.

(٥) قردد من نخلة اليمانية على قرابة ٦٠ كيلًا من مكة المكرمة. معجم المعالم الجغرافية (ص٢٥٣).

بـأن رسـول الله فـينـا مـصـدق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتدي
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبـرَّ وأوفـى ذمـةً مـن محـمـد
وأعطى إذا ما طالِبُ العُرْفِ جاءه ... وأمـضـى بحـد المشـرفيِّ المهند[١]

وروى البيهقي[٢] بسند صحيح عن ابن إسحاق[٣] أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بن الوليد إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام، قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا. ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علي بن أبي طالب فأمره أن يقفل خالدا إلا رجلًا ممن كان مع خالد أحب أن يعقب مع علي فليعقب معه.

قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما [دنونا][٤] من القوم خرجوا إلينا / [١٩٢] فصلى بنا علي ثم صفنا صفًّا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلمت همدان جميعا. فكتب علي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتاب خرَّ ساجدًا ثم رفع رأسه وقال: السلام على همدان، السلام على همدان.

وأصل الحديث في صحيح البخاري[٥].

ولأحمد وأبي داود والترمذي[٦]: [عن علي][٧] قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٢٣-٣٢٧) بتصرف.
(٢) الدلائل (٥/ ٣٩٦).
(٣) كذا في المخطوط والمطبوع، والصواب: «عن أبي إسحاق»، وهو السبيعي.
(٤) في المخطوط: «دنوا»، والمثبت من دلائل البيهقي.
(٥) البخاري [٤٣٤٩].
(٦) مسند أحمد (١/ ١٥٦).
(٧) سقط من المخطوط، والمثبت من مصادر التخريج.

إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم أسنَّ منى وأنا حديث السن لا أبصر القضاء. قال: فوضع يده في صدري وقال: اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، وقال: يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر.. الحديث، انتهى.

❁ ❁ ❁

وقدم وفد مزينة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. روى البيهقي[١] عن النعمان بن مقرن قال: قدمنا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر زود القوم، فقال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا. قال: انطلق فزودهم. قال: فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية، فلما دخلنا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأروق فأخذ القوم منه حاجتهم، قال النعمان: وكنت في آخر من خرج فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

❁ ❁ ❁

وقدم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد نجران سنة عشر.

قال ابن إسحاق[٢]: وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد نجران بالمدينة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [دخلوا عليه مسجده فقاموا في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلون][٣] فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

قال: وحدثني يزيد بن سفيان عن ابن السلماني عن كرز بن علقمة قال: قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد نصارى نجران ستون راكبا معهم أربعة وعشرون

(١) الدلائل (٥/ ٣٦٦).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).
(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٧).

رجلا من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب [مدراسهم][(١)]. وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجهوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى جنبه أخٌ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره إذ عثرت بغلة أبي حارثة فقال له كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله، فقال أبو حارثة: بل أنت تعست. فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله إنه للنبي الأمي الذي ينتظرونه. فقال له كرز: فما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى. فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة [عن][(٢)] ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيا. فتنازعوا فأنزل الله فيهم: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ

(١) في المخطوط: «مدارسهم»، والمثبت من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٥).
(٢) سقط من المخطوط.

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [آل عمران:٦٥] إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨]. فقال رجل من الأحبار: أتريدنا يا محمد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيس بن مريم؟ وقال رجل من النصارى: وذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: معاذ الله أن أعبد غير الله وآمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [آل عمران:٧٩] إلى قوله: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠]، ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه وإقرارهم بذلك على أنفسهم فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران:٨١].

وحدثني محمد بن سهل بن أبي أُمامة قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله يسألونه عن عيسى بن مريم نزل فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها انتهى[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: وكانوا مختلفين في أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة. وكذلك قولهم في النصرانية، فهم يحتجون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين / [١٩٣] كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس، ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله بأنهم يقولون: لم يكن له أب وقد تكلم في المهد شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم. ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحدا ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم. ففي ذلك من قولهم نزل القرآن.

(١) لم يورده ابن هشام في سيرته، ولم نجده في المطبوع من سيرة ابن إسحاق.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٧-٢٥٩).

فلما كلمه الحبران قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أسلما. قالا: قد أسلمنا. قال: إنكما لم تسلما، فأسلِما. قالا: قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه؟ فصمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهما فلم يجبهما.

فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:١-٢] فاستفتح السورة في تنزيه نفسه عما قالوا وتوحيده إياها بالخلق والأمر والإلهية رادا عليهم ما ابتدعوه من الكفر، ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الذي لا يموت وقد مات عيسى وصلب [في قولهم][1]، ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ على مكانه من سلطانه في خلقه لا يزول وقد زال عيسى وصلب قي قولهم عن مكانه الذي كان به وذهب عنه إلى غيره.

إلى قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ [آل عمران:٦] [أي قد كان عيسى ممن صور][2] - لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه - كما صور غيره من ولد آدم، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل؟! ثم قال تنزيهًا لنفسه وتوحيدًا لها مما جعلوا معه: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦] في انتصاره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في حجته وعذره إلى عباده. ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] حجة للرب وعصمة للعباد ودفع للخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تأويل. ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران:٧] ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، ولا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق. يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ

(١) سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٨).
(٢) زيادة من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٨).

زَيۡغٞ ﴾ [آل عمران:٧] أي ميل عن الهدى ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ أي ما تصرف [منه][(١)] لتكون لهم الحجة فيما ابتدعوا وأحدثوا ولهم على ما قالوا شبهة. ﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ﴾ أي اللبس، ﴿ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ ذلك أي على ما ركبوا من الضلالة، ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ ﴾ أي الذي أراده [...][(٢)]، ﴿ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾. فكيف يختلف وهو قول واحد من رب واحد؟ ثم ردوا تأويل المتشابهة على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد واتفق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت به الحجة وظهر به العذر وزاح الباطل ودمغ به الكفر. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ في مثل هذا ﴿ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

إلى قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [آل عمران:٥٩-٦٠] ما جاءك من الخبر عن عيسى، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [آل عمران:٦٠] أي قد جاءك الحق من ربك فلا تمترين فيه وإن قالوا: خلق عيسى من غير ذكر فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر، [فكان][(٣)] كما كان عيسى لحماً ودمًا وشعرًا وبشًرا، فليس خلق من غير ذكر بأعجب من هذا. ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [آل عمران:٦١] أي من بعد ما قصصت عليك من خبره وكيف كان أمره، ﴿ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦١-٦٢]. قال ابن هشام[(٤)]: قال أبو عبيدة: نبتهل ندعو باللعنة، وقال غيره: أي ثم نجتهد في الدعاء.

(١) بياض في المخطوط، والاستدراك من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٩).
(٢) بياض في المخطوط، وفي سيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٩): «أي: الذي أرادوا به ما أرادوا».
(٣) سقط من المخطوط، والمثبت من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥).

قال ابن إسحاق[(١)]: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الخبر الذي جئت به عن عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ من أمر الله، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٢-٦٤]. فدعاهم إلى النَّصَف وقطع عنهم الحجة.

فلما أتى رسول الله الخبر [من][(٢)] الله عنه والفصل في القضاء بينهم وبينه وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك.

وروى الحاكم[(٣)] بإسناده أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى أهل نجران: باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام، فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه [فظع][(٤)] به وذعر ذعرًا شديدًا، فبعث به إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب، فدفع الأسقف كتاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه فقرأه فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، [فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة][(٥)] رأي، فلو كان من أمر الدنيا أشرت

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥).
(٢) في المخطوط: «عن»، والتصويب من سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥).
(٣) دلائل البيهقي (٥/ ٣٨٥-٣٩١) عن شيخه الحاكم.
(٤) في المخطوط: «قطع»، وهو تصحيف، والتصويب من دلائل البيهقي.
(٥) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من الدلائل (٥/ ٣٨٦).

عليك فيه برأي وجهدت لك فيه، فقال الأسقف: تنح فاجلس، ثم دعا الأسقف رجلا آخر منهم [يقال: له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير] فقال له مثل قول شرحبيل، فبعث إلى آخر منهم [يقال له جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب][(١)]، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، / [١٩٤] فلما اجتمع الرأي على تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت المسوح في الصوامع، وكذلك يفعلون إذا نزل فزع بالنهار، وإن كان فزعهم ليلًا ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبد الله وجبار بن فيض الحارثي، فيأتونهم بخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر شرحبيل مجيئهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسؤالهم له عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأصبح الغد وقد أنزل الله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران:٥٩] إلى قوله: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٦١]، فأبوا ان يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله بعد الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملًا على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة فقال: شرحبيل إن كان هذا الرجل نبيًا مرسلًا فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع، فهات رأيك. فقال: رأيي أن أحَكِّمه، فإني أرى رجلًا لا يحكم شططًا أبدًا. فقال له: أنت وذاك، فلقي شرحبيل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إني رأيت خيرًا من

(١) سقط من المخطوط، والمثبت من الدلائل.

ملاعنتك، فقال، وما هو؟ فقال شرحبيل: حكمك، ومهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول الله ولم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه، فكتب لهم هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران، إذ كان عليهم حكمه: في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلةٍ في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة وكل حلة أوقية ما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقي فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بحساب، وعلى نجران مثواة رسلي [ومتعتهم][1] ما كانوا عشرين فدونه، ولا يحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد باليمن، ذو معذرة وما هلك، مما أعاروا رسولي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولي حتى يؤديه إليهم، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة النبي على أنفسهم وسكنهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وأن لا يغيروا ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أساقفهم ولاراهب من رهبانهم، ولا وقه من وقهيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم دية ولا دم جاهلية، ولا [يحشرون] ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم [حقا فبينهم][2] النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربًا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلى [ما] في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين[3] بظلم،

(١) في المخطوط: «منعهم»، والمثبت من الدلائل (٥/ ٣٨٩).
(٢) سقط من المخطوط، والمثبت من الدلائل (٥/ ٣٨٩).
(٣) في الدلائل: «غير مثقلين».

شهد أبو سفيان وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة وكتب.

حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أمه وهو ابن عمه من النسب يقال له: بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله إلى الأسقف، فبينما هو يقرأه وأبو علقمة معه وهما يسيران، إذ كَبَتْ ببشر ناقتُه، فتعَّس بشر، غير أنه لا يكني عن رسول الله فقال له الأسقف عند ذلك: قد والله تعست نبيًا مرسلًا، فقال بشر: لا جرم، والله لا أحُلُّ عنها [عقدًا][1] حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهم عني إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافةَ أن يقولوا إنا أخِذنا حمقةً أو بخعنا لهذا الرجل بما لم تبخع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا، فقال له بشر: لا والله، لا [أقبل][2] ما خرج من رأسك، فضرب بشر ناقته وهو مول ظهره للأسقف وهو يقول:

إليك تعدو قلقا وضينها ... معترضا في بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها

حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يزل أبو علقمة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى استشهد بعد ذلك. ودخل الوفد نجران.

وروى البخاري[3] عن حذيفة قال: جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا

(١) من الدلائل (٥/ ٣٩٠).

(٢) في المخطوط: «أقيلك»، والمثبت من الدلائل.

(٣) البخاري [٣٧٤٥، ٤٣٨٠، ٤٣٨١]، ومسلم [٢٤٢٠].

فلاعناه لن نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: قم / [١٩٥] يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا أمين هذه الأمة.

وله أيضًا عن ابن عباس: قال أبو جهل: إن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانا[(١)]، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجعوا لا يجدون أهلًا ومالًا. انتهى[(٢)].

وفي ذلك من الفقه:

مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، ووقع ذلك لجماعة من العلماء ودعوا إليها سلفًا وخلفا ومما عرفت بالتجربة أن من باهل لو كان مبطلا لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة.

وفي القصة أيضًا:

أن من عظم مخلوقًا فوق منزلته التي يستحقها بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة فقد أشرك وعبد مع الله غيره، وذلك مخالف لجميع دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم[(٣)].

وقول ابن إسحاق: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علي بن ابي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم، فقد يظن أنه كلام متناقض، لأن

(١) البخاري [٤٩٥٨].

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٤٨) بهذا اللفظ.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٤٢)، وبعده بياض في المخطوط قدر ستة أسطر تقريبًا.

الصدقة والجزية لا يجتمعان وأشكل منه ما ذكره هو وغيره أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، وقد تقدمت القصة عند ذكر وفد بني الحارث بن كعب وتقدم في قصة أهل نجران أنهم وفدوا وصالحوه على ألفي حلة، وجواب هذا أن أهل نجران كانوا صنفين نصاري وأميين فصالح النصارى على ما تقدم، وأما الأميون منهم فبعث إليهم خالدا فأسلموا وقدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفدهم وهم الذين قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بم كنتم تغلبون من قاتلكم ....الخ.

فقوله: بعث عليًا إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، أراد به الطائفتين من أهل نجران؛ صدقات من أسلم منهم وجزية النصارى[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد دوس وكان قدومهم عليه بخيبر[(٢)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملًا للروم.

قال ابن إسحاق[(٣)]: وبعث فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا بإسلامه وأهدى إليه بغلة بيضاء، وكان عاملا للروم على ما يليهم من العرب وكان منزله معان فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم صلبوه وقتلوه، وزعم الزهري أنهم لما قدموه ليقتلوه قال:

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٥، ٦٤٦).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٩١).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٣١٥-٣١٦) بتصرف.

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

❁❁❁

وقدم وافد بني سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة. ففي صحيح البخاري[(١)] عن أنس بن مالك أنه قال: بينما نحن جلوس مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد إذ دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكيء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكيء، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي: قد أجبتك، قال الرجل: إني أسائلك ومشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك، فقال: سل عما بدا لك. قال: أسالك بربك ورب من قبلك: آلله أرسك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم، فقال: نشدتك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال: نشدتك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا وتقسمها على فقرائنا؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

قال ابن إسحاق[(٢)] وحدثني محمد بن الوليد عن كريب عن ابن عباس قال: بعث بنو سعد بن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر نحو ما تقدم، وزاد: قال: فإني أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من / [١٩٦] هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم نعم، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام: فريضة الصلاة

(١) البخاري [٦٣].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩١-٢٩٣) بتصرف.

والزكاة والصيام والحج وفرائض الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: إني أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ولا أزيد ولا أنقص ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ولى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة، وكان ضمام رجلًا جلدًا أشقر ذا غذيرتين، ثم أتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه يا ضمام؟ اتق البرص والجذام والجنون، فقال: ويلكم، إنهما ما يضران ولا ينفعان، وإن الله قد بعث رسولًا وقد أنزل عليه كتابا استنقذكم مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإني جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا. قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام بن ثعلبة.

وذكره الحج في هذه القصة يدل على أن قدوم ضمام كان بعد فرض الحج، وهذا بعيد فالظاهر أن هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة والله أعلم[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد طارق بن عبد الله وقومه، وفي رواية ابن إسحاق قال طارق: ثم دخلنا المدينة فدخلنا المسجد فإذا هو قائم على المنبر يخطب، فأدركنا من خطبته وهو يقول: «تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك». إذ أقبل رجل من بني يربوع أو قال من الأنصار

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٨).

فقال: يا رسول الله [إن] لنا في هؤلاء [دمًا][(١)] في الجاهلية، فقال: إن أما لا تجني على ولد (ثلاث مرات)[(٢)].

❁❁❁

وقدم وفد تجيب سنة تسع وهم من السكون ثلاثة عشر رجلا قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ردوها فاقسموها على فقرائكم، فقالوا: يا رسول الله، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما وفد العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان، وسألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكتب لهم بها وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله فيهم رغبة، وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر بلالا، فأجازهم بأرفع ما كان يجيز فيه الوفود، قال: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا، قال: أرسلوه إلينا، فجاء الغلام فقال: يا رسول الله إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، إنى والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسال الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فقال رسول الله: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ووافوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن [بنو أبذى][(٣)]، فقال: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟ قالوا: يا رسول الله ما رأينا

(١) في المخطوط: «أما»، وهو تصحيف، وما بين المعقوفين في الموضعين مثبت من سيرة ابن إسحاق.
(٢) سيرة ابن إسحاق (ص٢٣٣).
(٣) في المخطوط: «بنو أيدى»، والمثبت من زاد المعاد (٣/ ٦٥١)، وليست هذه اللفظة في الطبقات.

مثله قط ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها، فقال: الحمد لله، إني لأرجو أن يموت جميعًا، فقال رجل منهم: أو ليس الرجل يموت جميعا يا رسول الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله في أيها هلك، قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام في قومه، فذكرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحد، وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه حين بلغه حاله وما قام به، فكتب إلى زياد بن أسد يوصيه به خيرًا[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد بني سعد هذيم بن قضاعة في سنة تسع، وهم من أهل اليمن[(٢)]، وقدم وفد بني فزارة سنة تسع. قال أبو الربيع ابن سالم في كتاب الاكتفاء[(٣)]: ولما رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلًا، فيهم خارجة بن / [١٩٧] حصن والحر بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن وهو أصغرهم، فنزلوا في دار بنت الحارث وجاءوا رسول الله مقرين بالإسلام، وهم مسنتون على ركاب عجاف، فسألهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وغرث عيالنا، فادع لنا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٣٢٢-٣٢٤).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣٢٣).
(٣) انظر: الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣٣٦).

ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك وليشفع ربك إليك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سبحان الله، سبحان الله، ويلكم، إنما شفعت إلى ربي عَزَّ وَجَلَّ، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه لا اله إلا هو العظيم، وسع كرسيه السماوات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرَّحل الجديد، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الله ليضحك من شفقتكم وأَزْلِكم وقرب غياثكم. فقال الأعرابي: يا رسول الله! ويضحك ربنا؟ فقال: نعم، فقال الأعرابي: لن نعدم من رب يضحك خيرًا، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله، وصعد المنبر، فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا رَفْعَ الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه وكان مما حفظ من دعائه: اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئًا مريعًا طبقًا[1] واسعًا عاجلاً غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق. اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين[2].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد بني أسد على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة رهط وفيهم وابصة بن معبد وطليحة بن خويلد ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس في المسجد مع أصحابه، فتكلموا فقال متكلمهم: يا رسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثًا ونحن لمن وراءنا. قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ

(١) كذا في المخطوط، وفي الاكتفاء: «طيبا»، وفي طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٧): «مطبقا». المريع: الخصيب. وطبقًا: كثيرًا. لسان العرب (٨/ ٣٣٤، ١٠/ ٢١٠).

(٢) نقله المؤلف عن زاد المعاد (٣/ ٦٥٣، ٦٥٤)، وانظر: سنن أبي داود [١١٧٦] و[١١٦٩].

إِسۡلَٰمَكُم﴾ [الحجرات:١٧] الآية وكان مما سألوا رسول الله عنه يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله، فقالوا: أرأيت خصلة واحدة بقيت؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخط. قال: علمه نبي من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد بَهراء من اليمن سنة تسع وكانوا ثلاثة عشر رجلًا ونزلوا على المقداد بن عمرو، وأقاموا أيامًا وتعلموا الفرائض، ثم ودعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر لهم بالجوائز وانصرفوا إلى بلادهم[(٢)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد عُذرة في سنة تسع وكانوا اثني عشر رجلا، منهم حمزة بن النعمان فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من القوم؟ فقال متكلمهم: ممن لا تنكر: نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه نحن الذين عضدوا قصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مرحبا بكم وأهلا، ما أعرفني بكم فأسلموا، وبشرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح الشام وهروب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد أجيزوا[(٣)].

❁ ❁ ❁

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٢).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣٣١)، وزاد المعاد (٣/ ٦٥٥).
(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٣١١)، وزاد المعاد (٣/ ٦٥٧).

وقدم وفد بَلِيٍّ في ربيع الأول سنة تسع، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار ثم ودعوا رسول الله بعد أن أجازهم وقال له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله إنى رجل في رغبة من الضيافة، فهل لي في ذلك أجر، قال: نعم وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة، قال: يا رسول الله كم وقت الضيافة؟ قال: ثلاثة أيام، ما كان بعد ذلك فصدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد ذي مرة وكانوا ثلاثة عشر ورئيسهم الحارث بن عوف فقال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف البلاد؟ فقالوا: والله، إنا لمسنتون، فادع الله لنا فقال: اللهم اسقهم الغيث ثم أقاموا أيامًا ورجعوا بالجائزة ووجدوا بلادهم قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد خولان في شعبان سنة عشر، وكانوا عشرة مسلمين، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟ قالوا: أبدلنا الله ما جئت به إلا أن عجوزًا وشيخًا كبيرًا يتمسكان به وإن قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله، ثم أعلمهم فرائض

---

(١) سياق ابن سعد في الطبقات يختلف عما أورده المؤلف هنا، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٦٥٧-٦٥٨).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٧).

الدين وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة وحسن الجوار، وأن لا يظلموا ثم أجازهم ورجعوا إلى قومهم وهدموا الصنم[(١)].

❁❁❁

وقدم وفد محارب عام حجة الوداع، وكانوا أفظ العرب وأغلظهم عليه أيام عرضه [نفسه] على القبائل يدعوهم إلى الله فجاءه منهم عشرة فأسلموا ثم انصرفوا إلى أهليهم[(٢)].

❁❁❁

وقدم وفد صُداء في سنة ثمان، / [١٩٨] فأسلموا وهم خمسة عشر رجلًا، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله منهم مائة رجل في حجة الوداع، ذكره الواقدي[(٣)].

❁❁❁

وقدم وفد غَسَّان في شهر رمضان سنة عشر، وكانوا ثلاثة نفر فأسلموا وأجازهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانصرفوا راجعين وقالوا: لا ندري، أيتبعنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك فلقي أبا عبيدة فأخبره بإسلامه فكان يكرمه[(٤)].

❁❁❁

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٣٢٤).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٩)، وزاد المعاد (٣/ ٦٦٤)، وما بين المعقوفين منه.
(٣) رواه ابن سعد عن شيخه الواقدي (١/ ٣٢٦).
(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٣٣٠)، وزاد المعاد (٣/ ٦٦٩).

وقدم وفد سَلامان في شوال سنة عشرٍ كما قال الواقدي، وهم ستة عشر نفرًا[١] فأسلموا وشكوا إليه جدب بلادهم فدعا لهم ثم ودعوه وأمر لهم بالجوائز فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه تلك الساعة[٢].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد بني عَبْس فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ولنا أموال ومواش، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: اتقوا الله حيث كنتم، فلن يَلِتكم[٣] من أعمالكم شيئًا وسألهم رسول الله عن [خالد][٤] بن سنان، هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت وأنشأ رسول الله يحدث أصحابه عن خالد بن سنان فقال: نبي ضيعه قومه[٥].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد عامر - كما قال الواقدي - وكان عشرة، فأقروا بالإسلام وكتب لهم كتابًا فيه شرائع الإسلام، وأمر أبي بن كعب فعلمهم قرآنًا وأجازهم عَلَيْهِ السَّلَامُ وانصرفوا[٦].

❁ ❁ ❁

وقدم وفد الأزد سنة عشر، ذكر أبو نعيم في معرفة الصحابة والحافظ أبو موسى المديني من حديث أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني قال: حدثني

(١) كذا في المخطوط، وفي طبقات ابن سعد والزاد: «سبعة نفر».
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣٣٢)، وزاد المعاد (٣/ ٦٦٩-٦٧٠).
(٣) أي: ينقصكم. لسان العرب (٢/ ١٠٨).
(٤) في المخطوط: «حسان»، والمثبت من طبقات ابن سعد.
(٥) طبقات ابن سعد (١/ ٢٩٥).
(٦) طبقات ابن سعد (١/ ٩٥).

علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال: حدثني أبي عن جدي سويد بن الحارث قال: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما دخلنا عليه وكلمناه وأعجبه ما رأى من سمتنا وزينا فقال من أنتم: قلنا مؤمنون، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قلنا: خمس عشرة خصلة: خمسًا أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نفعل بها، وخمسا تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها الآن إلا أن تكره منها شيئا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها؟ قالوا: أمرتنا أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت. قال: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤدي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا. قال: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضاء بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء. ثم قال: وأنا أزيدكم خمسا، فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تاكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون. فانصرف القوم من عند رسول الله وحفظوا وصيته وعملوا بها[(١)].

❁ ❁ ❁

وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد بني المنتفق. روى الإمام عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه قال: كتب إليَّ إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مصعب بن

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٧٩).

الزبير الزبيري كتبت إليك هذا الحديث، وقد عرضته وسمعته على ما كتبت به إليك، فحدث به عني قال: حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي حدثنا عبد الرحمن بن عياش الأنصاري عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلي عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر قال دلهم: وحدثنيه أبي الأسودُ بن عبد الله عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج وافدًا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق، قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيبًا، فقال: يا أيها الناس، ألا إنى قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام لتستمعوا اليوم، ألا فهل من امرئ بعثه قومه؟ فقالوا: اعلم لنا ما يقول رسول الله، ألا ثَمَّ، لعله يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضال، ألا إني مسؤول، هل بلغت؟ ألا اسمعوا تعيشوا، ألا اجلسوا. فجلس الناس، وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده ونظره قلت: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فضحك لعمرو الله، وعلم أني أبتغي السقط، فقال: ضن ربُّك بمفاتيح خمس من الغيب، لا يعملها إلا الله - وأشار بيده - فقلت: ما هن يا رسول الله؟ فقال: علم المنية، قد علم متى منيةُ أحدكم، ولا تعلمونه، وعلم / [١٩٩] المني متى يكون في الرحم، قد علمه ولا تعلمونه، وعلم ما في غد قد علم ما أنت طاعم، ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث يشرف عليكم أزلين مشفقين فيظل يضحك وقد علم أن غِيَرَكم إلى قريب، قال لقيط: فقلت: لن نعدم من رب يضحك خيرًا يا رسول الله. قال: وعلم الساعة.

قلت: يا رسول الله، علمنا مما تعلم الناس وتعلم، فإنا من قبيل لا يصدق تصديقنا أحد من مذحج التي تربو علينا وخثعم التي توالينا وعشيرتنا. قال: تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم، ثم تبعث الصائحة، فلعمر إلهك، ما تدع على ظهرها شيئًا إلا

مات، والملائكة الذين مع ربك عَزَّوَجَلَّ، فأصبح ربك عَزَّوَجَلَّ يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء بهضبان[١] عند العرش، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يخلفه عند رأسه، فيستوي جالسًا فيقول ربك: مهيم؟ لما كان فيه فيقول: يا رب أمس، اليوم؟ لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهله.

فقلت: يا رسول الله فكيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟ قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الأرض أشرفت عليها وهي مدرة بالية، فقلت: لا تحيا أبدًا، ثم أرسل الله عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أيامًا حتى أشرفت عليها وهي شَرَبة واحدة، ولعمر إلهك، لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض، فتخرجون من الأصواء من مصارعكم فتنظرون إليه وينظر إليكم.

قال: قلت: يا رسول الله، فكيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الشمس والقمر آية منه صغيرة، ترونهما ويريانكم ساعة واحدة، ولا تضامون في رؤيتهما، قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ فقال: تعرضون عليه باديةً له صفحاتكم لا تخفى عليه خافية منكم، فيأخذ ربك غرفة بيده من ماء، فينضح بها قبلكم، فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحد منكم قطرة، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء[٢]، وأما الكافر فتخطمه بمثل الحميم الأسود، ثم ينصرف نبيكم ويقفو على أثره الصالحون، فيسلكون جسرًا من النار، يطأ أحدهم الجمرة، يقول: حَسْ، يقول ربك عَزَّوَجَلَّ: أوانه.

---

(١) أي: بمطر. القاموس المحيط (ص ١٨٤).

(٢) الريطة كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج واحد أو قطعة واحدة. القاموس المحيط (ص٨٦٣).

ألا فتطلعون على حوض نبيكم على أظمأ - والله - ناهلةٍ قط ما رأيتها، فلعمر إلهك، ما يبسط أحدكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى وتُخْنَس الشمس والقمر، فلا ترون منهما واحدًا. قال قلت: يا رسول الله فبم نبصر؟ قال: بمثل بصرك ساعتك هذه، وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقت[(١)] الأرض وواجهته الجبال.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نجزى من حسناتنا وسيئاتنا؟ قال: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها إلا أن يعفو الله. قال: قلت: يا رسول الله ما الجنة والنار؟ قال: لعمر إلهك إن النار لها سبعة أبواب، ما منها بابان إلاَّ يسير الراكب بينهما سبعين عامًا، وإن للجنة ثمانية أبواب، ما منها بابان إلاَّ يسير الراكب سبعين عامًا قال: قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: [على] أنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون. وخير من مثله معه وأزواج مطهرة.

قلت: يا رسول الله، أَوَلنا فيها أزواج، أومنهن مصلحات؟ قال: المصلحات للمصلحين. وفي لفظ: الصالحات للصالحين، تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا، غير أن لا توالد. قال لقيط: فقلت: يا رسول الله، فأقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه؟ قال: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[(٢)]. قلت: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما أبايعك؟ فبسط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده: [وقال:][(٣)] على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك وأن لا تشرك بالله إلهًا غيره.

---

(١) في المخطوط: «أشرقته»، والمثبت من مسند أحمد (٤/ ١٤).

(٢) في مسند أحمد بدل هذا الجواب: «لم يجبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) ما بين المعقوقين سقط من المخطوط، والتصويب من مسند الإمام أحمد (٤/ ١٤).

قال: قلت يا رسـول الله، وإن لنا ما بين المشرق والمغرب؟ فقبض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظن أني مشترط ما لا يعطينيه. قال: قلت: نحل منها حيث شئنا، وأن لا يجني على امرئ إلا نفسه. فبسط يده وقال: ذلك لك، تحل حيث شئت، ولا يجني عليك إلا نفسك. قال: فانصرفنا عنه.

ثم قال: ها إن ذين - مرتين - من أتقى الناس في الأولى والآخرة. فقال له كعب بن الخدارية أحد بني بكر بن كلاب: من هم يا رسول الله؟ قال: بنو المنتفق بنو المنتفق بنو المنتفق، أهل ذلك منهم. قال: فانصرفنا وأقبلت عليه، فقلت: يا رسول الله، هل لأحد ممن مضى من خير في الجاهلية؟ فقال رجل من عُرض قريش: والله إن أباك المنتفق لفى النار. فكأنه وقع حر بين جلد وجهي ولحمه مما قال لأبي على رؤوس الناس، فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأخرى أجمل فقلت: يا رسول الله وأهلك؟ قال: وأهلي لعمرو الله، ما أتيت عليه من قبر عامريٍ أو قرشيٍ أو دوسيٍ قل: أرسلني إليك محمد، فأبشر بما يسوؤك، تجر على وجهك وبطنك في النار. قال: قلت: يا رسول الله وما فعل بهم ذلك، وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذلك بأن الله بعث في آخر كل سبع أُمم نبيًا، فمن عصى نبيه كان من الضالين، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين.

قال ابن القيم[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا حديث كبير جليل تنادي عليه جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة، لا يعرف إلا من حديث عبدالرحمن ابن المغيرة بن عبدالرحمن المديني، رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة [ثقتان][(٢)] محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث / [٢٠٠]

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٧٧).

(٢) في المخطوط: «ثقات»، والمثبت من الزاد.

محمد بن إسماعيل البخاري، رواه أئمة السنة في كتبهم، وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد، ولم يطعن أحد منهم فيه، ولا في أحد رواته.

قال أبو عبد الله ابن منده[(١)]: وقد رواه بالعراق بمجمعٍ من العلماء وأهل الدين جماعة من الأئمة، منهم أبو زرعة الرازي وأبو حاتم وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ولم ينكره أحد ولم يتكلم في إسناده، بل رووه على سبيل القبول والتسليم، ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة. هذا كلام ابن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «تهضب» أي تمطر، و«الأصواء» القبور، و«الشربة» بفتح الراء: الحوض الذي يجتمع فيه الماء، وبالسكون: الحنظلة، يريد أن الماء قد كثر، فمن حيث شئت شربت. وعلى رواية السكون يكون قد شبه الأرض بخضرتها بالنبات بخضرة الحنظلة واستوائها.

وقوله: «حس» هي كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما يحرقه على غفلة أو يؤلمه على غفلة. قال الأصمعي: وهي مثل أواه.

وقوله: «يقول ربك: أوانه» قال ابن قتيبة: فيه قولان: أن يكون «إنه» بمعنى «نعم»، والآخر أن يكون الخبر محذوفًا، كأنه قال: أنتم كذلك أوانه على ما يقول.

و«الطوف» الغائط. وفي الحديث: «لا يصلي أحدكم وهو يدافع الطوف والبول»[(٢)].

و«الجسر» الصراط. وقوله: «مهيم» أي: ما شأنك، وما أمرك، وفيم كنت؟

قوله: «أزلين» الأزل بسكون الزاي الشدة، والأزل على وزن كتف هو الذي أصابه الأزل والشدة حتى كاد أن يقنط.

---

(١) نقله ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٦٧٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٤٥٢).

وقوله: «فيظل يضحك» هو من صفات أفعاله سبحانه التي لا يشبهه فيها شيء من مخلوقاته كصفات ذاته.

وقوله: «حتى يُخلِفه من عند رأسه» هو من أخلف الزرع إذا نبت بعد حصاده، شبَّه النشأة بعد الموت بإخلاف الزرع بعدما حصد، وتلك الخلفة من عند رأسه كما ينبت الزرع.

وقوله: «يقول: يا رب أمس اليوم» استقلالًا لمدة لبثه في الأرض، وكأنه لبث فيها يومًا فقال: أمس، أو بعض يوم فقال: اليوم، يحسب أنه حديث عهد بأهله وإنما فارقهم أمس أو اليوم.

وقوله: «على أظمإ والله ناهلة قط» الناهلة العطاش الواردون للماء، أي يردونه أظمأ ما هم عليه.

وقوله: «وتخنس الشمس والقمر» أي: يختفيان ويخنسان ولا يريان. الإخناس التواري والاختفاء.

وقوله: «ما بين البابين [مسيرة] سبعين عامًا» يحتمل أن يريد به أن بُعد ما بين الباب الأول هذا المقدار، ويحتمل أن يريد بالبابين المصراعين، ولا يناقض هذا ما جاء من تقديره بأربعين عامًا لوجهين: أحدهما أنه لم يصرح به رواية بالرفع، بل قال: ولقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين أربعون عامًا، والثاني أن المسافة تختلف باختلاف سرعة السير وبطئه.

وقوله: «أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه» لا جواب لهذه المسالة لأنه إن أراد أقصى مدة الدنيا وانتهائها فلا يعلمه إلا الله، وإن أراد أقصى ما نحن منتهون إليه بعد دخول الجنة والنار فلا تعلم نفس أقصى ما تنتهي إليه من ذلك، وإن كان الانتهاء إلى نعيم أو جحيم، ولهذا لم يجبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله في عقد البيعة: «وزيال الشرك» أي مفارقته ومعاداته، فلا يجاوره ولا يواليه كما في الحديث الذي في السنن: «لا تراءى ناراهما» يعني المسلمين والمشركين.

وقوله: «حيثما مررت بقبر كافر فقل: أرسلني إليك محمد» هذا إرسال تقريع وتوبيخ لا تبليغ أمر ونهي. وفيه دليل على سماع أهل القبور كلام الأحياء وخطابهم لهم، ودليل على أن من مات مشركًا فهو في النار، وإن مات قبل البعثة؛ لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم، واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه، وليس معهم حجة من الله به، وقبحُهُ والوعيدُ عليه بالنار لم يزل معلومًا من دين الرسل كلهم، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرنًا بعد قرن، فلله الحجة البالغة على المشركين. اهـ[(١)].

❁❁❁

وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد النخع، وهم آخر الوفود قدومًا عليه في نصف المحرم سنة احدى عشرة في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف ثم جاءوا رسول الله مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث معاذًا إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعري، كل واحد منهما على مخلاف. قالوا: واليمن مخلافان ثم قال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تخالفا، وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم / [٢٠١] إليه شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٧٣-٦٨٦).

فقرائهم، فإن أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس[(١)].

والمخلاف بكسر الميم وسكون المعجمة وآخره فاء بلغة أهل اليمن: الكورة والإقليم. وروي أنه قال له: «يا معاذ، إنك تقدَم على قوم أهل كتاب وإنهم سائلوك عن مفاتيح الجنة، فأخبرهم أن مفاتيح الجنة «لا اله إلا الله» وأنها تخرق الحجب حتى تنتهي إلى الله، ولا تحجب دونه، من جاء بها يوم القيامة مخلصًا رجحت بكل ذنب»، فقال معاذ: أرايت ما سئلت عنه واختصم إليَّ فيه مما ليس في كتاب ولم أسمع منك سنة؟ فقال: تواضع يرفعك الله ولا تقضين إلا بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسل ولا تستحي واستشر ثم اجتهد، فإن الله إن يعلم من قلبك الصدق يوفقك، فإن التبس عليك فقف حتى تنتبه أو تكتب إلي فيه واحذر الهوى فإنه قائد الأشقياء إلى النار وعليك بالرفق». وفي رواية أنه قال له لما بعثه إلى اليمن: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. [قال:] فإن لم تجد في كتاب الله؟ [قال:][(٢)] فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدره، وقال: الحمد لله الذي سدد رسول رسول الله لما يرضي رسول الله». رواه الترمذي وأبو داود والدارمي[(٣)].

وللبخاري[(٤)] أن أبا موسى قال: يا رسول الله، إن أرضنا بها شراب من شعير المزر وشراب من العسل البتع، فقال: كل مسكر حرام. فانطلقا، فقال معاذ لأبي

(١) البخاري [١٤٩٦]، ومسلم [١٩].
(٢) سقط لفظ «قال» في كلا الموضعين من المخطوط، والمثبت من مصدري التخريج.
(٣) جامع الترمذي [١٣٢٧]، وسنن أبي داود [٣٥٩٢]، وسنن الدارمي (١/ ٧٢) [١٦٨].
(٤) البخاري [٤٣٤٣، ٤٣٤٤].

موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائما وقاعدا وعلى راحلتي، وأتفوقه تفوقًا، قال: أما أنا فأقوم وأنام، وأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، فضرب فسطاطًا، فجعلا يتزاوران، فزار معاذ أبا موسى، فإذا رجل موثق، فقال: ما هذا؟ فقال أبو موسى: يهودي أسلم ثم ارتد، فقال معاذ: لأضربن عنقه. انتهى.

رجعنا إلى حديث الوفد، فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو: يا رسول الله إني رأيت في سفري هذا عجبًا، قال: وما رأيت؟ قال: رأيت أتانًا تركتها في الحي كأنها ولدت جديًا أسفع أحوى[(١)]. فقال له رسول الله: هل تركت لك امرأةً مصرة على حمل؟ قال: نعم. قال: فإنها ولدت لك غلامًا وهو ابنك. قال: يا رسول الله، ما باله أسفع أحوى؟ قال: ادن مني. فدنا منه، فقال: هل بك من برص تكتمه؟ قال: والذي بعثك بالحق ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك. قال: يا رسول الله، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان[(٢)]. قال: ذلك ملك العرب إلى حسن زيه وبهجته. قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزًا شمطاء خرجت من الأرض. قال: تلك بقية الدنيا. قال: ورأيت نارًا خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو وهي تقول: لظى لظى، بصيرًا أعمى، أطعموني آكلكم أهلكم ومالكم. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تلك فتنة تكون في آخر الزمان. قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال: يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق [الرأس][(٣)]، وخالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصابعه، يحسب المسيء فيها أنه محسن، يكون دم المؤمنين

---

(١) أي: أسود ليس بشديد السواد. النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٦٥).

(٢) الدملج الحجر الأملس. والمَسْك: الأسورة والخلاخيل من الذبل والقرون والعاج، واحدته مسكة. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٧٦، ١٠/ ٤٨٦).

(٣) في المخطوط: «الرايص»، والمثبت من مصادر التخريج.

عند المؤمن أحلى من شرب الماء. إن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أدركها ابنك. قال: يا رسول الله ادع الله أن لا أدركها. فقال له رسول الله: اللهم لا يدركها. فمات وبقي ابنه، وكان ممن خلع عثمان، والله أعلم[(١)].

فصل

قالوا: وفي هذه السنة سنة تسع بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذي الخلصة، وقد تقدم ذلك في ذكر أصنام العرب في أول الكتاب.

قالوا: وفيها بعث جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع، فأسلم وأسلمت امرأته [ضريبة][(٢)] بنت أبرهة بن الصباح، واسم ذي الكلاع سفع[(٣)]، وكان [قبل ذلك قد استعلى أمره][(٤)] حتى ادعى الربوبية، فأطيع. ووفد ذو الكلاع في خلافة عمر ومعه ثمانية عشر ألف عبدٍ وأعتق من عبيده أربعة آلاف، قال: يا أمير المؤمنين لي ذنب ما أظن أن الله يغفره لي، قال: وما هو؟ قال: تواريت يومًا ممن يتعبدني ثم أشرفت عليهم من مكان عال فسجد لي زهاء مائة ألف إنسان، فقال عمر: التوبة بإخلاص والإنابة بإقلاع يرجى معها رأفة الله والغفران. وفي رواية: أعتق ذو الكلاع اثني عشر ألف بيت وقتل بصفين[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٥٣١).

(٢) في المخطوط: «خزيمة»، والتصويب من الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٦)، والإصابة (٢/ ٤٢٧).

(٣) كذا في المخطوط، والصواب أن اسمه سَمَيْفع أو أسْمَيْفَع. انظر: الوفاء (٢/ ٧٣٩)، والإصابة (٢/ ٤٢٧).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من الوفاء بأحوال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢/ ٧٤٠).

(٥) الوفاء لابن الجوزي (٢/ ٧٤١)، والمواهب (٢/ ١٥٨).

وفيها في يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول توفي إبراهيم ابن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ابن ثمانية عشر شهرًا ودفن بالبقيع، ورش قبره وعلِّم بعلامة. قال الزبير: وهو أول قبر رش، / [٢٠٢] وقيل: صلى عليه بالبقيع، وقيل: لم يصل عليه[(١)]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[(٢)].

وفيها انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم فقال الناس: إنما كسفت لموت إبراهيم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. رواه الشيخان[(٣)].

قيل: الغالب الكسوف في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، فكسفت يوم مات إبراهيم في العاشرة، فلذلك قالوا: كسفت لموته.

قالوا: وفيها طلع جبريل [على] مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، وطيب الرائحة وحسن الوجه، رآه حضار المجلس، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد، فجاء حتى جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يديه على فخذيه، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والقيامة وأماراتها، فأجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن غير القيامة، وقال فيها: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، فخرج جبريل من المجلس، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى طلبوه فما وجدوه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسول أعلم،

(١) المواهب (٢/ ٧٠).
(٢) البخاري [١٣٠٣]، ومسلم [٢٣١٥].
(٣) البخاري [١٠٤٣]، ومسلم [٩١٥].

قال: إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. أخرجه مسلم من حديث عمر والبخاري من حديث أبي هريرة[١].

وفيها قدم فيروز الديلمي المدينة، فأسلم وهو الذي قتل الأسود العنسي الكذاب المتبنىء، قتله في الحادية عشرة من الهجرة[٢].

قال ابن إسحاق[٣]: وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما وطىء الإسلام، فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وبعث عدي بن حاتم على طي وصدقاتها، وعلى بني أسد، وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية وقيس بن عاصم على ناحية، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

حجة الوداع وتسمى حجة الإسلام وحجة التمام

قال ابن إسحاق[٤]: فلما دخل على رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذو القعدة تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له. انتهى. وذلك سنة عشر فأجمع الخروج إلى الحج.

وفي البخاري[٥] عن زيد بن أرقم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزا تسع عشرة غزوة وأنه حج بعد ما هاجر حجة واحدة حجة الوداع ولم يحج بعدها.

(١) البخاري (١/ ٢٧) [٥٠]، ومسلم [٨].
(٢) خبره في تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٧).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٢٨).
(٤) ابن هشام (٤/ ٣٣٠).
(٥) البخاري [٤٤٠٤]، ومسلم [١٤٥٤].

وأخرج الترمذي[١] عن جابر بن عبد الله: حج رسول الله ثلاث حجج؛ حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر معها عمرة، هذا لفظه وصححه الحاكم.

قال ابن حزم[٢]: حج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعتمر قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة حججًا وعمرًا لا يعرف عددها، ولم يحج عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن هاجر إلى المدينة إلا حجة واحدة وهي حجة الوداع سنة عشر، واعتمر بعد أن هاجر إلى المدينة أربع عمر: عمرتين مفردتين قصد بهما في ذي القعدة وأتمهما، أحدهما عمرة القضية سنة سبع، والأخرى عمرته من الجعرانة عام ثمان إثر وقعة حنين في ذي القعدة أيضًا، واعتمر عمرة ثالثة قرنها مع حجة الوداع والرابعة عمرته التي صده عنها المشركون سنة ست في ذي القعدة عام الحديبية، فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة بعد ما صلى الظهر بها أربعًا، ثم ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها وجوه الإحرام وواجباته وسننه يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة.

ثبت في الصحيحين[٣]: صلينا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر بالمدينة أربعا والعصر بذي الحليفة ركعتين. ولمسلم[٤] عن جابر: أذن رسول الله في الناس في العاشرة، وأعلم الناس أنه حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يريد أن يأتم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعمل بمثل عمله انتهى. وخرج معه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تسعون ألفًا: ويقال: مائة وأربعة عشر ألفا ويقال أكثر كما حكاه البيهقي[٥].

---

(١) جامع الترمذي [٨١٥]، ومستدرك الحاكم (١/ ٦٤٢).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٩٠).
(٣) البخاري [١٠٨٩]، ومسلم [٦٩٠].
(٤) مسلم [١٢١٨].
(٥) البيهقي في الدلائل (٢/ ٤٣٤).

وكان أول ذي الحجة يوم الخميس وخروجه من المدينة يوم السبت كما تقدم ودخوله مكة صبح رابعة ذي الحجة كما ثبت في حديث عائشة، وذلك يوم الأحد فيكون المكث في الطريق ثماني ليال وهي المسافة الوسطى، وكانت الوقفة يوم الجمعة[(١)]، وأخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه نساءه كلهن في الهوادج، وساق معه الهدي هو وأبو بكر وعمر وذوو اليسار من أصحابه، فقلده وأشعره وبات بذي الحليفة وقال: أتاني / [٢٠٣] الليلة آت من ربي وقال: صل بهذا الوادي المبارك وقل عمرة وحجة، رواه البخاري[(٢)] عن عمر. وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر، فصلى بها خمس صلوات وطاف على نسائه كلهن تلك الليلة، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلًا ثانيًا لإحرامه غير غسل الجماع الأول ثم طيبته عائشة بيديها بذريرة وطيب فيه مسك في بدنه ورأسه حتى كان وبيص المسك يرى في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله ثم لبس إزاره ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه وقرن بينهما، ولم ينقل أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر. وكان قارنًا بين الحج والعمرة لبضعة وعشرين دليلًا ذكرها في الهدي[(٣)].

ولمسلم عن جابر: ثم ركب القصواء حتى إذا استوت ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه بمثل ذلك وعن شماله بمثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به، فأهل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد: لبيك [اللهم][(٤)] لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك،

(١) البخاري [١٥٤٥]، ومسلم [١٢٤٠].
(٢) البخاري (٦/ ٢٦٧٣).
(٣) زاد المعاد (٢/ ١٠٧).
(٤) سقط من المخطوط، والمثبت من صحيح مسلم (٢/ ٨٨٧) [١٢١٨].

وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا منه، ولزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلبيته، قال جابر: لسنا نرى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة.

وفي الصحيحين[١] عن عائشة خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام حجة الوداع، فمنا من أهل بعمرة ومنا من أهل بحج وعمرة ومنا من أهل بالحج وأهل رسول الله بالحج، فأما من أهل بالحج أو جمع بين الحج والعمرة، فلم يحلوا حتى كان يوم النحر. انتهى.

جمع شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] بين الأحاديث المختلفة في صفة حجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن قال: والصواب أن الأحاديث في هذا الباب متفقة ليست بمختلفة إلا اختلافًا يسيرًا يقع مثله في غير ذلك، فإن الصحابة ثبت عنهم أنه تمتع والتمتع عندهم يتناول القران، والذي روي عنهم أنه أفرد روي عنهم أنه تمتع كما في الصحيحين[٣] عن عمران[٤] أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع بين حج وعمرة ثم إنه لم ينه عنه حتى مات ولم ينزل فيه قرآن يحرمه. وفي رواية عنه: تمتع نبي الله وتمتعنا معه. فهذا عمران وهو من أجل السابقين الأولين أخبر أنه تمتع وأخبر أنه جمع بين الحج والعمرة، والقارن عند الصحابة متمتع، ولهذا أوجبوا عليه الهدي ودخل في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٦]، وما ذكره بكر بن عبد الله المزني أنه لبى بالحج وحده فجوابه أن الثقات الذين هم أثبت في ابن عمر مثل سالم ابنه ونافع رووا عنه أنه قال: تمتع رسول الله بالعمرة إلى الحج، فتغليط بكر أولى من تغليط سالم ويشبه أن ابن عمر قال

(١) البخاري [١٥٥٦]، ومسلم [١٢١١].
(٢) زاد المعاد (٢/ ١١٨).
(٣) البخاري [٤٥١٨]، ومسلم [١٢٢٦].
(٤) في المخطوط: «عمر» في الموضعين، والمثبت من الصحيحين.

له: «أفرد بالحج»، فظن أنه قال: لبى بالحج فإن إفراد الحج كانوا يطلقونه ويريدون به إفراد أعمال الحج، وذلك رد منهم على من قال: أنه قرن قرانًا طاف فيه طوافين وسعى فيه سعيين، وعلى من يقول أنه حل من إحرامه، فرواية من روى من الصحابة أنه أفرد الحج فهم ثلاثة عائشة وابن عمر وجابر، والثلاثة نقل عنهم التمتع وحديث عائشة وابن عمر أنه تمتع بالعمرة والحج أصح من حديثهما عنه أنه أفرد بالحج وما صح من ذلك عنهما، فمعناه إفراد أعمال الحج وأن يكون وقع غلط كنظائره، فإن أحاديث التمتع متوافرة رواها أكابر الصحابة كعمر وعلي وعثمان وعمران بن حصين، بل رواها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضعة عشر من الصحابة والله أعلم.

قلت: وهذا الكلام من أحسن ما يجمع لك بين الأحاديث في هذا الباب، وبه يتفق معناها.

عدنا إلى سياق حجته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ولبد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه بالغِسل[(١)] - وهو بالغين المعجمة على وزن «كفل»، وهو ما يغسل به الرأس من خطمي ونحوه، يلبد به الرأس حتى لا ينتشر - وأهلَّ في مصلاه ثم ركب على ناقته فأهلَّ أيضا ثم أهل لما استقلت به على البيداء قال ابن عباس[(٢)]: وايم الله، لقد أوجب في مصلاه وأهلَّ حين استقلت به ناقته وأهل حين علا شرف البيداء، وكان يهل بالحج والعمرة تارة وبالحج تارة؛ لأن العمرة جزء منه، فمن ثم قيل: قرن وقيل: تمتع وقيل: أفرد. ثم لبى وأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، وكان حجه على رحل لا في محمل ولا هودج ولا عمارية[(٣)].

(١) أبو داود [١٧٤٨].
(٢) أبو داود [١٧٧٠].
(٣) مركب صغير على هيئة مهد الصبي، تهذيب الأسماء واللغات (٤/ ٤٣).

ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أصحابه عند الإحرام بين الأنساك الثلاثة: القران والتمتع الخالص والإفراد، ثم ندبهم عند دنوهم من مكة إلى فسخ الحج والقران إلى العمرة لمن لم يكن معه هدي ثم حتم ذلك عليهم / [٢٠٤] عند المروة[(١)].

وولدت أسماء بنت عميس بذي الحليفة محمد بن أبي بكر، فأمرها رسول الله أن تغتسل وتستثفر بثوب وتحرم وتهل[(٢)]، ففي هذه ثلاث سنن: غسل المحرم، وأن الحائض تغتسل لإحرامها، وأن الإحرام يصح من الحائض.

ثم سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولزم تلبيته، والناس يزيدون فيها وينقصون منها وهو يقرهم ولا ينكر[(٣)] عليهم، فلما كان بالروحاء رأى حمار وحش عقيرًا، فقال: دعوه، فإنه يوشك أن يأتي صاحبه، فجاء صاحبه فقال: يا رسول الله، شأنكم بهذا الحمار، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر أن يقسمه بين الرفاق[(٤)]. وفي هذا دليل جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله، وأن الهبة لا تفتقر إلى لفظ: وهبتُ، وجواز قسمة اللحم مع عظامه بالتحري، وأن الصيد يملك بالإثبات، وعلى أكل الحمار الوحش، وعلى التوكيل في القسمة، وعلى كون القاسم واحدًا[(٥)].

ثم مضى حتى إذا كان بالأُثاية[(٦)] بين الرُّوَيثة والعَرْج[(٧)] إذا ظبي حاقف[(٨)] في

(١) زاد المعاد، (٢/ ١٦٠).
(٢) مسلم [١٢٠٩].
(٣) البخاري [١٥٤٩]، ومسلم [١١٨٤]، أبو داود [١٨١٣].
(٤) مالك في الموطأ (١/ ٣٥١)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٢).
(٥) زاد المعاد (٢/ ١٦٢).
(٦) في المخطوط: «الأبانة»، والتصويب من سنن النسائي المجتبى (٥/ ١٨٢).
(٧) واد فحل من أودية الحجاز التهامية، جنوب المدينة على ١١٣ كيلًا. معجم المعالم الجغرافية (ص ٢٠٣). والرويثة جنوب بلدة المسيجيد. انظر: المعالم الأثيرة (ص ١٣١).
(٨) أي: نائم قد انحنى في نومه. النهاية (١/ ٤١٣).

ظل فيه سهم، فأمر رجلًا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس، والفرق بين هذا والذي قبله أن الذي صاد الحمار كان حلالًا، فلم يمنع من أكله، وهذا لم يعلم أنه حلال، فلم يأذن في أكله للمحرم، وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة في عدم الحل، إذ لو كان حلالًا لم يضيع ماليته[(١)].

ثم سار حتى إذا نزل بالعرج وكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة وكانت مع غلام لأبي بكر، فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر إلى جانبه وعائشة إلى جانبه الآخر وأسماء زوجته إلى جانبه، وأبو بكر ينتظر الغلام والزاملة، إذ طلع الغلام ليس معه البعير، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة، فقال: بعير واحد تُضله! قال: فطفق يضربه ورسول الله يتبسم، ويقول: انظروا إلى المحرم ما يصنع، وما يزيد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول ذلك ويتبسم. ومن تراجم أبي داود على هذه القصة «باب المحرم يؤدب»[(٢)].

ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحش، فرده عليه وقال: إنا لم نرده إلا أنَّا حرم. أخرجاه في الصحيحين[(٣)]، وإذا حمل حديث أبي قتادة على أنه لم يصده لأجله وحديث الصعب على أنه صيد لأجله زال الإشكال، ويشهد له حديث جابر المرفوع: «صيد البر حلال ما لم تصيدوه أويصطد لكم»[(٤)].

(١) زاد المعاد (٢/ ١٦٢).
(٢) سنن أبي داود [١٨١٨].
(٣) البخاري [١٨٢٥]، ومسلم [١١٩٣].
(٤) أبو داود [١٨٥١] والترمذي [٨٤٩].

فلما مر بوادي عسفان قال: يا أبا بكر، أي واد هذا؟ قال: وادي عسفان، قال: لقد مر به هود وصالح على بكرين أحمرين خطمهما الليف وأزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق. ذكره الامام أحمد في مسنده[١].

فلما كان بسَرِف[٢] حاضت عائشة وقد كانت أهلَّت بعمرة، فدخل عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ لعلك نفست؟ قالت: نعم قال: هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت. أخرجاه في الصحيحين[٣].

وفيهما[٤] عن عروة عنها: خرجنا مع رسول الله قالت: أهللنا بعمرة فقدمت مكة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا بين الصفاء والمروة، فشكوت ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: انقضي راسك وامتشطي وأهلي بالحج ودعي العمرة، قالت: ففعلت فلما قضيت الحج أرسلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أخي عبد الرحمن إلى التنعيم فاعتمرت، فقال: هذه مكان عمرتك. فطاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت وبالصفاء والمروة، ثم حلوا ثم طافوا طوافا آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم. وأما الذين كانوا يجمعون الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا. انتهى.

فلما كان بسرف قال لأصحابه: من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا، وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الإحرام،

---

(١) المسند (١/ ٢٣٢) من حديث ابن عباس.

(٢) واد متوسط الطول من أودية مكة، يأخذ مياه ما حول الجعرانة - شمال شرقي مكة - ثم يتجه غربًا، فيمر على ١٢ كيلًا شمال مكة. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٥٦).

(٣) البخاري [١٥٥٦]، ومسلم [١٢١١].

(٤) البخاري [١٥٥٦]، ومسلم [١٢١١].

فلما كان بمكة أمر أمرًا حتمًا من لا هدي معه أن يجعلها عمرة ويحل من إحرامه، ومن كان معه هدي أن يقيم على إحرامه ولم ينسخ من ذلك شيء البتة، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التي أمرهم بالفسخ إليها: هل هي لعامهم ذلك أم للأبد؟ [قال: بل للأبد][(١)]، وإن العمرة دخلت في الحج إلى يوم القيامة. وقد روى عنه الأمر بفسخ الحج والعمرة أربعة عشر من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأحاديثهم كلها صحاح، وهم: عائشة وصفية وعلي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله وأسماء ابنة أبي بكر وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري والبراء بن عازب وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك، [وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عباس وسبرة بن معبد وسراقة بن مالك][(٢)].

ففي الصحيحين[(٣)] عن ابن عباس قال: قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم، فقالوا: يا رسول الله، أي الحل؟ قال: حل كله. وفي لفظ: وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أن يجعلوا إحرامهم بعمرة إلا من كان معه الهدي.

وفي الصحيحين[(٤)] عن جابر / [٢٠٥] أهل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بالحج، وليس مع أحد هدي غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطلحة، وقدم علي من اليمن ومعه هدي، فقال: أهللت بما أهل به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعلوها عمرة ويطوفوا ويقصروا إلا من كان معه الهدي. قالوا: ننطلق إلى منى،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والمثبت من الزاد، والكلام لابن القيم (٢/ ١٧٨).
(٢) ما بين المعقوفين من الزاد (٢/ ١٧٨).
(٣) البخاري [١٥٦٤]، ومسلم [١٢٣٩].
(٤) البخاري [١٦٥١]، ومسلم [١٢٣٩].

وذكر أحدنا يقطر؟ فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت. وفي لفظ فقام فقال: قد علمتم أنني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، فحلوا، فحللنا فسمعنا وأطعنا.

ولمسلم[١] عن عائشة: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي وهو غضبان فقلت: من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار؟ قال: أوَما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون الحديث. قال في الهدي[٢]: ونحن نشهد الله علينا أنَّا لو أحرمنا بحج لرأينا فرضًا علينا فسخه إلى العمرة تفاديًا من غضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعًا لأمره، والله ما نسخ هذا في حياته ولا بعد موته، ولا صح حرف واحد يعارضه، ولا خص به أصحابه دون من بعدهم، بل أجرى الله سبحانه على لسان سراقة بن مالك أن سأله: هل ذلك مختص بهم؟ فأجابه بأن ذلك كائن لأبد الأبد، فما ندري ما يقدم على هذه الأحاديث، وهذا الأمر المؤكد قد غضب رسول الله على من خالفه، ولله در الإمام أحمد إذ يقول لسلمة بن شبيب وقد قال له: يا أبا عبد الله كل أمرك عندي حسن إلا خلة واحدة، قال: وما هي؟ تقول بفسخ الحج إلى العمرة. فقال: يا سلمة كنت أرى لك عقلًا، عندي في ذلك أحد عشر حديثا صحاحا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أتركها لقولك؟

وفي صحيح مسلم[٣] عن ابن عباس أن رجلا قال له: ما هذه الفتيا التي قد [تشغفت][٤] بالناس أن من طاف فقد حل؟ فقال: سنة نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن

(١) مسلم [١٢١١].
(٢) زاد المعاد (٢/ ١٨٢).
(٣) مسلم [١٢٤٤].
(٤) في المخطوط: «لشغت»، والمثبت من صحيح مسلم.

رغمتم. وصدق ابن عباس، كل من طاف بالبيت ممن لا هدي معه من مفرد وقارن أو متمتع فقد حل إما وجوبًا وإما حكمًا، هذه هي السنة التي لا راد لها ولا مدفع.

وقال عبد الرزاق[١]: حدثنا معمر عن قتادة عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال: من جاء مهلا بالحج فإن الطواف بالبيت يصيره إلى عمرة شاء أو أبى. قلت: إن الناس ينكرون ذلك عليك قال: وهذه سنة نبيهم وإن رغموا. وهذا مذهب أهل بيت رسول الله ومذهب حبر الأمة وبحرها ابن عباس وأصحابه ومذهب إمام أهل السنة وأتباعه أحمد بن حنبل وأهل الحديث معه ومذهب أهل الظاهر.

وأما قول عروة وغيره: نهى عنها أبو بكر وعمر فقد أجابه ابن عباس فأحسن جوابه فروى الأعمش عن فضيل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: تمتع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟

وفي صحيح مسلم[٢] عن ابن أبي مليكة أن عروة بن الزبير قال لرجل من أصحاب رسول الله يأمر الناس بالعمرة في هذا العشر، [وليس فيها عمرة][٣]. فقال: أولا تسأل أمك عن ذلك؟ فقال عروة: فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك، قال الرجل: من ههنا هلكتم، ما أرى الله إلا سيعذبكم، إنى أحدثكم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتخبروني بأبي بكر وعمر. قال عروة: إنهما والله كانا أعلم بسنة رسول الله منك، فسكت الرجل.

---

(١) أخرجه ابن حزم في حجة الوداع (ص٣٦٥) بإسناده إلى عبد الرزاق، ولم نقف عليه في المصنف.
(٢) إنما هو «أبو مسلم»، وهو الكجي كما في حجة الوداع لابن حزم (ص٣٥٣)، والمصنف نقله من الزاد.
(٣) سقط في المخطوط، والمثبت من حجة الوداع (ص٣٥٣)، وزاد المعاد (٢/ ٢٠٧).

قال أبو محمد ابن حزم نحن نقول لعروةَ: ابنُ عباس أعلم بسنة رسول الله منك وبأبي بكر وعمر منك، وخير منك وأولى بهم ثلاثتهم منك، لايشك في ذلك مسلم مع أنهما قد روى عنهما خلاف ما قال عروة من هو خير من عروة وأفضل وأعلم وأوثق، ثم روى من طريق ابن عباس: تمتع رسول الله حتى مات وأبو بكر حتى مات وعمر حتى مات وعثمان كذلك، وأول من نهى عنها معاوية[١]. وقد رواه أحمد والترمذي[٢] وقال: حديث حسن.

وقال عبد الله بن عمر لمن سأله عنها فقال له السائل: إن أباك نهى عنها، قال: أمر رسول الله أحق أن يتبع أو أبي؟ وأجاب الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك بأن قال: إن عمر لم ينه عن المتعة البتة، وإنما قال: إن أتم لحجكم وعمرتكم أن تفصلوا بينهما، فاختار لهم عمر أفضل من القران والتمتع الخاص بدون سفرة أخرى. وقد نص على ذلك الإمام أحمد وأبو حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم، وهذا هو الإفراد الذي فعله أبو بكر وعمر، وكان عمر يختاره للناس وكذلك علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[٣].

وقال عمر وعلي في قوله: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦] قال: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة في عمرتها: أجرك على قدر نصبك[٤].

قال في الهدي[٥]: فهذا الذي اختاره عمر للناس، فظن من غلط منهم أنه نهى

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٠٨).
(٢) مسند أحمد (١/ ٢٩٢، ٢١٣، ٣١٤).
(٣) زاد المعاد (٢/ ٢٠٩).
(٤) مسند أحمد (١/ ٩٢).
(٥) زاد المعاد (٢/ ٢١٠).

عن المتعة، ومن الناس من جعل عنه فيها روايتين، ومنهم من جعل / [٢٠٦] النهي عنه قولًا قديمًا رجع عنه كما فعل أبو محمد ابن حزم[(١)].

عدنا إلى سياق حجته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثم نهض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن نزل بذي طوى وهي المعروفة اليوم بآبار الزاهر، ذكره في الهدي[(٢)]، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ثم صلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة، فدخلها نهارًا من أعلاها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون، وكان في العمرة يدخل من أسفلها، وفي الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها، ثم سار حتى دخل المسجد، وذلك ضحى.

وذكر الطبراني[(٣)] أنه كان إذا نظر إلى البيت قال: اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابةً وبرًّا. وروي عنه أنه كان يرفع يديه ويكبر ويقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام، حَيِّنا ربنا بالسلام، اللهم زد.. الخ. وهو مرسل، لكن [سمع][(٤)] هذا سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب يقوله[(٥)].

فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحية المسجد، فإن تحية المسجد الحرام الطواف، فلما حاذى الحجر استلمه ثم أخذ على يمينه وجعل البيت عن يساره، ولم يدع عند الباب بدعاء ولا تحت الميزاب ولا عند ظهر الكعبة وأركانها، ولا وقت

(١) حجة الوداع (ص٣٥٩).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٢٣). ذو طوى واد من أودية مكة، كله معمور اليوم، يسيل في سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب، ويذهب حتى يصب في المسفلة عند قوز المكاسة من الجهة المقابلة. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٨٨).

(٣) المعجم الكبير (٣/ ١٨١).

(٤) سقط من المخطوط، والاستدراك من زاد المعاد (٢/ ٢٢٤).

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٧٣).

للطواف ذكرًا معينا لا بفعله ولا بتعليمه، بل حفظ عنه بين الركنين: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[(١)].

ورمل في طوافه هذه الثلاثة الأشواط الأول يسرع في مشيه ويقارب بين خطاه[(٢)] واضطبع بردائه، فجعله على إحدى كتفيه وأبدى كتفه الأخرى ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه واستلمه بمحجنه[(٣)]، وقبل المحجن[(٤)]، والمحجن عصًا محجنة الرأس. وثبت عنه أنه استلم الركن اليماني[(٥)]، ولم يثبت أنه قبله ولا قبل يده عند استلامه، وثبت عنه أنه قبل الحجر الأسود وأنه استلمه بيده ووضع يده عليه ثم قبلها، وثبت أنه استلمه بمحجن، فهذه ثلاث صفات ولم يستلم ولم يمس من الأركان إلا اليمانيين فقط، فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت، فقرأ فيهما بعد الفاتحة سورتي الاخلاص، فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر فاستلمه ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلما دنا منه قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به.

وفي رواية النسائي[(٦)]: ابدؤوا على الأمر، ثم رقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة ووحد الله وكبره وقال: لا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا اله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم

(١) أبو داود [١٨٩٢].
(٢) مسلم [١٢٦١].
(٣) البخاري [١٦٠٧]، ومسلم [١٢٧٢].
(٤) مسلم [١٢٧٥]، وابن ماجه [٢٩٤٩].
(٥) البخاري [١٦٠٩]، ومسلم [١٢٦٧].
(٦) النسائي (٥/ ٢٣٦).

الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة يمشي، فلما انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى، وذلك اليوم قبل الميلين الأخضرين في أول السعي. هكذا في حديث جابر[١] قال: حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لا هدي معه أن يحل حتمًا ولا بد، قارنًا كان أو مفردًا الحل كله، من وطء النساء والطيب والمخيط، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية، ولم يحل هو من هديه، وهناك دعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثًا وللمقصرين مرة، وهناك سأله سراقة بن مالك عقيب أمره لهم بالفسخ والإهلال: هل ذلك لعامهم خاصة أم للأبد، فقال للأبد، ولم يحل أبو بكر ولا عمر ولا طلحة ولا الزبير من أجل الهدي، وأما نساؤه[٢] فأحللن إلا عائشة، فإنها لم تحل من أجل تعذر الحل عليها بحيضها، وأمر من أهل كإهلاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقيم على إحرامه إن كان معه الهدي، وكان يصلي مدة القيام إلى يوم التروية بمنزلة الذي هو نازل فيه بالمسلمين بظاهر مكة، فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين إلى منى، فأحرم بالحج من كان معه من رحالهم ولم يدخلوا إلى المسجد، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم.

وفي حديث جابر: وركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلى بها الظهر والعصر وبات بها ليلة الجمعة، حتى طلعت الشمس وأمر بقبة له من شعر تضرب بنمرة، فسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تشك قريش، إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى عرنة، فوجد القبة قد

(١) مسلم [١٢١٨].
(٢) البخاري [١٥٦١].

ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم - وفي رواية غيره: وأعراضكم - حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوعة، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب: فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن / [٢٠٧] بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسالون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد - ثلاث مرات[(١)] -.

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا. قال في الهدي[(٢)]: وذلك يوم الجمعة، فدل على أن المسافر لا يصلي الجمعة، ومعه أهل مكة فصلوا بصلاته قصرًا وجمعًا بلا ريب، ولم يأمرهم بالإتمام وإنما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة: «أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر» في غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا في ديارهم مقيمين، ولهذا كان أصح اقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يحدد بمسافة معلومة، ولا بأيام ولا تأثير للنسك في قصر الصلاة البتة. اهـ.

(١) مسلم [١٢١٨].

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٣٤).

وقال جابر: ثم ركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه واستقبل القبة، ولم يزل واقفًا حتى غربت الشمس قال في الهدي[١]: وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة، وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك، بل قال: وقفت ههنا وعرفة كلها موقف[٢]، وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها، فإنها من إرث أبيهم إبراهيم[٣]، وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج، فقال: الحج عرفة، من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج، أيام منى ثلاثة: أيام التشريق، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه. وكان في دعائه رافعًا يده إلى صدره كاستطعام المسكين وأخبر أن خير الدعاء يوم عرفة، وهناك نزلت عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣]، وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم، فمات فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكفن في ثوبيه، ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه، وأخبر أن الله يبعثه يوم القيامة يلبي[٤].

فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفراء أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بسكينة، وضم إليه بزمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب طرف رحله، وفي حديث جابر: ويقول بيده اليمنى: أيها الناس عليكم بالسكينة، وكلما أتى حبلا من الحبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد. انتهى[٥].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٣٥).

(٢) مسلم [١٢١٨].

(٣) أبو داود [١٩١٩].

(٤) البخاري [١٢٦٨، ١٢٠٦].

(٥) البخاري [١٦٧١]، ومسلم [١٢١٨].

وأفاض من طريق المأزمين، ودخل عرفة من طريق ضب، وهكذا كانت عادته عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأعياد أن يخالف الطريق، ثم جعل يسير العَنَق، وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطيء، فإذا وجد فجوة وهو المتسع نص سيره أي رفعه فوق ذلك[١]، وكان يلبي في مسيره ذلك لا يقطع التلبية ثم سار حتى أتى المزدلفة، فتوضأ وضوءه للصلاة، ثم أمر بالأذان فأذن المؤذن، ثم أقام فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم نام حتى أصبح وأذن تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر، وذلك عند غيوب القمر[٢]، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس. حديث صحيح صححه الترمذي[٣].

والذي دلت عليه السنة جواز الرمي قبل طلوع الشمس للعذر بمرض أو كبر يشق عليه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح فلا يجوز له ذلك.

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت لا قبله قطعًا بأذان وإقامة يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدًّا، ووقف وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفًا للفضل بن العباس وهو يلبي في سيره، وكان الفضل رجلًا حسن الشعر أبيض وسيمًا، فلما دفع رسول الله مرت ظعن يجرين،

(١) البخاري [١٦٦٦]، ومسلم [١٢٨٦].
(٢) البخاري [١٦٧٩]، ومسلم [١٢٩١].
(٣) الترمذي [٨٩٣].

فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر[(١)].

وفي طريقه ذلك أمر [ابن عباس][(٢)] أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات ولم يكسرها من الجبل تلك الليلة كما فعل من لا علم عنده ولا التقطها بالليل، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضه من كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين[(٣)].

فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير، وهذا كان عادته في المواضع التي / [٢٠٨] نزل بها بأس الله بأعدائه فإن هناك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله عليه وسمي محسرًا؛ لأن الفيل حسر فيه أي أعيا وانقطع عن الذهاب.

وقال جابر في حديثه: ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات مثل حصى الخذف، يكبر مع كل حصاة منها من بطن الوادي.

وكان رميه إياها راكبًا بعد طلوع الشمس واحدة [بعد واحدة يكبر مع كل حصاة][(٤)] وحينئذ قطع التلبية ورمى وبلال وأسامة معه، أحدهما آخذ بخطام ناقته،

---

(١) البخاري [١٥١٣]، ومسلم [١٣٣٤].

(٢) في المخطوط: «العباس»، والمثبت من مصدري التخريج.

(٣) ابن ماجه [٣٠٢٩]، وأحمد (١/ ٢١٥).

(٤) سقط من المخطوط، والاستدراك من صحيح مسلم.

والآخر يظله بثوب من الحر[١]. وفيه دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه إن كانت هذه القصة يوم النحر، وإن كانت أيام منى فلا حجة فيها[٢].

ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وقال: لعلي لا أحج بعد عامي هذا، وعلمهم مناسكهم وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع[٣]، وقال في خطبته: لا يجني جانٍ إلا على نفسه[٤]، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها، والناس حولهم، وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعه أهل منى من منازلهم، وقال في خطبته تلك: اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم[٥]، وودع حينئذ الناس فقالوا: «حجة الوداع».

ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى[٦]، وكان عدد ما نحر عدد سني عمره ثم أمسك، وأمر عليا أن ينحر ما بقي من المائة ثم أمر عليا أن يتصدق بجلالها وجلودها ولحومها في المساكين وأمره أن لا يعطي الجزار في جزارتها شيئا منها وقال نحن نعطيه من عندنا، وقال: من شاء

(١) مسلم [١٢٩٨].
(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٥١).
(٣) البخاري [١٧٤١]، ومسلم [١٦٧٩].
(٤) الترمذي [٢١٥٩].
(٥) الترمذي [٦١٦].
(٦) أبو داود [١٧٦٧].

اقتطع، ونحر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنحره بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر[(١)]، وأن فجاج مكة طريق ومنحر، وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، وسئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبني له بمنى مظلة من الحر، فقال: لا، منى مناخ من سبق.[(٢)]

فلما أكمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحره استدعى بالحلاق، فقال للحلاق - وهو معمر بن عبد الله وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر في وجهه - وقال: يا معمر، أمكنك رسول الله من شحمة أذنه وفي يدك الموسى، قال معمر: فقلت: أما والله يا رسول الله، إن ذلك لمن نعمة الله علي، قال: أجل [إذًا أقر][(٣)] ذلك، ذكره أحمد وقال للحلاق: خذ وأشار إلى جانبه الأيمن فلما فرغ قسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق، فحلق جانبه الأيسر قال: ههنا أبو طلحة؟ فدفعه إليه. هكذا وقع في صحيح مسلم[(٤)].

قيل: أصاب خالد بن الوليد شعرات من ناصيته، فجعلها في قلنسوته، فلم يشهد بها قتالا إلا رزق النصر.

قال جابر في حديثه: وأشرك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأفاض إلى البيت وصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلو لا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوا فشرب منه.

---

(١) أبو داود [١٩٣٦، ١٩٣٧].

(٢) الترمذي [٨٨١].

(٣) بياض في المخطوط قدر كلمة، والمستدرك من مسند أحمد (٦/ ٤٠٠).

(٤) مسلم [١٣٠٥].

وطاف في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفاء والمروة ليراه الناس وليسألوه ثم رجع إلى منى[١]. واختلف: أين صلى الظهر يومئذ، ففي الصحيحين[٢] عن ابن عمر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفاض يوم النحر فصلى الظهر بمنى. وفي مسلم عن جابر أنه صلى الظهر بمكة وكذلك قالت عائشة[٣]. وطافت أم سلمة في ذلك اليوم على بعيرها وهي شاكية[٤]، وكانت استاذنت رسول الله، وطافت عائشة طوافًا واحدًا وسعت سعيًا واحدًا أجزأها عن حجها وعمرتها[٥]، وطافت صفية ذلك اليوم ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع فلم تودع[٦] فاستقرت سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المرأة الطاهر إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن وتكتفي بطواف واحد وسعي واحد وإن حاضت بعد طواف الإفاضة اجتزأت به عن طواف الوداع[٧].

ثم رجع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منى من يومه ذلك، فبات بها فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة يقول مع كل حصاة: الله أكبر. / [٢٠٩] ثم تقدم عن الجمرة أمامها حتى أسهل فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه يدعو ودعا دعاءً طويلًا بقدر سورة البقرة، ثم أتى الجمرة الوسطى فرماها كذلك تم انحدر ذات اليسار مما يلي الوادي، فوقف مستقبل القبلة رافعًا يديه يدعو

(١) مسلم [١٢١٨].
(٢) إنما هو عند مسلم فقط [١٣٠٨].
(٣) حديث جابر عند مسلم [١٢١٨]، وحديث عائشة عند أبي داود [١٩٧٣].
(٤) مسلم [١٢٧٦].
(٥) مسلم [١٢١١].
(٦) البخاري [١٧٧١].
(٧) انظر: زاد المعاد (٢/ ٢٨٤).

قريبًا من وقوفه الأول، ثم أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي واستعرض الجمرة، فجعل البيت[١] عن يساره ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات كذلك[٢]، ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال، ولا جعلها عن يمينه واستقبل البيت وقت الرمي كما ذكره غير واحد من الفقهاء، فلما أكمل الرمي رجع من فوره ولم يقف عندها، فقيل: لضيق المكان في الجبل، وقيل: - وهو أصح - إن دعاءه كان في نفس العبادة قبل الفراغ منها، فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمي، والدعاء في صلب العبادة أفضل منه بعد الفراغ منها، وهذه كانت سنته في دعائه في الصلاة. وذكر الإمام أحمد أنه كان يرمي يوم النحر راكبًا وأيام منى ماشيا في ذهابه ورجوعه.

فقد تضمنت حجته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ست وقفات للدعاء: الأولى على الصفاء، والثانية على المروة، والثالثة بعرفة، والرابعة بمزدلفة، والخامسة عند الجمرة الأولى، والسادسة عند الجمرة الثانية[٣].

واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل السقاية فأذن له[٤] واستأذنه رعاء الإبل في البيوتة خارج منى عند الإبل فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر يرمونه في أحدهما[٥]. قال مالك: ظننت أنه قال في أول يوم منهما: ثم يرمون يوم النفر، وقال ابن عيينة في هذا الحديث: رخص للرعاء أن يرموا يومًا ويدعوا يومًا، فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى، وأما

---

(١) في المخطوط: «الجمرة»، وهو خطأ، والتصويب من مصدر التخريج.

(٢) البخاري [١٧٥١]، ومسلم [١٢٩٦].

(٣) زاد المعاد (٢/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٤) البخاري [١٦٣٤].

(٥) أبو داود [١٩٧٥]، والترمذي [٩٥٥]، وابن ماجه [٣٠٣٧].

الرمي فلا يتركونه بل لهم أن يؤخروه إلى الليل فيرمون فيه، ولهم أن يجمعوا رمي يومين في يوم، وكذلك من له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلفه عنه أو كان مريضًا لا يمكنه البيتوتة سقطت عنه بتنبيه النص على هؤلاء. والله أعلم[١].

ولم يتعجل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يومين بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب، وهو الأبطح وهو خيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب قبته هناك وكان على ثقله توفيقا[٢] من الله دون أن يأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة[٣]، ثم نهض إلى مكة، فطاف طواف الوداع ليلا سحرًا، ولم يرمل في هذا الطواف ورغبت عائشة أن يعمرها عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت والصفاء والمروة قد أجزأ عن حجتها وعمرتها، فقالت: يا رسول الله يرجع الناس بحجة وعمرة وأرجع أنا بحجة؟ قال: أوَما طفت ليالي قدمنا مكة؟ قالت: لا قال: فاذهبي مع أخيك إلى التنعيم فأهلي بعمرة، ثم موعدك كذا وكذا، ففرغت من عمرتها ليلًا، ثم وافت المحصب مع أخيها، فأتيا في جوف الليل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرغتما؟ قالت: نعم، فنادى بالرحيل في أصحابه، فارتحل الناس[٤] ثم طاف بالبيت قبل صلاة الصبح. هكذا عند البخاري[٥] في حديث القاسم عنها، وفي الصحيحين[٦] عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال حين أراد أن ينفر من منى: نحن نازلون إن شاء الله غدًا بخيف بني

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٩).
(٢) مسلم [١٣١٣].
(٣) أبو داود [٢٠١٣].
(٤) البخاري [١٧٦٢]، ومسلم [١٢١١].
(٥) البخاري [١٧٨٨].
(٦) البخاري [١٥٩٠]، ومسلم [١٣١٤].

كناية حيث تقاسموا على بني هاشم وبني المطلب لا يناكحوهم ولا يكون بينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله انتهى.

فقصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهار شعائر الإسلام في المكان الذي أظهروا فيه شعائر الكفر والشرك وكان ابن عمر يرى نزوله سنة[١]، وذهب ابن عباس[٢] وعائشة[٣] إلى أنه ليس سنة وإنما هو منزل نزله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكون أسمح لخروجه.

قال ابن إسحاق[٤]: ثم قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرًا، وضرب على الناس بعثًا إلى الشام وأمر عليهم أسامة بن زيد مولاه وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون انتهى. وهي آخر سرية جهزها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول شيء جهزه أبو بكر[٥].

فلما كان يوم الأربعاء بدأ برسول الله وجعه، فحمَّ وصدع[٦] فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده فخرج بلوائه معقودًا، فدفعه إلى بريدة الأسلمي فسكن بالجرف، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين، فغضب من ذلك غضبًا شديدًا، ففي الصحيح[٧] عن ابن عمر أن / [٢١٠] رسول الله بعث بعثا وأمر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمارته فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

---

(١) البخاري [١٧٦٦]، ومسلم [١٣١٢].
(٢) البخاري [١٧٦٥]، ومسلم [١٣١١].
(٣) مسلم [١٣١٠].
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٣٧).
(٥) سرية أسامة في البخاري [٣٧٣٠]، ومسلم [٢٤٢٦].
(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٠٦).
(٧) البخاري [٣٧٣٠]، ومسلم [٢٤٢٦].

بلغني أنكم قلتم في أسامة وأنه أحب الناس إلي، وفي لفظ: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه، وايم الله إنه كان خليقًا بالإمارة وإنه كان لمن أحب الناس إلي أبوه، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده.

قال ابن إسحاق[١]: وانكمش الناس في جهازهم، فخرج أسامة بجيشه حتى نزلوا الجرف، وتتام إليه الناس وأثقل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقام أسامة والناس معه لينظروا ما الله قاض في رسوله.

وعن محمد بن أسامة عن أبيه قال: لما ثقل رسول الله هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي أعرف أنه يدعو لي[٢].

وفي الصحيحين[٣] عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتلى أُحُد بعد ثلاث سنين صلاته على الميت كالمودع للأحياء والأموات ثم انصرف إلى المنبر، فقال: إني فرطكم وإني شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها.

وفي الصحيح[٤] عن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس، فقال: إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد خُير، فكان رسول الله

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٩٦).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٩٨).
(٣) البخاري [١٣٤٤]، ومسلم [٢٢٩٦].
(٤) البخاري [٤٤٣١]، ومسلم [١٦٣٧].

هو المخير، فكان أبو بكر هو أعلمنا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر.

قال ابن إسحاق[(١)]: وحدثني عبد الله بن عمر عن عبيد بن جبير مولى الحكم بن العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبي مويهبة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: لا والله، يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبدأ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه الذي قبضه الله فيه.

قال: وحدثني يعقوب بن عتبة عن محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة قالت: رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [من البقيع][(٢)]، فوجدني أجد صداعًا في رأسي وأقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه، ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فقمت إليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: قلت: والله لكأني لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٢) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام (٤/ ٣٨٦).

قالت: فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتتام به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه، فاستأذنهن أن يمرض في بيتي، فأذِنَّ له[١]. قالت: فخرج رسول الله يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر عاصبًا رأسه تخط قدماه، حتى دخل بيتي. قال عبيد الله: فحدثت بهذا الحديث عبد الله ابن عباس، فقال: هل تدري من الرجل الآخر؟ قال: قلت: لا، قال: علي بن أبي طالب[٢]، ثم غمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشتد به وجعه، فقال: هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد اليهم قالت: وأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صبَّ عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم. انتهى.

قلت: وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري من طريق الزهري عن عبيد الله عن عائشة، زاد البخاري في هذه الرواية[٣]: ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم.

وله عن عروة عن عائشة أنها قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه الذي مات فيه: مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت عائشة: فقلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، قالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال / [٢١١] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٨٦-٣٨٧).
(٢) البخاري [٤٤٤٢]، ومسلم [٤١٨].
(٣) البخاري [١٩٨، ٤٤٤٢].
(٤) البخاري [٦٤٤، ٧١٢].

وفي رواية لمسلم[١]: ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يتأخر، وقال لهما: أجلساني إلى جنبه، فأجلسه إلى جنب أبي بكر فكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، وكذا في رواية الأسود عن عائشة عند مسلم، وكذا في رواية عروة عنها، وله في رواية أبي موسى في هذه القصة: فأتاه الرسول فصلى بالناس في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وللبخاري[٢] عن عائشة في حديث عبيد الله: قالت عائشة: لقد راجعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبدًا، ولا كنت أرى بأنه لا يقوم أحد مقامه إلا تشاءم به الناس، فأردت أن يعدل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي بكر.

قال الزهري: وأخبرنا عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا. وفي رواية أحمد: قاتل الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحرم ذلك على أمته. وفي رواية البخاري[٣] قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا.

وله عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجعه الذي مات فيه، فقال الناس: يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله، قال:

(١) مسلم [٤١٨].
(٢) البخاري [٦٨٧].
(٣) البخاري [٣٤٠٣]، ومسلم [٥٣١].

أصبح بحمد الله بارئًا فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله، فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله، لئن سألناها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله، لا أسالها رسول الله[١].

وللبخاري[٢] أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم.

قال ابن إسحاق فكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة. وقالت عائشة: لددنا رسول الله في مرضه، فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني فقلنا كراهية المرض للدواء. فلما أفاق قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟ قلنا: كراهية المريض للدواء فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا العباس، فإنه لم يشهدكم[٣] انتهى.

واللدود شيء تصنعه العرب دواء يصب في أحد شقي الفم فأمر بلدهم كلهم اقتصاصًا.

فلما كان يوم الخميس قبل موته بأربع ليال اجتمع عنده ناس من أصحابه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدًا.

---

(١) البخاري [٤٤٤٧].

(٢) البخاري [٤٤٢٨].

(٣) البخاري [٤٤٥٨]، ومسلم [١٦٣٧].

وفي الصحيحين[(١)] عن ابن العباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه فقال: ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك. وفي رواية فقالوا: ما له أَهَجَرَ؟ استفهموه. فذهبوا يردون عليه، فقال: دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه وأوصاهم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها.

وفي رواية: فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال: قوموا عني. قال عبيد الله: فكان ابن [عباس] يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم، انتهى.

ولا شك أنه لو كان من واجبات الشريعة لم يغيره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلام عمر ولا غيره، وكان قال لعائشة في تلك المرضة: لقد هممت أن أبعث إلى أبيك وأخيك فأكتب كتابًا وأعهد عهدًا لئلا يتمنى [متمن] أو يقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر، رواه البخاري[(٢)].

فلم يكن - والله أعلم - الكتاب الذي أراد أن يكتب إلا في استخلاف أبي بكر، ولقد ظهرت رزية ذلك، وكاد الناس أن يهلكوا في الاختلاف في من يلي أمر المسلمين بعده، ولقد هلكت الشيعة في ذلك، وتمادى ضلالهم إلى اليوم، نعوذ بالله من الضلالة / [٢١٢] بعد الهدى.

---

(١) البخاري [١١٤، ٣٠٥٣، ٤٤٣١]، ومسلم [١٦٣٧].

(٢) البخاري [٥٦٦٦]، ومسلم [٣٢٨٧] وما بين المعقوفين منه..

وعن عائشة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي مات طفقت أنفث عنه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه لبركتها، رواه البخاري[(١)].

ولهما عن أنس قال: لما كان يوم الاثنين والناس في صلاة الفجر، وأبو بكر يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم الناس أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[(٢)]. زاد ابن إسحاق[(٣)] في روايته عن الزهري عن أنس: وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أفاق من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح.

وكانت عائشة تقول: إن من نعم الله علي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته؛ ودخل علي عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى صدري، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه ذلك فأشار برأسه أن نعم، فتناوله فاشتد عليه، وقلت ألينه لك فأشار برأسه أن نعم، فلينته بأمره فاستن به وهو مستند إلى صدري، وبين يديه ركوة أو علبة - يشك عمر - فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء،

---

(١) البخاري [٤٤٣٩]، ومسلم [٢١٩٢].

(٢) البخاري [٦٨٠، ٤٤٤٨]، ومسلم [٤١٩].

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٠٠).

فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات[(١)]. وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إنه لن يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، وفي رواية: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وفي رواية فقلت: إذًا لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي يحدثنا به وهو صحيح، قالت: فكان آخر كلمة تكلم بها: اللهم الرفيق الأعلى[(٢)].

زاد ابن إسحاق[(٣)]: قالت عائشة: فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم[(٤)] مع النساء وأضرب وجهي، وفي رواية البخاري: فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)].

وعن الأسود قال: ذكر عند عائشة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى إلى علي، فقالت: من قال؟ لقد رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإني لمسندته إلى صدري، فدعا بالطست فانخنث، فمات وما شعرت، فكيف أوصى إلى علي[(٦)].

وعن طلحة قال: سألت ابن أبي أوفى: أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية وأمر بها؟ فقال: أوصى بكتاب الله، رواهن

(١) البخاري [٨٩٠، ٤٤٥٠، ٤٤٥١].
(٢) البخاري [٤٤٣٥، ٤٤٣٦]، ومسلم [٢٤٤٤].
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٠٥).
(٤) يعني: أضرب صدري.
(٥) البخاري [٤٤٤٦].
(٦) البخاري [٤٤٥٩].

البخاري[١]. وفي مسند أحمد[٢] أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يقول وهو يجود بنفسه: الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم حتى ما يفيض بها لسانه.

وعن عمرو بن الحارث قال: ما ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة[٣].

وعن عائشة: توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير. رواهما البخاري[٤].

وعن أنس بن مالك قال: لما ثقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال له: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراب؟.

وعن عائشة قالت: دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة في شكواه التي قبض فيها، فسارها فبكت ثم دعاها فسارها فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه فضحكت. رواهما البخاري[٥].

ويذكر أنه لما توفي جاءت التعزية؛ يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون

(١) البخاري [٤٤٦١].
(٢) مسند أحمد (٦/ ٣١١).
(٣) البخاري [٤٤٦١].
(٤) البخاري [٤٤٦٧].
(٥) البخاري [٤٤٦٢، ٤٤٣٣، ٤٤٣٤].

أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[(١)].

وتوفي يوم الاثنين[(٢)] نصف النهار لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة. وللبخاري عن أنس قال: مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا، فدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره بذلك قال: فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد عصب على رأسه حاشية برد، / [٢١٣] قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم[(٣)].

وله عن ابن عباس قال: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر، وعليه ملحفة منعطفًا بها على منكبيه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح للطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر به أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم[(٤)].

وله عن عائشة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وأبو بكر بالسُّنْح - قال إسماعيل: يعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله، ما مات رسول الله. قالت: وقال عمر: والله ما كان في نفسي إلا ذلك، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٥).
(٢) البخاري [١٣٨٧].
(٣) البخاري [٣٧٩٩].
(٤) البخاري [٣٨٠٠].

بكر على فرس من منزله بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله وهو مُغَشًّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس. وفي رواية: قال: أيها الحالف، على رسلك، فأقبل إليه الناس، وتركوا عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: أما بعد، فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤] الآية. قال: فنشج الناس يبكون. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها. قال ابن المسيب: قال عمر: والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، وعلمت أن رسول الله قد مات[(١)]، وعن ابن عباس قال: أنزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو ابن أربعين سنة، فقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. رواه البخاري[(٢)].

ولما عرفوا أنه مات دهش الناس وطاشت عقولهم، فمنهم من خبل ومنهم من أصمت، ولم يكن فيهم أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس.

---

(١) البخاري [١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٨، ٣٦٧٠].

(٢) البخاري [٣٥٣٦]، ومسلم [٢٣٤٩].

ذكر أمر سقيفة بني ساعدة

وفي البخاري في حديث عائشة [قالت][(١)]: اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلامًا أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، فتكلم أبو بكر أبلغ الكلام، فقال في كلامه: نحن الأُمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله، لا نفعل، منا أمير ومنكم، فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، إنهم أوسط العرب دارًا وأعزهم أحسابًا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل أبايعك فأنت خيرنا وأحبنا إلى رسول الله، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة فقال عمر: قتله الله.

قال القاسم في حديثه: فما كان من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقا فردهم الله بذلك، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم، فخرجوا وهم يتلون: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ الآية[(٢)].

وقال ابن إسحاق: ولما قبض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى آتٍ إلى أبي بكر وعمر، فقال: إنَّ هذا

(١) ما بين المعقوفين من صحيح البخاري.
(٢) البخاري [٢٤٦٢]، ومسلم [١٦٩١].

الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس من حاجة فأدركوا الناس من قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته لم يفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله. قال: فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه، فانطلقا يؤمانهم، فلقيهما رجلان صالحان: عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، فذكرا لهما ما تمالأ عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قالا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم قال عمر: والله لنأتينَّهم، فانطلقا حتى أتياهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مُزمَّل فقال عمر: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة. قال: ما له؟ قالوا: وجع. قال: فلما جلسنا تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد / [٢١٤] دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر، قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زورت مقالة قد أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أُداري منه بعض الجد، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته أو مثلها أو أفضل حتى سكت، قال: أَمَّا ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا وقد رضيت لكم هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة وهو جالس بيننا ولم أكره شيئا مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي ولا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي من أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، قال: فقال قائل من الأنصار الحباب بن المنذر: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المُرَجَّب، منا أمير

ومنكم أمير يا معشر قريش، قال عمر: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعه وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة قلت: قتل الله سعد بن عبادة [(١)].

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان رجوع الأنصار يوم سقيفة بني ساعدة بكلام قاله عمر، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقامه الذي أقامه فيه رسول الله؟ قالوا: كلنا لا تطيب أنفسنا، نستغفر الله، فلما فرغ أبو بكر من البيعة رجع إلى المسجد فقعد على المنبر، فبايعه الناس حتى أمسى وشغلوا عن دفن جهاز رسول الله حتى كان آخر الليل ليلة الثلاثاء مع الصبح.

قال ابن إسحاق[(٢)]: حدثني الزهري قال: حدثني أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له، ثم قال: أيها الناس، إنى كنت قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهدًا عهده إلي رسول الله، وكنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ـ يقول: يكون في آخرنا ـ وأن الله أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة سقيفة بني ساعدة.

---

(١) البخاري [٦٨٣٠] في حديث طويل.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٤١٣).

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أمَّا بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

وتخلف عن بيعته علي بن أبي طالب وبنو هاشم والزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص وسعد بن عبادة الأنصاري ثم إن الجميع بايعوا بعد موت فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا سعد بن عبادة فإنه لم يبايع أحدًا إلى أن مات وكانت بيعتهم بعد ستة أشهر.

وذكر موسى بن عقبة أن رجالا من المهاجرين غضبوا في بيعة أبي بكر؛ منهم علي والزبير فدخلا بيت فاطمة معهما السلاح، فجاءهما عمر في عصابة من المهاجرين والأنصار، فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن وقش وثابت بن قيس، فكلموهما حتى أخذ أحد القوم سيف الزبير، فضرب به الحجر حتى كسره ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم فقال: والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما قط ولا ليلة ولا سألتها الله قط سرًّا ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة وما لي في الإمارة من راحة ولقد قلدت أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم فقبل المهاجرون منه، وقال علي والزبير: ما غضبنا إلا أنا أخرنا عن المشورة، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ / [٢١٥] وإنه

لصاحب الغار وثاني اثنين وإنا لنعرف له شرفه ومنَّه، ولقد أمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة وهو حي[(١)].

وذكر غير ابن عقبة أن أبا بكر قام في الناس بعد مبايعتهم إياه يقيلهم من بيعته ويستقيلهم مما تحمله من أمرهم كل ذلك والله يقولون له: والله لا نقيلك ولا نستقيلك[(٢)].

وروي عن الحسن البصري عن علي قال: قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فصلى عنه بالناس وإني شاهد غائب وإني صحيح غير مريض ولو شاء أن يقدمني لقدمني، فرضينا لدنيانا من رضي الله عنه ورسوله لديننا[(٣)].

وفي الصحيحين[(٤)] عن عائشة أن فاطمة بنت رسول الله أرسلت إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها من رسول الله مما أفاء الله عليه بالمدينة وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة، وإنما يأكل آل محمد في هذا المال»، وإني والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئًا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته، ولم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي بن أبي طالب ليلًا ولم يؤذن بها أبا بكر فصلى عليها علي، وكان لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته ولم

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص٣٥١) بإسناده إلى موسى بن عقبة.
(٢) فضائل الصحابة لأحمد (١/ ١٣١).
(٣) في الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٣) بعضه.
(٤) البخاري [٤٢٤٠، ٤٢٤١]، ومسلم [١٧٥٩].

يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب، فقال عمر لأبي بكر: والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بي؟ إنى والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علي بن أبي طالب ثم قال: إنا يا أبا بكر قد عرفنا فضيلتك وما أعطاك الله ولم ننفس خيرًا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لنا حقًّا لقرابتنا من رسول الله، فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عينا أبي بكر فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فإني لم آل فيها عن الحق ولم أترك أمرا رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنعه فيها إلا صنعته، فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقِيَ على المنبر، فذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره الذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي بن أبي طالب فعظم حق أبي بكر، وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكار للذي فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيبا فاستبد علينا به فوجدنا في أنفسنا، فسر بذلك المسلمون وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريبًا حين راجع الأمر المعروف.

ذكر غسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفينه ودفنه

ولما فرغ الناس من بيعة أبي بكر وجمعهم الله عليه وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر وحسين بن عبد الله وغيرهما أن علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وقثم بن العباس وشقران مولى رسول الله وأسامة بن زيد هم الذين ولوا غسله، وأن أوس بن خولي وكان بدريًا دخل معهم،

وحضر غسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسنده علي إلى صدره وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله، قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول الله، وعلي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيا وميتًا، ولم ير من رسول الله ما يرى من الميت[(١)].

حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: لما أرادوا غسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله من ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن غسلوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليه ثيابه. قالت: فقاموا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكون والقميص دون أيديهم، فلما فرغ من غسله كفن في ثلاثة أثواب؛ [ثوبين] صحاريين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجًا[(٢)].

وحدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما أرادوا أن يحفروا / [٢١٦] لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهيل هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة، اللهم خِر لرسول الله فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول الله فلما فرغ من جهازه يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٤١٥-٤١٦).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٤١٦).

في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض، فرفع فراش رسول الله الذي توفي عليه فحفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلون عليه أرسالًا، [دخل][(١)] الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء وكان الذين نزلوا في قبره علي بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا العباس وشقران مولاه وأوس بن خولي وجعل تحته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطيفة كان يلبسها ويفترشها وقال علي: آخر الناس عهدًا به قثم بن عباس[(٢)].

ذكر الردة

قال ابن إسحاق[(٣)]: ولما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة فيما بلغني تقول: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر.

قال ابن هشام[(٤)]: حدثني أبو عبيدة وغيره أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله هموا بالرجوع عن الإسلام، حتى خافهم عتاب بن أَسِيْد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: وإنَّ ذلك

(١) ما بين المعقوفين من سيرة ابن هشام (٤/ ٤١٨).
(٢) انتهى سيرة ابن هشام (٤/ ٤١٧-٤١٨).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٢١).
(٤) المرجع السابق.

لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا، وكان هذا هو المقام الذي أراده رسول الله حيث قال لعمر وقد قال له: أنزع ثنيتي سهيل، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه عسى يقوم مقامًا يسرك**».

وفي معالم التنزيل[(١)]: لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدَّ عامة العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس، انتهى.

وممن تمسك بالإسلام ما بين المسجدين وأسلم وغفار وجهينة ومزينة وكعب وثقيف، قام فيهم عثمان بن أبي العاص وأقامت طي كلها على الإسلام، قام فيهم عدي بن حاتم وهذيل وأهل السراة وبجيلة وخثعم، ومن قارب تهامة من هوازن: نضر وجشم وسعد بن بكر وعبد القيس: قام فيهم الجارود، وعبس وبعض أشجع ودوس وتجيب وهمدان، وارتد عامة تميم وأسد وغطفان وطوائف من سليم وأهل اليمامة كلهم وبكر بن وائل وأهل البحرين وأهل دبا وأزْد عمان والنمر بن قاسط وكلب ومن قاربهم من قضاعة وفزارة وبني عامر بن صعصعة، وقيل: تربصوا ينتظرون لمن تكون الدائرة.

وفي الصحيح[(٢)] عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله، فمن قال: لا اله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقها وحسابه على الله؟ فقال أبو بكر:

---

(١) هو تفسير البغوي (٢/ ٤٥).

(٢) البخاري [٦٩٢٤].

والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأقاتلنهم على منعه. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. قال: عمر والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا في قتال أهل الردة.

وروى رزين عن عمر قال: قلت: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم فقال لي: أَجَبَّار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي؟[(١)]. وفي كتاب الواقدي من قول عمر لأبي بكر: إنما شحت العرب على أموالها، وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئًا، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة.

وذكر يعقوب بن محمد الزهري عن جماعة من شيوخه قال: كان أبو بكر أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم، وأمير الصابرين الذين صبروا على جهاد عدوهم وهم أهل الردة، وبرأي أبي بكر أجمعوا على قتالهم، وذلك أن العرب افترقت في ردتها، فقالت فرقة لو كان نبيًّا ما مات وقال بعضهم: انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحدًا بعده وفي ذلك يقول قائلهم وهو الحطيئة:

أطعنا رسول الله ما عاش بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر

/ [٢١٧] أيورثها بكرا إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر[(٢)]

وقال بعضهم: نؤمن بالله ونشهد أن محمدًا رسول الله ونصلي، ولكن لا نطيعكم في أموالنا. قلت: وفي هؤلاء وقعت الشبهة والمراجعة بين أبي بكر وعمر وغيره حتى ناظرهم أبو بكر، فرجعوا إلى قوله وتبين لهم صوابه في قتالهم انتهى.

---

(١) مشكاة المصابيح (٣/ ١٧٠١) [٦٠٣٤].

(٢) الاكتفاء (٣/ ٩)، والبداية والنهاية (٦/ ٣١٣).

وجادل أبا بكر أصحابُه في جهادهم، وكان أشدهم عليه عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة فقالوا: احبس جيش أسامة يكون عمارة وأمانا بالمدينة، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر، فإن هذا الأمر شديد غوره، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا: قاتل بمن معك من ارتد، وقد اتفقت العرب على الارتداد، فهم بين مرتد ومانع صدقة مثل مرتد وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك، قد قدم رجلا وأخر رجلا فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده، لو علمت أن السباع تأكلني بهذه القرية، لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإنفاذه، ولا أحل لواء عقده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده، ثم قال لأسامة: إن رأيت أن تخلف معي عمر فافعل، وأمره بالانتهاء إلى ما أمر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشيعه ماشيا وأسامة راكب، لأنه أقسم عليه أن لا ينزل، ومضى أسامة، فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم، فهزموهم ورجعوا سالمين[1].

وجد بأبي بكر الجد في قتال أهل الردة، وأراد الله رشده فيهم وعزم على الخروج بنفسه إليهم، وأمر الناس بالجهاز وخرج هو في مائة من المهاجرين والأنصار، وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بتعًا يريد أن يتلاحق الناس ويكون أسرع لخروجهم ووكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم وأشار عليه عمر وغيره بالرجوع، وقالوا: ارجع يا خليفة رسول الله، تكن فئة للمسلمين، فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل الحق، وأبو بكر مظهر المسير بنفسه، وسألهم بمن نبدأ من أهل الردة؟ فاختلفوا عليه. قال: فقال أبو بكر: نعمد لهذا الكذاب على الله وعلى رسوله طليحة،

(١) البداية والنهاية، (٤/ ٢١٥)، تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٥).

ولما ألحوا على أبي بكر بالرجوع وعزم هو عليه استعمل خالد بن الوليد، وقال: يا خالد، عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه والجهاد في سبيله، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار، ورجع أبو بكر ومن معه وسار خالد حتى نزل على طي في جبليهم سلمى وأجا، وانضم إليه عدي بن حاتم ومن كان معه من المسلمين في تلك القبائل[(١)].

وسار إلى طليحة وهو على ماء من مياه أسد، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ثم انهزم طليحة وانهزم الناس ثم لحق بالشام ثم جاء طليحة بعد ذلك، فأسلم وحسن إسلامه وقتل بنهاوند شهيدًا، فدخلت القبائل في الإسلام: بنو حنظلة وأسد وفزارة وغطفان وبنو عامر وبنو سليم وغيرهم وبايعوه على الإسلام، وأخذ كل ما ظهر من سلاحهم واستحلفهم على ما غيبوا منه، فإن حلفوا تركهم وان أبوا شدهم أسرى حتى أتوا بما عندهم، فأخذ سلاحًا كثيرًا، فأعطاه أقوامًا يحتاجون إليه في قتال عدوهم وكتبه عليهم ثم رَدَّه بعد فقدم به على أبي بكر[(٢)].

وعن ابن عمر قال: شهدت بزاخة مع خالد، فأظفرنا الله على طليحة وكنا كلما أعزنا الله على قوم سبينا الذراري واقتسمنا الأموال[(٣)].

وعن يزيد بن شريك الفزاري قال: قدمت مع أسد وغطفان على أبي بكر، وافدًا حين فرغ خالد من بزاخة وجعلت أسد وغطفان تسلل، فاجتمعوا عند أبي بكر، فمنهم من بايع خالدًا ومنهم من لم يبايعه، فجاءوا إلى أبي بكر، فقال: اختاروا بين خصلتين: حرب مجلية أو سلم مخزية. قال: فقال خارجة بن حصن: الحرب المجلية

(١) الاكتفاء (٣/ ٢١).
(٢) الاكتفاء (٣/ ٣٣).
(٣) الاكتفاء (٣/ ٢٩).

قد عرفتها، فما السلم المخزية؟ قال: تقرون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وأن تردوا علينا ما أخذتم منا ولا نرد مما أخذنا منكم شيئا، وأن تدوا قتلانا دية كل قتيل مائة بعير، منها أربعون في بطونها أولادها ولا ندي قتلاكم، وأن نأخذ منكم الحلقة والكراع وتلحقون بأذناب الإبل حتى يُري الله خليفة نبيه والمؤمنين ما شاء فيكم أو يرى منكم إقبالًا إلى ما خرجتم منه. فقال خارجة: نعم يا خليفة رسول الله، قال أبو بكر: عليكم عهد الله وميثاقه أن تقوموا بالقرآن آناء الليل وآناء النهار، وتعلموه أولادكم ونسائكم، ولا تمنعوا فرائض الله في أموالكم / [٢١٨] قالوا: نعم، قال عمر: يا خليفة رسول الله، كل ما قلت كما قلت إلا أن يدوا من قتل منا، فإنهم قوم قتلوا في سبيل الله فتتابع الناس على قول عمر، وقبض أبو بكر[(١)] كل ما قدر عليه من الحلقة والكراع، فلما توفي أبو بكر رأى عمر أن الإسلام قد ضرب بجرانه، فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم[(٢)]. وأصله في صحيح البخاري من حديث طارق بن شهاب بنحوه مختصرًا[(٣)].

ثم توجه خالد إلى اليمامة لحرب مسيلمة الكذاب، وكان خالد في بضعة عشر ألفًا، ومع مسيلمة أربعون ألفًا، فقتل الله مسيلمة وقتل من أصحابه عشرة آلاف، وكانت الهزيمة أولًا على المسلمين حتى دخل أصحاب مسيلمة فسطاط خالد، [فرعبلوا][(٤)] الفسطاط بالسيف، ثم حمل عليهم المسلمون وقاتلوهم قتالاً شديدًا، حتى قتل الله محكم بن الطفيل وفتح الله على المسلمين، واشترك في قتل مسيلمة

(١) في المخطوط: «عمر»، والصواب ما أثبته من الاكتفاء (٣/ ٣٤).
(٢) الاكتفاء (٣/ ٣٤).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣٩).
(٤) في المخطوط: «فرغلوا»، والصواب ما أثبته، ومعناه: قطَّعوا.

وحشي بن حرب قاتل حمزة ورجل من الأنصار، وكان وحشي يقول: ربك أعلم أيُّنا قتله، وقتل من خيار المسلمين نحو ألف رجل، منهم زيد بن الخطاب وثابت بن قيس وأبو دجانة وعباد بن بشر وسالم مولى أبي حذيفة، ثم صالح مجاعة خالدًا على من في الحصن من قومه بعد أن خدع خالدًا، وبعث إلى قومه وأمرهم أن يلبسوا النساء السلاح، ويشرفوهن والذراري على رؤوس الحصون، وقال له: انظروا إلى المقاتلة والسلاح، وكان المسلمون يرون أنه لم يبق من مقاتلتهم أحد، فلما راوا ذلك ظنوا صدق ما قال، فصالحه خالد على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ونصف السبي، وكان أبو بكر يستروح الخبر عن اليمامة، وكان قد رأى في النوم كأنه أتي بتمر من هجر، فأكل منه تمرة واحدة وجدها نواة على خلقة التمر، فلاكها ساعة ثم رمى بها، فتأولها، فقال: ليلقين خالد من أهل اليمامة شدة، وليفتحن الله على يديه، فأرسل خالد أبا خيثمة بشيرا إلى أبي بكر، فلما رآه قال: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خيرا يا خليفة رسول الله، قد فتح الله علينا اليمامة، فسجد أبو بكر.

وقال زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون ومن الأنصار سبعون ومن سائر الناس خمسمائة، وفي البخاري[(١)] عن قتادة قال: ما نعلم حيا من أحياء العرب أكثر شهيدا وأعز يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: حدثنا أنس أنه قتل منهم يوم أحد سبعون ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون، وزاد غيره: وفي جسر أبي عبيدة سبعون[(٢)].

---

(١) البخاري [٤٠٧٨].

(٢) انظر: الفتح (٧/ ٣٧٦).

ذكر مسير خالد إلى العراق

ولما فرغ خالد من قتال أهل اليمامة وأهل الردة انصرف راجعا إلى المدينة، وقيل: لما دخلت السنة الثانية من خلافة أبي بكر كتب إلى خالد: إذا فرغت من اليمامة فسر إلى العراق، فقد وليتك حرب فارس والحيرة، فسار خالد إلى العراق في بضعة وثلاثين ألفًا، فصالح أهل السواد ثم أقبل حتى نزل الحِيرة[(١)]، وكان عليها قبيصة بن إياس الطائي أميرًا لكسرى، فصالح خالدًا أيضًا على تسعين ألف درهم كل سنة، فكانت أول جزية وقعت بالعراق، ثم سار خالد إلى الأُبُلة[(٢)]، وخرج هرمز في مائة وعشرين ألفًا، فالتقى مع خالد واقترنوا في السلاسل، فقيل لهم: قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا، فإن هذا طائر سوء، فأجابوهم أما أنتم فتحدثونا أنكم تريدون الهرب، ثم زحف إليهم [فاقتتلوا] فانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، فقتل الله من المشركين سبعين ألفًا، وقتل خالد هرمزًا، ونفله أبو بكر قلنسوته، وكانت تساوي مائة ألف، وسميت هذه الواقعة ذات السلاسل[(٣)].

وكتب خالد إلى كسرى:

بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى الملك كسرى والملوك، أما بعد فالحمد لله الذي فرق كلمتكم وكسر شوكتكم، فأسلموا تسلموا وإلا فأدوا الجزية

---

(١) مدينة كانت على شاطئ الفرات الغربي، كانت عاصمة ملوك لخم. وقد احتلت اليوم مدينة النجف موقع الحيرة على أميال من آثار الكوفة. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٠٧-١٠٨).

(٢) بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. معجم البلدان (١/ ٧٧).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٣١٠)، والاكتفاء (٤/ ٧٤).

وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. فلما قرؤوا كتابه أخذوا يتعجبون، فصالحوا على مائة ألف وتسعين ألفا في كل سنة[١].

ثم قصد خالد الروم وكان أبو بكر كتب إليه بذلك، انتهى.

وارتدت ربيعة بالبحرين كما تقدم إلا الجارود بن عمرو، فإنه ثبت على الإسلام فيمن تبعه من قومه عبد القيس، وعلى البحرين يومئذ العلاء بن الحضرمي، وكان بعثه عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحاصرهم المشركون بجواثا - حصن بالبحرين - وأصاب المسلمين جهد شديد من الجوع، حتى كادوا أن يهلكوا، فخرج عبد الله بن حذافة ليلة من الليالي ليتجسس أخبارهم، فوجدهم سكارى فأخبر المسلمين بذلك، فبيتهم العلاء ومن / [٢١٩] معه من المسلمين، فقتل من قتل منهم وأصبح ما أفاء الله على المسلمين من خيولهم عند العلاء في جواثا، فقاتلهم قتالًا شديدًا وهزمهم الله حتى لحقوا إلى باب المدينة فتحصنوا بها فضيق عليهم فطلبوا الصلح والأمان فصالحوهم على ثلث ما في المدينة بأيديهم من أموالهم وما كان من شيء خارج عنها فهو له، فبعث العلاء بمال كثير إلى المدينة، فلما ظهر العلاء على أهل الردة من أهل البحرين بعث أربعة عشر رجلًا من رؤساء عبد القيس وفدًا إلى أبي بكر، فنزلوا على طلحة والزبير فدخلوا إلى أبي بكر وأخبروه بمسارعتهم إلى الإسلام وقيامهم في أهل الردة، ثم دخل القوم على أبي بكر وعنده طلحة والزبير، فسألوه أن يعطيهم أرضًا من البحرين وطواحين، فأسعف أبو بكر وقال: اشهدوا أني فعلت وأعطيتهم كل ما سألوني، وعرفت لهم قدر إسلامهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، فلما خرجوا من عنده أقرؤوا عمر الكتاب، فلما قرأه تفل فيه فرجعوا إلى أبي بكر فأخبروه، ودخل

(١) الاكتفاء (٤/ ٩٦).

طلحة والزبير فقالا: والله لا ندري، أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: وما ذاك؟ فأخبروه فقال أبو بكر: لئن كان عمر كره من ذلك شيئًا فإني لا أفعله، فبينما هم على ذلك إذ أقبل عمر فقال له أبو بكر: ما كرهت من هذا الكتاب؟ فقال: كرهت أن تعطي خاصة دون عامة، ولكن اجعل أمر الناس عندك واحدًا، لا يكون عندك خاصة دون عامة، فتأبى أن تفضل أهل السابقة وأهل بدر وتعطي هؤلاء قيمة عشرين ألفا دون الناس فقال أبو بكر: وفقك الله وجزاك خيرًا فهذا هو الحق[(١)].

وفي أيام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَنَبَّتْ سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، واتبعها بنو تميم وأخوالها من تغلب وغيرهم من بني ربيعة، وقصدت مسيلمة فأرسل إليها: هل لك أن أتزوجك فيقال نبي تزوج نبية؟ قالت: نعم فأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت إلى قومها ثم أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها[(٢)].

ذكر خبر الأسود العنسي وقتله

وفي مدة مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل الأسود العنسي واسمه عبهلة، وكان يشعوذ ويري الجهال الأعاجيب، وادَّعى النبوة وكاتبه أهل نجران، وسار الأسود من نجران إلى صنعاء، فملكها وصفا له الملكُ باليمن، واجتمع جماعة من المسلمين في قتله، واجتمعوا بامرأته، وكان الأسود قد قتل أباها، فقالت: والله إنه لأبغض الناس إليَّ، ولكن الحرس محيطون بقصره، فانقبوا عليه البيت، فواعدوها على ذلك ونقبوا عليه، فدخل عليه فيروز الديلمي فقتله واحتزَّ رأسه، فخار خوار الثور، فابتدر الحرس الباب، فقالت زوجته: هذا النبي يوحى إليه، فلما طلع الفجر أمروا

(١) الاكتفاء (٣/ ٩٠).

(٢) نحوه في الاكتفاء (٣/ ٤٢).

المؤذن فقال: أشهد أن محمدًا رسول الله وأن عبلهة كذاب، وكتب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه بذلك، فورد الخبر من السماء إلى النبي وأعلم أصحابه بقتل الأسود، ووصل الكتاب بقتله في خلافة أبي بكر، فكان كما أخبر[١].

وفي الصحيح[٢] قال عبيد الله بن عبد الله: سألت ابن عباس عن رؤيا رسول الله فقال ابن عباس: ذكر لي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بينا أنا نائم رأيت أنه وضع في يدي سواران من ذهب، فقطعتهما وكرهتهما، فأذن لي فنفختهما، فطارا فأولتهما كذابين يخرجان. قال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز، والآخر مسيلمة الكذاب.

وفي هذه السنة - وهي الأولى من خلافة أبي بكر - ماتت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي بنت تسع وعشرين.

وفيها أمر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيد بن ثابت بجمع القرآن لما رأى كثرة من قتل من القراء يوم اليمامة كما في البخاري[٣] عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر عنده جالس، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أَنْ يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن [قلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورايت في ذلك الذي راى عمر][٤]. قال زيد: فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٢٥٠)، والبداية والنهاية (٦/ ٣١٠).
(٢) البخاري [٤٣٧٥]، ومسلم [٢٢٧٤].
(٣) البخاري [٤٩٨٦].
(٤) ما بين المعقوفين من صحيح البخاري.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَتَبَّع القرآن فاجمعه. [فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن][(١)] قال زيد: قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكر: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني، وفي رواية: فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[(٢)].

زاد ابن شهاب عن أنس أن حذيفة قدم على عثمان وكان يغازي / [٢٢٠] أهل الشام مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القرآن، فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه، فأمر بنسخها، وأرسل إلى كل أُفق بمصحف وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[(٣)]، انتهى.

ولما دخل شهر ذي الحجة أمَّرَ أبو بكر عمر على الحج، فخرج بالناس سنة إحدى عشرة، فحج بالناس واشترى في حجته تلك مولاه أسلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة، فبعث أبو بكر الجنود إلى الشام: بعث عمرو بن العاص إلى فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن

(١) ما بين المعقوفين من صحيح البخاري.
(٢) البخاري [٤٦٧٩].
(٣) البخاري [٤٩٨٧].

حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى الشام، وأمرهم أن يأخذوا طريق الشام من أعلى الشام، وخرج أبو بكر مع يزيد يوصيه ويزيد راكب وأبو بكر يمشي، فقال له يزيد: إما أن تركب وإمَّا أن أنزل فقال: ما أنا براكب ولا أنت بنازل، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله. ثم مضوا ونزلت الروم بثنية جلق بأعلى فلسطين في سبعين ألفًا عليهم تذارق أخو هرقل، فكتب عمرو بن العاص إلى أبي بكر يخبره ويستمده، فكتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحيرة يأمره أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة، ويستخلف على ضعفة الناس رجلًا منهم، وقال له: إذا التقيتم فأنت أمير الجماعة فسار خالد بأهل القوة، وردَّ الضعفاء والنساء إلى المدينة، واستخلف على من أسلم في العراق وغيرهم المثنى بن حارثة الشيباني.

ثم سار خالد حتى أغار على غَسَّان بمرج راهط[1]، ثم سار حتى نزل على قناة بُصْرَى وعليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد، فصالح أهل البصرى حين رأوا كثرة العسكر على الجزية، وفتحها الله للمسلمين، وكانت أول مدينة فتحت من مدائن الشام.

ثم ساروا جميعًا مددًا لعمرو بن العاص إلى فلسطين، فسمع الروم باجتماع المسلمين، فانكشفوا إلى أجنادين، فسار المسلمون إليها فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فهزم الله المشركين وقتل المسلمون منهم في المعركة ثلاثة آلاف، واتبعوهم يأسرون ويقتلون، فخرج فل الروم إلى إيليا وقيسارية ودمشق، وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام، وكانت في جمادى الأولى قبل وفاة أبي بكر بأربع وعشرين ليلة.

ثم ساروا إلى دمشق فحاصروها، فبينما هم كذلك أتاهم آتٍ فأخبرهم أنَّ هذا جيش قد جاءكم من قبل ملك الروم، فنهض خالد بالناس على تعبئة حتى لقوهم،

(١) موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء. معجم البلدان (٣/ ٢١).

فهزمهم الله ورجع الناس قد ظفروا، ويقال لهذه الوقعة «يوم مرج الصفراء»، ثم رجعوا إلى دمشق فحاصروها وضيقوا عليهم، فكان المسلمون يغيرون، فكلما أصاب رجل منهم شيئا جاء به يلقيه في القبض، لا يستحل أن يأخذ منه قليلًا ولا كثيرًا، فسأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وسيرتهم، فوصفهم له بهذه الصفة في الأمانة، ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام، فقال: هؤلاء رهبان بالليل أسود بالنهار، لا والله، ما لي بهؤلاء من طاقة، وما لي في قتالهم خير، فراود المسلمين على الصلح.

وفي هذه السنة مات الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مساء ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة بين المغرب والعشاء، وفي سبب موته قولان: أحدهما أن اليهود سمته، والثاني أنه اغتسل في يوم بارد فحم، فأمر عمر أن يصلي بالناس، وقيل له في مرضه: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: قد رآني. فقالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد[1].

ولما أَيِسَ من الحياة دعا عثمان وأملى كتاب العهد لعمر فقال:

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا عنها وأول عهده بالآخرة داخلًا فيها وحين يؤمن الكافر ويوقن الفاجر إني استخلفت.

ولما انتهى إلى الموضع غشي عليه، فكتب عثمانُ: «عمرَ بن الخطاب»، فأمسك حتى أفاق أبو بكر، قال: أكتبت شيئًا؟ قال: كتبت عمر بن الخطاب. فقال: جزاك الله عن الإسلام وأهله خيرًا. ثم رفع أبو بكر يديه، وقال: اللهم وليتهم خيرهم، ولم أُرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به،

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٩٨).

وقد حضرني من أمرك ما قد حضر، فاجتهدت لهم الرأي، ووليت عليهم خيرهم لهم وأحرصهم على رشدهم، ولم أُرِد محاباة عمر، وأنا خارج عن الدنيا وداخل في الآخرة / [٢٢١] فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم واليهم عمر واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبيه نبي الرحمة وهدي الصالحين بعده، وأصلح له أمر رعيته[(١)].

وكتب بهذا العهد إلى أمراء الأجناد: إني قد وليت عليكم خيركم، ولم آلُ نفسي ولا المسلمين خيرًا، ثم دعا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: إني مستخلفك على أصحاب رسول الله، يا عمر، إن لله حقًّا في الليل لا يقبله في النهار، وحقًّا في النهار لا يقبله في الليل، وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غير الحق غدًا أن يكون ثقيلًا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غير الباطل أن يكون خفيفًا. يا عمر، إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا، فلا ترغب رغبة فتتمنى على الله فيها ما ليس لك ولا ترهب فيها رهبة تلقي فيها ما بيدك، إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم ما كان من حسن أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو أن أكون من هؤلاء، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء، فإذا ذكرتهم قلت: أي عمل من أعمالهم أعمل؟ فإن حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت، وهو نازل بك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أكره إليك من الموت، ولست تعجزه[(٢)].

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٧١).

وبلغ أبا قحافة وهو بمكة موت ابنه سمع الهائعة، فقال: ما هذا؟ فقيل: مات ابنك فقال: رزء جَلٌّ، قال: فإلي من عهد؟ قالوا: إلى عمر. قال: صاحبه[(١)].

ومات بمكة عتاب بن أسيد يوم مات الصديق، وكانا قد سُمَّا جميعًا.

وكان عمر أبي بكر ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته سنتين وثلاثه أشهر وثمانية أيام، وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس.

ولما توفي ارتجت المدينة بالبكاء، وصلى عليه عمر في مسجد رسول الله، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن، وكان له من الولد ستة: ثلاثة بنين عبد الله وهو أكبرهم وعبد الرحمن وهو شقيق عائشة ومحمد، وثلاث بنات: عائشة وأسماء وهي أكبرهن وأم كلثوم، مات وهي في بطن أمها.

وعن عائشة قالت: لما مرض أبو بكر قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي يحمل صبيانه، وإذا ناضح كان يسقي بستانًا له، فبعثنا بهما إلى عمر، فبكى عمر وقال: رحمة الله على أبي بكر، لقد أتعب من بعده تعبًا شديدًا[(٢)].

وعنها قالت: ما ترك أبو بكر دينارًا ولا درهمًا ضرب الله سكته[(٣)].

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بويع له بالخلافة يوم مات أبو بكر، وكان أول كلام تكلم به حين صعد المنبر أن قال: اللهم إني شديد فَلَيِّنِّي، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخني[(٤)]، أيها الناس، القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق، والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٠).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٤٦٦).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٩٥)، والزهد لهناد (٢/ ٣٧٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٤).

وهو أول خليفة دُعِيَ بأمير المؤمنين، وأول من وضع التاريخ بعام الهجرة، وضعه في السنة السابعة عشرة، وهو أول من جمع الناس على إمام واحد في قيام رمضان، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس، وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظًا يا عمر»، وحج بالناس عشر حجج متواليات، وحج بأزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حجة حجها[(١)].

وكان في أيامه فتوح الأمصار، منها دمشق، فتحت صلحًا على يد أبي عبيدة وخالد، وكان عمر قد عزل خالدًا واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس، وكان قد قدم على أبي عبيدة كتاب عمر بعزل خالد وتوليته، فاستحيى أبو عبيدة أن يقرئه الكتاب، فلما فتحت أظهر أبو عبيدة ذلك.

ثم فتح الله الروم وطبرية وقيسارية وفلسطين وعسقلان، وسار عمر بنفسه، ففتح بيت المقدس صلحًا، وفتحت أيضًا بعلبك وحمص وحلب وقنسرين وأنطاكية وجلولاء والرقة وحرَّان والموصل والجزيرة ونصيبين وآمد والرها، وفتحت القادسية والمدائن على يد سعد بن أبي وقاص، وزال ملك الفرس وانهزم يزدجرد ملك الفرس، ولجأ إلى فرغانة والترك، وفتحت أيضًا كورة الأُبُلَّة على يد عتبة بن غزوان، وفتحت كور الأهواز / [٢٢٢] والجابية على يد أبي موسى، وفتحت نهاوند وإصطخر وأصبهان وبلد فارس وتستر وسوس وهمذان والنوبة والبربر، وفتحت أذربيجان وبعض أعمال خراسان، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص غرة المحرم سنة عشرين، وفتح عمرو أيضًا الإسكندرية وطرابلس الغرب وما يليها من الساحل. وفي حياة الحيوان[(٢)]: وعدُّوا مما فتح رأس العين والخابور وبيسان ويرموك والري وما بينهما.

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٨٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٦٠٧).

وفي أيام عمر مُصِّرت البصرة سنة سبع عشرة والكوفة، ونزلها سعد بن أبي وقاص.

وفي سنة ثمان عشرة كان عام الرمادة، واستسقى عمر بالعباس، فسقي، وفيها كان طاعون عمواس؛ مات فيه خمسون ألفا، منهم: أبو عبيدة ومعاذ وغيرهم من الصحابة.

وعن طارق قال: لما قدم عمر الشام لقيه الجنود وعليه عمامة، وقد خلع خفيه وهو يخوض الماء آخذ بزمام راحلته، وخفاه تحت إبطه، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، الآن تلقاك الأمراء وبطارقة الشام وأنت هكذا؟ فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله[(١)].

وعن معاوية أنه قال: أما أبو بكر فإنه لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته ولم يردها، وأما عثمان فأصاب منها وأمَّا نحن فتمرغنا فيها ظهرًا لبطن[(٢)].

قيل: كان في خدَّيْ عمر خطان أسودان من البكاء.

وكثر المال في دولته إلى الغاية، حتى عمل بيت المال ووضع الديوان، وفضل أهل السابقة على غيرهم، ورتب لرعيته ما يكفيهم، وفرض للأجناد.

ولما استخلفه أبو بكر كره بعضهم إمارته، وقال له طلحة: تولي علينا فظًا غليظًا، ما تقول لربك إذا لقيته؟ فقال أبو بكر: ساندوني، فأجلسوه، فقال: أبالله تخوفوني؟ أقول: استخلفت عليهم خير أهلك، وحلفت، ما تركت أحدًا أشد حبا له من عمر، وستعلمون إذا فارقتموه وتنافستموها[(٣)].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٠).

(٢) تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/ ١٩٩) بمعناه.

وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١]، وابنة شعيب حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر[(١)].

ذكر مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ملازمًا للحج في سني خلافته، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة في موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية، ويحجز عنهم الظلم، ويتعرف أحوالهم في قرب، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم.

وقال سعيد بن المسيب: لما صدر عمر من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم كبر سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط[(٢)]، ثم قدم المدينة فخطب الناس، فما انسلخ شهر ذي الحجة حتى قتل.

روي أن عمر لما انصرف من حجته التي لم يحج بعدها أتى ضَجَنان[(٣)] فوقف، فقال: الحمد لله، ولا إله إلا الله، يعطي من يشاء ما يشاء، لقد كنت بهذا الوادي أرعى إبلا للخطاب، وكان فظًا غليظًا يعيبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أصبحت وأمسيت وليس بيني وبين الله أحد أخشاه، ثم تمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٥).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٩١).

(٣) حرة شمال مكة يمر الطريق بنغفها الغربي، على مسافة ٥٤ كيلًا على طريق المدينة، تعرف اليوم بحرة المحسنية. معجم المعالم الجغرافية (ص ١٨٣).

لم تغن عن هرمزٍ يومًا خزائنُه ... والخلدَ قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والجن والإنس فيما بينها تَرِد
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يومًا كما وردوا[(١)]

وعن حفصة بنت عمر وأسلم مولاه عن عمر أنه قال: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك. قالت حفصه: فقلت: أَنَّى يكون هذا؟ قال: يأتيني الله به إذا شاء. رواه البخاري[(٢)].

وفي الصحيحين[(٣)] ولفظه لمسلم عن معدان بن طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة، فذكر نبي الله وذكر أبا بكر ثم قال: إني رأيت كأن ديكًا نقرني ثلاث نقرات، وإني لا أُراه إلا حضور[(٤)] أجلي، وإنَّ أقوامًا يأمرونني أن أستخلف عليكم، وإنَّ الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ولا الذي بعث به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن عجل بي أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ. وإني قد علمت أن أقوامًا يطعنون في هذا الأمر. أَنَا ضربتهم بيدي هذه على الإسلام، / [٢٢٣] فإن فعلوا ذلك فأولئك أعداء الله الكفرة الضُّلاَّل، ثم إني لا أدع بعدي شيئًا أهم عندي من الكلالة، وما راجعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال:«يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟»، وإن

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٥٧).
(٢) البخاري [١٧٩١].
(٣) الحديث لم يخرجه البخاري، وأخرجه مسلم [٥٦٧] إلى قوله: «فليمتهما طبخًا».
(٤) في المخطوط: «لحضور»، وما أثبته من صحيح مسلم.

أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأه، ثم قال: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم عليهم ليعدلوا وليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، ويقسموا فيئهم، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم، ثم إنكم - أيها الناس - تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، البصل والثوم، فلقد رأيت رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأُخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخًا. فما كانت إلا الجمعة الأخرى حتى طعن عمر. انتهى.

وروي أن عمر خرج يومًا يطوف بالسوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانيًّا أو مجوسيًّا فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة أثقل علي غلتي، فكلمه يخفف عني، قال: فما صناعتك؟ قال: نجار حداد نقاش، قال: ما أرى خراجك كثيرًا، قال: قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحى، فقال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ثم انصرف عنه، فقال عمر: لقد توعدني العلج آنفًا[(١)].

وفي حديث عمرو بن ميمون في البخاري[(٢)]: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللًا قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللًا قام فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ونحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كَبَّر، فسمعته يقول: قتلني أو - أكلني - الكلب حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينًا أو شمالًا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا، فمات منهم [سبعة][(٣)]، فلما رأى ذلك رجل

(١) في الطبقات لابن سعد (٣/ ٣٤٥) نحوه.
(٢) البخاري [٣٧٠٠].
(٣) في المخطوط: «تسعة»، والمثبت من صحيح البخاري.

من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، فتناول عمر [يد][(١)] عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى الذي رأيت، وأما نواحي المسجد فإنهم ما يدرون ما الأمر، غير أنهم فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلني، فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال: الصَّنَعُ؟ ثم قال: قاتله الله، لقد كنت أمرت به معروفًا. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل مسلم، قد كنتَ وأبوك تحبان أن تكثر العُلُوج بالمدينة، ثم احتمل إلى بيته فانطلقنا معه. قال: فكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يؤمئذ، فأُتِي بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أُتِيَ بلبن فشرب منه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت، وجاء رجل شاب، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، ببشرى الله، قد كان لك من صحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدمٍ في الإسلام، ثم وليت فعدلت ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كفافًا لا لي ولا علي، فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك؛ فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

يا عبد الله، انظر ما علي من الدَّيْن، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوها فقال: إن وفى به مال آل عمر، فأدِّه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف به أموالهم فسل في قريش، ولا تَعْدُهُم إلى غيرهم، وأدِّ عَنِّي هذا المال.

انطلق إلى أمِّ المؤمنين عائشة، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين بأمير، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، قال: فسلَّم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ

(١) ما بين المعقوفين من البخاري.

عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأُوثرنه اليوم على نفسي. ثم أقبل قيل: هذا عبد الله قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين: أَذِنَت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم من ذلك إلي، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّم وقل: يستأذن عمر، فإن أذنت فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين. فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أرى أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راض، فسمَّى عليًا وعثمان وطلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يَشْهَدُكُمْ عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء / [٢٢٤] - كهيئة التعزية له -، فإن أصابت الإمرة سعدًا فذالك، وإلا فليستعن به أَيُّكُم ما أُمِّرْ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضًا منهم، وأوصيه بالأعراب خيرًا، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله تعالى وذمة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

قال سعد بن أبي وقاص: طعن عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة. انتهى[(١)].

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٦٥).

ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم، ونزل في قبره عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وكان عمره يوم توفي ثلاثا وستين، وصلى عليه صهيب الرومي[(١)]، فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال، وكان له من الولد ثلاثة عشر: تسعة بنين وأربع بنات.

خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال أبو عمر[(٢)]: بويع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين بعد دفن عمر بثلاثة أيام باجتماع الناس.

وفي البخاري[(٣)] في حديث المسور: أن الرهط الذين ولاَّهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلمَّا صلى الناس الصبح اجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل عبد الرحمن إلى من كان خارجًا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أُمراء الأجناد، وكانوا قد وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، وقال: أما بعد، يا علي، فإني نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلًا، فأخذ بيد عثمان، وقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن بن عوف، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الاجناد والمسلمون.

وهو أقرب العشرة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد علي نسبًا، وفضائله كثيرة، وافتتح في خلافته الإسكندرية ثم نيسابور ثم طبرستان وسجستان وكرمان، ثم الأساورة في البحر، ثم إفريقية، ثم حصون قبرص، ثم ساحل الأردن ثم مرو.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٦٨).

(٢) الاستيعاب (٣/ ١٥٩) [١٧٩٧].

(٣) البخاري [٧٢٠٧] مختصرًا.

وفي أيامه قتل يزدجرد ملك فارس في مرو، وغزا معاوية القسطنطينية، وفتحت أرمينية، وفي أيامه ركب معاوية نائب الشام البحر بالجيوش فافتتح قبرص، وسار نائبه على مصر عبد الله بن أبي سرح بالجيوش، والتقى هو والعدو، فنصر الله المسلمين، وكانت وقعة عظيمة هائلة بحيث طلع سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار من الغنيمة، وامتد ملك المسلمين حتى بلغ البحر المحيط، وافتتح عبد الله بن عامر بن كريز عامله على البصرة من أرض فارس مدينة جور وغيرها، وافتتح المسلمون في أشهر معدودة نحوًا من عشرين مدينة. ثم خرج ابن كريز من نيسابور محرمًا بالحج من بقعته شكرًا لله لما فتح الله عليه من هذه المدائن الكبار، واستناب على خراسان الأحنف بن قيس، وسار حتى دخل مكة وطاف وسعى وحل، ثم أتى وافدًا على أمير المؤمنين عثمان بالمدينة، وقدم ابن كريز البصرة فاستقر بها، ونوابه على خراسان وسجستان والجبال، وكثر المال والخراج على عثمان، وأتاه الخراج من النواحي، واتخذ الخزائن العظيمة بالمدينة، وكان يقسم بين الناس، فيأمر للرجل بمائة ألف درهم. واتسعت الدنيا وكثرت الأموال حتى كادت الفرس تشترى بمائة ألف، وكان البستان يباع بالمدينة بأربع مائة ألف، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس، ويجبى إليها خَرَاج الممالك، وهي دار الأمان وقبة الإسلام، فبطر الناس بكثرة الأموال والنعم، وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم عثمان لكونه يعطي المال أقاربه ويوليهم الولايات الجليلة؛ فتكلموا فيه، وكان قد صار له أموال عظيمة، وله ألف مملوك، فآل الأمر إلى أن قالوا: هذا لا يصلح للخلافة، وهمُّوا بعزله وجرت أمور طويلة نسأل الله العافية.

وروى الإمام أحمد في مسنده: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال الوليد: ما لي أراك

/[٢٢٥] قد جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عينين، - قال عاصم يقول: يوم أحد - ولم أتخلف يوم بدر، ولم أترك سنة عمر. قال: فانطلق الوليد، فأخبر بذلك عثمان. قال: أما قوله: «إني لم أفر يوم عينين» فكيف يعيرني بذلك وقد عفا الله عنه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وأما قوله: «إني تخلفت يوم بدر» فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ضرب لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسهم، ومن ضرب له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسهم فقد شهد، وأما قوله: «إني لم أترك سنة عمر» فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك. انتهى[(١)].

ثم اجتمع المنحرفون عن عثمان وحاصروه في داره بالمدينة، وعلى الكوفيين الأشتر النخعي، وعلى المصريين عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق، وعلى البصريين حكيم بن جبلة، فسير إليهم عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ليدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فردوهما أقبح ردٍّ ولم يسمعوا كلامهما، فبعث إليهم عليًا فضمن لهم ما يعدهم به عثمان، وكتبوا على عثمان كتابا بإزاحة علتهم والسير فيهم بكتاب الله وسنة نبيه، وأخذوا عليه عهدًا بذلك، ثم نقضوا العهد بعد ذلك.

ذكر ابن الجوزي في شرح الصحيحين أنهم هجموا على المدينة وكان عثمان يخرج، فيصلي بالناس وهم يصلون خلفه شهرًا، ثم خرج من آخر جمعة، خرج فيها، فحصبوه بالحجارة حتى وقع على المنبر، ولم يقدر أن يصلي بهم، فصلى بالناس يومئذ أبو أمامة ابن سهل بن حنيف، ثم حصروه ومنعوه الصلاة في المسجد، وكان يصلي بهم ابن عديس تارة وكنانة بن بشر أخرى، وهما من الخوارج على عثمان[(٢)].

(١) مسند أحمد (١/ ٦٨).

(٢) كشف المشكل من أحاديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١٦٧).

وفي مسند أحمد أن عثمان قال يوم الدار حين حصر: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد إليَّ عهدًا، فأنا صابر عليه، فكانوا يرونه ذلك اليوم[(١)]. وروى عبد الله بن أحمد في زيادة المسند أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعتق عشرين مملوكًا، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البارحة في المنام، ورأيت أبا بكر وعمر رحمة الله عليهما، وإنهم قالوا [لي]: اصبر، فإنك تفطر عندنا القابلة. ثم دعا بمصحف، فنشر بين يديه، فقتل وهو بين يديه، انتهى[(٢)].

ويذكر أن الدم نضح على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]. قال: وإنها في المصحف ما حُكَّت، وفي حديث أبي سعيد عند أبي حاتم: فأخذت نائلة بنت الفرافصة حلتها، فوضعته في حجرها - وذلك قبل أن يقتل - وتفاجت عليه، فقال بعضهم: قاتلها الله، ما أعظم عجيزتها. فعلم أن أعداء الله لم يريدوا إلا الدنيا. انتهى[(٣)].

وأرسل علي ابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوا عنه، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمدًا، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا، فصدوهم عن الدار، فرمي من وصفنا بالسهام، واشتبك القوم وجرح الحسن، وشُجَّ قنبر وجرح محمد بن طلحة. وكان معه في الدار جماعة يريدون الدفع عنه، منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله ابن الزبير والحسن وأبو هريرة ومحمد بن حاطب والمغيرة بن الأخنس، ويومئذ قتل المغيرة قبل عثمان[(٤)].

---

(١) المسند (١/ ٥٧، ٦٩).

(٢) مسند أحمد (١/ ٧٢)، وما بين المعقوفين مصحح من المسند، وفي المخطوط: «له» بدله.

(٣) صحيح أبي حاتم ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٣٦١).

(٤) الاستيعاب (٣/ ١٦١).

وفي الاستيعاب[(١)]: روى سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: إني لمحصور مع عثمان في الدار قال: فَرُمِيَ رجل منَّا، فقلت: يا أمير المؤمنين، الآن طاب الضراب، قتلوا منا رجلًا. فقال عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة لما رميت سيفك، فإنما لا يراد إلا نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي، قال أبو هريرة: فرميت بسيفي، فلا أدري أين هو حتى الساعة.

وحج بالناس تلك السنة عبد الله بن عباس- وعثمان محصور- بأمر عثمان، وخرجت عائشة للحج هاربة.

وعن ابن شهاب قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان؟ وما كان شأن الناس وشأنه؟ ولم خذله أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قتل عثمان مظلومًا، ومن قتله كان ظالمًا، ومن خذله كان معذورًا. قلت: وكيف كان ذلك؟ فذكر السبب في ذلك إلى أن قال: فتسوروا من دار رجل من الأنصار، حتى / [٢٢٦] دخلوا على عثمان، وما يعلم أحد ممن كان معه؛ لأن من كان معه كان فوق البيت، ولم يكن معه إلا امرأته فقتلوه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا. وصرخت امرأته، فلم يسمع صراخها من الجلبة، فصعدت إلى الناس فقالت: إن أمير المؤمنين قتل، فدخل عليه الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوه مذبوحًا، فانكبوا عليه يبكون، ودخل الناس فوجدوا عثمان مقتولًا، فبلغ عليًا وطلحة والزبير وسعدًا ومن كان بالمدينة، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولًا، فاسترجعوا وقال علي لابنه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب؟ ورفع يده يلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، وشتم عبد الله بن الزبير.

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٦١) ترجمة [١٧٩٧].

وخرج علي فأتى منزله وجاء الناس كلهم إلى علي ليبايعوه، فقال لهم: ليس هذا إليكم، إنما هو إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو الخليفة. فلم يبق أحد من أهل بدر إلا قال: ما نرى أحق بها منك.

وقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا في ذي الحجة، قال الواقدي: يوم الجمعة لثمان أو سبع خلت من ذي الحجة يوم التروية سنة خمس وثلاثين.

قال ابن إسحاق: قتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا من مقتل عمر بن الخطاب. انتهى.

وهي أول مصائب الإسلام وخرومه؛ لأن المسلمين استضيموا في قتله جهرة، وبقتله فتح باب الفتنة إلى يوم القيامة. قال: حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

من سره الموت صرفًا لا مزاج له ... فليأت مأدبة في دار عثمانا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحًا وقرآنا

صبرًا فداء لكم أمي وما ولدت ... قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا

لتسمعن وشيكًا في ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقال حسان أيضًا، وقيل: هي لكعب، وقيل: هي للوليد بن عقبة:

فكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار: لا تقتلونهم ... عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل

وكيف رأيت الله ألقى عليهم الـ ... ـعداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار السحاب الجوافل[1]

(١) القصيدة الأولى في ديوان حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص٢٤٨)، وانظر: الاستيعاب (٣/ ١٦٢-١٦٣).

وعن سعيد بن زيد قال: لو أن رجلًا انتفض لما فعل بعثمان كان حقيقًا أن ينتفض[١]. وقال ابن عباس: لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمي قوم لوط[٢].

قال ابن إسحاق: قتل وهو ابن ثمانين سنة، وقال قتادة: ابن ست وثمانين، ودفن ليلًا بموضع يقال له: حش كوكب، و[كوكب] رجل من الأنصار، والحش البستان[٣]، وتفرقت الكلمة بعد قتله، وماج الناس واقتتلوا للأخذ بثأره، حتى قتل من المسلمين تسعون ألفًا، وفضائله وسبقه إلى الإسلام معروفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذكر خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

روى أحمد في المناقب عن محمد بن الحنفية قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان، فقال: دخل منزله، فأتاه أصحابه، فقالوا له: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك، أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله منك. قال: لا تفعلوا، فإني وزير خير من أن أكون أميرًا، قالوا: لا والله، ما نحن فاعلين حتى نبايعك. قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين. فدخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايع الناس، وقيل: أول من بايعه طلحة[٤]، وكانت يده شلاء فقيل: يد شلاء وأمر لا يتم.

وقال الزهري: أرسل إلى طلحة والزبير، فدعاهما إلى البيعة، فتَلَكَّأَ طلحة، فقال الأشتر وسل سيفه: والله لتبايعن أو لأضربن به بين عينيك. فبايعه، وبايعه الزبير[٥].

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٦٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٣/ ١٦٢)، وما بين المعقوفين منه.

(٤) فضائل الصحابة (٢/ ٥٧٣).

(٥) انظر: العواصم من القواصم لابن العربي (ص١٤٨).

وذهب قوم إلى الشام فلم يبايعوه، ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة.

وقال محمد بن حبيب الهاشمي: لم يبايعه سعد وابن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد[(١)].

وطارت الأخبار بقتل الشهيد عثمان، فحزن عليه المسلمون، سيما أهل دمشق، وأتى البريد بثوبه بالدم فنصب على منبر دمشق، / [٢٢٧] ونعاه معاوية إلى أهلها فبكوا، وتعاقدوا على الطلب بدمه، وكانوا ستين ألفًا، وآلى رجال منهم لا يأتون النساء ولا يغتسلون من جنابة إلا من احتلام حتى يقتلوا قتلته ومن عرض دونهم[(٢)]، وتخلف عن بيعة علي معاوية في أهل الشام وأظهروا له الخلاف، ونسبوه إلى الإعانة على قتل عثمان والرضا بها، وقد برأه الله من ذلك.

واجتمع ناس إلى علي، فقالوا: إن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم، فقال: يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعًا للقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا والله. قال طلحة لعلي: دعني آتي البصرة ولا يفجأك إلا وأنا في خيل، وقال الزبير: دعني آتي الكوفة ولا يفجأك إلا وأنا في خيل. فقال: حتى أنظر في ذلك. ودخل عليه المغيرة بن شعبة، فقال: له: إن لك حق الطاعة والنصيحة، أقرر معاوية على عمله وابن عامر والعمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت. قال: حتى أنظر.

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٣٧) ذكر بيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٣٩).

وخرج من عنده ثم أتاه من الغد فقال: إني أشرت عليك أمس، وإن الرأي أن تعاجلهم فتعرف السامع من غيره، فتلقاه ابن عباس - وقد أتى من الحج - وهو خارج من عند علي، فدخل على علي، فلما انتهى إليه قال: رأيت المغيرة خرج من عندك قال: جاءني أمس بكذا واليوم بكذا. فقال: أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك، قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي قبل اليوم أن تخرج حين قتل الرجل أو قبله، فتأتي مكة فتدخل دارك وتغلق بابك، فكانت العرب محايلة ومضطربة في أثرك لا تجد غيرك، فأما اليوم فإن بني أمية يستحسنون الطلب وأن يلزموك شقة من هذا الأمر. وفي رواية: وإني أخشى أن ينتقض عليك الشام، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يخرجا عليك، وإني أشير عليك أن تقر معاوية، فإن بايع لك فعليّ أن أقتلعه من منزلته متى شئت، فقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف، ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع، ولست صاحب رأي، فقال: إذا عصيتك فأطعني. قال ابن عباس: أيسر ما لَكَ عندي الطاعة[(١)].

وكانت عائشة مقيمة بمكة تريد عمرة المحرم، فلما قضت عمرتها وخرجت إلى المدينة سمعت بما جرى، فانصرفت راجعة إلى مكة، فأتاها عبد الله بن عامر والي مكة من قبل عثمان فقال: يا أُمَّ المؤمنين، ما ردك؟ قالت: ردني أن عثمان قتل مظلومًا، وأن هذا الأمر لا يستقيم ولهذا الغوغاء أمر، وإنهم بادروا بالعدوان، وسفكوا الدم الحرام، وأخذوا المال الحرام، وإنْ هذا حدث عظيم وأمر منكر، فاطلبوا دم عثمان، فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر، وذلك أول ما تكلمت به بنو أمية بالحجاز ورفعوا رؤوسهم[(٢)].

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٣٩).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٨).

ثم إن طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ندِما وعظم عليهما قتله، فخرجا هاربين إلى مكة من غير أمر علي، فاجتمعا بعائشة ومن معها من بني أمية وجمعوا جمعًا عظيمًا واتفق رأيهم على المضي إلى البصرة، وقالوا: معاوية بالشام قد كفانا أمرها[١] وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة، فدعوه إلى المسير معهم، فامتنع وأرادت حفصة المسير معهم فردها أخوها عبد الله[٢].

وأحب أهل المدينة أن يعلموا ما رأي علي في قتال أهل القبلة، وقد بلغهم أن الحسن دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس، فدسوا إلى زياد بن حنظلة التيمي، فدخل فجلس إليه ساعة ثم قال: يا زياد، تسير؟ قال: لأي شيء؟ قال: لغزو الشام. فقال: زياد: الأناة والرفق أمثل، وقال:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ... يضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي:

متى تجمع القلب الذكي وصارمًا ... وأنفا حميًا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس، فقالوا: ما وراءك؟ قال: السيف يا قوم.

فلما بلغه خبر الزبير وطلحة وأم المؤمنين وأنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح بينهم، تعبأ للخروج نحوهم واشتد على أهل المدينة الأمر وتثاقلوا، فسار علي نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة، فالتقى هو وطلحة والزبير ومن معهما عند البصرة فجرت وقعة الجمل المشهورة بلا علم ولا قصد[٣]، والتحم القتال من الغوغاء وخرج الأمر عن علي وعن طلحة

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٤٩).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٥١).
(٣) العواصم من القواصم (ص١٥٦-١٥٩).

والزبير وقتل من الفريقين نحو عشرين ألفًا وقتل طلحة وانهزم الزبير، فلحقه عمرو [بن] / [٢٢٨] جرموز بوادي السباع فقتله[١]، وكانت عائشة راكبة الجمل وهي في هودج، وقد صار كالقنفذ من النشاب وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة، ولما كثرت القتلى عند الجمل وقطع على خطامه أيد كثيرة قال علي: اعقروا الجمل، فعقر فسقط، فبقيت عائشة في هودجها إلى الليل وأدخلها أخوها محمد إلى البصرة ثم أمر علي عائشة بالرجوع إلى المدينة، وأن تقر في بيتها فسارت وشيعها الناس وجهزها علي بما احتاجت إليه، وكانت بعد ذلك إذا ذكرت مسيرها هذا بكت حتى تبل دموعها خمارها، وتقول: يا ليتني كنت نسيًا منسيًّا ولوددت أني مت قبل ذلك بعشرين سنة.

واستعمل علي على البصرة عبد الله بن عباس، وسار علي إلى الكوفة، فنزلها واستحكم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجا عنه إلا الشام، وأرسل علي جرير بن عبد الله إلى معاوية وامتنع من البيعة، ويدخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار فماطله معاوية وامتنع من مبايعته، فسار علي إلى الشام في سبعين ألفًا من أهل العراق، وسار إليه معاوية وعمرو بن العاص في أهل الشام في ستين ألفًا وقيل: في مائة وعشرين ألفا، فالتقوا بصفين بناحية الفرات ودخلت سنة سبع وثلاثين والجيشان بصفين، ومضى المحرم ولم يكن بينهم قتال وأرسل علي إلى معاوية رسلًا يدعونه إلى الله وإلى الطاعة، فأتوه فقالوا له: إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإنَّ الله جازيك بما قدمت يداك، وإنَّا ننشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة أو تسفك دماءها بينها فقال للمتكلم: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال: إنَّ صاحبي ليس مثلك، إنَّ صاحبي أحق البرية كلها بهذا

(١) تاريخ خليفة (ص١٨٦).

الأمر بالفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله، فقال له معاوية: ويبطل دم عثمان؟ لا والله، لا أفعل ذلك أبدا، فلما دخل شهر صفر تنابذوا وبات علي يعبئ الكتائب ويقول: لا تقاتلوهم إلا أن يبدءوكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتوهم لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم، فاقتتلوا أياما، وكانت بينهم وقعات كثيرة، قيل: كانت تسعين وقعة، وقتل من الفريقين أكثر من تسعين ألفًا، وقتل من جند علي عمار بن ياسر من السابقين الأولين البدريين وكان من نجباء الصحابة. قال أبو عمر في ترجمته[(١)]: تواترت الآثار عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

ولما قتل عمار أمسك عمرو بن العاص عن القتال وتابعه على ذلك خلق كثير، فقال له معاوية: لم لا تقاتل؟ قال: قتلنا هذا الرجل، وقد سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: تقتله الفئة الباغية، فدل على أنا نحن البغاة، فقال معاوية: اسكت، فوالله ما تزال تدحض في بولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه وجاءوا به حتى ألقوه بيننا، وإنما دفعنا عن أنفسنا فقتل، فبلغ ذلك عليا فقال: إِنْ كنت أنا قتلته فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل حمزة حين أرسله إلى قتال الكفار. ولما قتل عمار حمل علي في اثني عشر ألفًا، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض[(٢)].

وتخلف جماعة من سادات الصحابة عن القتال في الفتنة، منهم سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو اليسر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وابن عمر وأسامة بن زيد وصهيب الرومي وأبو موسى الأشعري، ورأوا السلامة في العزلة وقالوا: إذا كان غزو الكفار قاتلنا[(٣)].

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٢٣١) [١٨٨٣].

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٤١).

(٣) الكامل (٣/ ٨٢).

ولما سئم الفريقان تداعوا إلى الخصومة ورفع أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله، فرضي الفريقان[١] فحكَّم علي وأهل الكوفة أبا موسى وحكَّم معاوية[٢] عمرو بن العاص، ورجع علي ومن معه إلى العراق ومعاوية إلى الشام ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل واتفقا على أن يخلعاهما معًا ويختار المسلمون خليفة يرضون به، وقد عينوا يومئذ عبد الله بن عمر بن الخطاب ثم اجتمعا بالناس، فبدأ أبو موسى فخلع عليا ثم قام عمرو وقال: قد خلعت عليا كما خلعه صاحبه، وأثبت خلافة معاوية فرضي أهل الشام بذلك ورجعوا، فبايعوا معاوية ولما جرى التحكيم غضب خلق أزيد من عشرة آلاف من جيش علي وقالوا: لا حكم إلا لله وكفروه بذلك، واعتزلوه وهم الخوارج وشقوا عصا المسلمين ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل، فبعث علي عبد الله بن عباس.

قال ابن عباس: فدخلت عليهم فلم أر قط قومًا أشد منهم اجتهادا، جباههم قرحة من السجود وأيديهم كأنها ثفن الإبل، وعليهم قمص مرحضة مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر فسلمت عليهم فقالوا: مرحبا يا ابن عباس ما جاء بك؟ قلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، من عند صهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أنزل القرآن، /[٢٢٩] وهم أعلم بتأويله منكم، فقالت طائفة منهم: لا تخاصموا قريشًا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]. فقال اثنان أو ثلاثة: لنكلمنه، فقلت: هاتوا ما نقمتم. فقالوا: ثلاثًا، إحداهن أنه حكم الرجال في أمر الله وقد قال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠]، وأنه قاتل ولم يسب ولم يغنم

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٤٨).

(٢) في المخطوط: «علي» مكان «معاوية»، وهو خطأ.

فإن كانوا مؤمنين ما حل لنا قتالهم وسبيهم، وإن كانوا كفارا حل لنا قتالهم وسبيهم. قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين.

فقلت: أما قولكم: «حكم الرجال في دين الله» أنا أقرأ عليكم في كتاب الله ما ينقض قولكم: إن الله صير من حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب وتلا قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥] إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وفي المرأة وزوجها فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]، فنشدتكم الله هل تعلمون، حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل أم حكمهم في ثمن أرنب وبضع امرأة؟ قالوا: بل هذه. قلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأمَّا «قاتل ولم يغنم» فتسبون أمكم عائشة؟ فوالله إن قلتم: ليست بأمنا، لقد خرجتم من الإسلام، وإن قلتم لنسبينها ونستحل ما نستحل من غيرها، فقد خرجتم من الإسلام، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم: «محا نفسه عن أمير المؤمنين» فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو، فقال: يا علي، اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال: امح يا علي، واكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فوالله لرسول الله خير من علي.

فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم، فخرج علي عليهم بمن معه، ورام رجعتهم، فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بالنهروان، فقتلهم ولم ينج منهم إلا القليل[(١)].

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٦٤)، والكامل (٣/ ٢٠٣).

وتواترت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوصفهم وذمهم والتحريض على قتالهم. ففي الصحيحين عن سويد بن غفلة قال: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا حدثتكم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوالله لأن أخِرَّ من السماء أحب الي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [يقول]: «سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم»[(١)].

وفيهما عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يخرج في هذه الأمة - ولم يقل منها - قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر الرامي إلى سهمه، إلى نصله، وإلى رصافه، فيتمارى في الفُوقة هل علق بها من الدم شيء»، وفي رواية لهما عنه: «آيتهم رجل إحدى يديه أو إحدى ثدييه مثل ثدي المرة أو قال: مثل البضعة تدردر، يخرجون على خير فرقة من الناس». قال أبو سعيد: أشهد لسمعت هذا من رسول الله صلى عليه وسلم، وأشهد أن علي بن أبي طالب قتلهم وأنا معه فأُمِر بذلك الرجل فالتمس فأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي نعته[(٢)].

ولمسلم[(٣)] عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو يعلم الجيش الذين يقاتلونهم ماذا قضي لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل. انتهى.

---

(١) البخاري [٦٩٣٠]، ومسلم [١٠٦٦].
(٢) البخاري [٦٩٣٣].
(٣) مسلم [١٠٦٦].

وفي أيامه أيضًا خرجت الغالية وادعوا في علي الإلهية، قال الحافظ ابن حجر: وروينا من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن ههنا قوما على باب المسجد يزعمون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم إنما أنا مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني وإن عصيته خشيت أن يعذبني فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قنبر، فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، قال: أدخلهم، فقالوا كذلك، فلما كان اليوم الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث القتلة فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر، ائتي بفعلة معهم مرورهم، فخدَّ لهم أُخدودا بين المسجد والقصر، وقال لهم: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا فأبوا أن يرجعوا فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا ... أوقدت ناري ودعوت قنبرا

وإسناده حسن[(١)].

وفي الصحيح[(٢)]/ [٢٣٠] أن ابن عباس لما بلغه تحريقهم قال: لو كنت أنا لم أحرقهم لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من بدل دينه فاقتلوه»، فبلغ عليًا قول ابن عباس، فقال: صدق ابن عباس.

---

(١) الفتح (١٢/ ٢٨٢).

(٢) البخاري [٣٠١٧، ٢٩٢٢].

ذكر مقتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ذكر الزبير بن بكار[(١)] وغيره: اجتمع ثلاثة نفر بمكة من بقايا الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي، فاجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة ويريحون العباد منهم، فقال ابن ملجم: أنا لكم بعلي، وقال برك: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فاتعدوا بينهم ليلة سبع عشرة من رمضان سنة أربعين، توجه كل رجل منهم إلى المصير الذي يريد، فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة عازمًا على قتل علي واشترى سيفا لذلك بألف وسقاه السم.

وروى أبو عمر[(٢)]: أن عبد الرحمن جاء عليًا يستحمله فحمله، ثم قال: إن هذا قاتلي. قيل: فما يمنعك منه؟ قال: إنه لم يقتلني بعد، ولعبد الرزاق عن عبيدة قال: كان علي إذا رأى ابن ملجم قال:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

وكان علي كثيرًا ما يقول: ما يمنع أشقاها أو ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه من دم هذه؟ ويقول: والله لتخضبن هذه من دم هذا - ويشير إلى لحيته ورأسه - خضاب دم لا خضاب عطر ولا عبير[(٣)].

وروى أبو عبد الرحمن السلمي عن الحسن أنه سمع أباه في ذلك السحر الذي ضرب فيه يقول: يا بني، رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الليلة في نومي، فقلت: يا رسول الله،

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ١٤٣)، والكامل (٣/ ٢٥٥).
(٢) الاستيعاب (٣/ ٢٢٠) [١٨٧٥].
(٣) السنن الكبرى للنسائي [٧٥٣٨].

ماذا لقيت من أمتك من اللأواء واللدد، فقال: ادع الله عليهم، فقلت: اللهم أبدلني خيرا منهم وأبدلهم بي من هو شر مني ثم انتبه، وجاءه مؤذنه للصلاة فخرج، فاعتوره الرجلان ابن ملجم وشبيب بن بجرة الأشجعي فأما شبيب فوقعت ضربته في الطاق وأما ابن ملجم فضربه في رأسه وذلك في صبحية يوم الجمعة لسبع عشر ليلة من رمضان[(١)].

وفي رواية: فلما ضربه ابن ملجم قال: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك. قال: علي: فزت ورب الكعبة، لا يفوتنكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانب، فأخذوه فلما أخذ قال علي: احبسوه فإن مت فاقتلوه، ولا تمثلوا به وإن لم أَمُتْ فالأمر إليَّ في العفو أو القصاص، وقُبض في أول ليلة من العشر الأواخر من رمضان، واختلف في موضع قبره، فقيل: دفن في قصر الإمارة بالكوفة، وقيل: دفن في رحبة الكوفة، وقيل: دفن في نجف الحسين موضع بطريق الحيرة واختلف في سنه يوم مات، فقيل: سبع وخمسون وقيل ثلاث وستون، قاله أبو نعيم وغيره[(٢)].

ولما بلغ عائشة قتل علي قالت: لتصنع العرب ما شاءت، فليس أحد ينهاها، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر[(٣)] وستة أيام، وقيل: أربعة عشر يومًا.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسير في الفيء بسيرة أبي بكر الصديق، وإذا ورد عليه مال لم يبق منه مالًا إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال إلا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك، ويقول: يا دنيا غري غيري، ولم يستأثر من الفيء بشيء ولا يخص به قريبًا، ولا

(١) الاستيعاب (٣/ ٢٢١).
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٠٠-١٢٨)، وتاريخ الطبري (٥/ ١٥٢).
(٣) في المخطوط: «ستة أشهر»، وما أثبتناه من طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨).

يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات، واذا بلغته عن أحدهم خيانة كتب إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس:٥٧]، ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود:٨٥-٨٦] إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك ثم يرفع طرفه في السماء، ثم يقول: اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك[(١)].

قال أبو عمر[(٢)]: وثبت عن الحسن بن علي من وجوه أنه قال: لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخادم يشتريها لأهله. وأما تقشفه في لباسه ومطعمه فأشهر من أن يذكر.

وأمَّا فضله وسابقته وجهاده الكفار مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأشهر من ذلك.

قال أحمد بن حنبل وإسماعيل بن إسحاق القاضي: لم يُرْوَ في فضائل أحد من الصحابة ما روي في فضائل علي بن أبي طالب.

وقيل له: ألا تستخلف؟ فقال: لا، أترككم كما تركم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال بعضهم: إن نحن فقدناك - ولا نفقدك - بايع الناس الحسن؟ فقال: ما آمركم /[٢٣١] ولا أنهاكم، أنتم أبصر. ثم دعا الحسن والحسين فقال: أوصيكما بتقوى الله وحده، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها، قولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف، وكونا للظالم خصمًا وللمظلوم عونًا، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٢١٠-٢١١).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٢١١).

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال: هل سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم، قال: أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك، ولا تقطعن أمرًا دونهما، ثم قال: أوصيكما به، فإنه أخوكما وابن أبيكما، فاعرفا حقه وأكرماه[(١)].

قال أبو عمر ابن عبد البر: وقف جماعة من أئمة أهل السنة في علي وعثمان، فلم يفضلوا واحدًا منهما على صاحبه، منهم مالك ويحيى بن سعيد القطان، وأهلُ السنة اليوم على تقديم أبي بكر في الفضل على عُمَر، وتقديم عمر على عثمان، وتقديم عثمان على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٢)].

وفي الصحيح[(٣)] عن ابن الحنفية: قلت لأبي: من خير الناس بعد رسول الله؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان، فقلت: ثم أنت؟ قال: إنما أنا رجل من المسلمين.

وتواتر عنه أنه قال وهو على المنبر في خلافته: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها؟ أبو بكر، ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر؟ عمر[(٤)].

وفي مسند أحمد[(٥)] عنه قال: سبق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثنى أبو بكر وثلث عمر، ثم خبطتنا فتنة يعفو الله فيها عمن يشاء.

وقد كان بنو أمية ينالون منه وينتقصونه، فما زاده ذلك إلا سموًا ورفعة ومحبة عند العلماء. قال عامر بن عبد الله بن الزبير: إن بني مروان شتموه ستين سنة، فلم

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٥٧-١٥٨).
(٢) الاستيعاب (٣/ ٢١٤).
(٣) البخاري [٣٦٧١].
(٤) انظر: مسند أحمد (١/ ١٠٦، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في غير موضع: (١/ ١١٢، ١٢٤، ١٣٢، ١٤٧).

يزده الله بذلك إلا رفعةً، وإن الدين ما بنى[١] شيئًا فهدمته الدنيا، ولم تبن الدنيا شيئًا إلا عادت على ما بنت فهدمته. انتهى[٢].

وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الذين أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع سنتهم كما في حديث العرباض بن سارية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[٣].

وفي السنن وصحيح ابن حبان عن سفينة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكًا». قال: أمسك، وقال بعضهم: خلافة أبي بكر سنتان، خلافة عمر عشر، وخلافة عثمان اثنا عشر، وخلافة علي ست. قال علي بن الجعد: قلت لحماد: أسفينة القائل أمسك؟ قال: نعم. أخرجه أبو حاتم[٤].

وهذا مغاير لما ذكره أهل التاريخ في خلافة علي أنها أربع سنين وثمانية أشهر، وقال الطبري: والصحيح في ولاية الأربعة أنها تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام؛ أبو بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام، وعمر عشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام، وعثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، وعلي أربع سنين وثمانية أشهر. انتهى[٥].

فإما أن يكون أطلق الحديث على تلك الثلاثين لقربه منها، أو يكون مدة ولاية الحسن بن علي محسوبة منها، وهي تكملتها.

---

(١) في الاستيعاب: «لم يبن».
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١١٨).
(٣) أبو داود [٤٦٠٧]، وابن ماجه [٤٢].
(٤) أبو داود [٤٦٤٦]، والترمذي [٢٢٢٦]، وصحيح ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٣٩٢).
(٥) تاريخ الطبري (٥/ ١٥٥).

وهولاء الخلفاء الأربعة هم [أفضل][(١)] أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعدهم بقية العشرة: أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير [وسعيد بن زيد][(٢)] رضي الله عنهم أجمعين. وأما مراتبهم على الإجمال فالمهاجرون أفضل من الأنصار، وأما على التفصيل فسباق الأنصار أفضل من متأخري المهاجرين.

وقد رتب أهل التاريخ الصحابة على طبقات:

فالطبقة الأولى: أول الناس إسلامًا كخديجة وعلي وزيد وأبي بكر ومن تلاهم ولم يتأخر إلى دار الأرقم.

الطبقة الثانية: أصحاب دار الأرقم، وفيها أسلم عمر.

والطبقة الثالثة: المهاجرون إلى الحبشة.

والطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سباق الأنصار.

والطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثانية.

والطبقة السادسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين.

والطبقة السابعة: أهل بدر الكبرى.

والثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

والطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان.

[العاشرة][(٣)]: الذين هاجروا بعد الحديبية.

[الحادية عشرة]: الذين أسلموا يوم الفتح وبعده.

---

(١) السياق يقتضي إضافته.

(٢) لم يذكره المصنف، وبذكره يتم العشرة.

(٣) في المخطوط: «الحادي عشر»، وما ذكرته هو الصواب ليستقيم الترتيب، وكذا ما بعده.

[الثانية عشرة]: صبيان أدركوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأوه[١].

وكان سعيد بن المسيب لا يعد الصحابي إلا من أقام مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة وغزا معه[٢]. وقال بعضهم: كل من أدركه الحلم وأسلم ورأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو صحابي، ولو أنه لم يصحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ساعةً واحدةً، وهذا هو الأكثر، والله أعلم[٣].

وذكروا عن أبي زرعة أنه قال: مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا كلهم رآه أو روى عنه، ذكره غيره واحد، منهم القطان في مراتب الصحابة، وابن الأثير في جامع الأصول، والله أعلم[٤].

ذكر خلافة الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما مات علي بايع الناس ابنه الحسن. قال أبو عمر: بايع الحسن أكثر من أربعين ألفًا كلهم قد بايع / [٢٣٢] أباه قبله على الموت، وكانوا أطوع للحسن وأحب فيهم من أبيه، ثم سار إلى معاوية وسار معاوية بجيش الشام لقصده.

فلما تقارب الجمعان علم الحسن أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثرهما، فرأى أن الصلح في جمع الكلمة وترك القتال، فكتب إلى معاوية يراسله بأنه يصير الأمر إليه واشترط عليه ألَّا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيءٍ مما كان في أيام أبيه وأنْ يكون ولي العهد من بعده وأنْ يمكنه من بيت المال ليأخذ منه حاجته،

---

(١) الفتح (٧/ ٤).

(٢) التقييد والإيضاح (ص٢٣٣).

(٣) أسد الغابة (١/ ١٩).

(٤) التقييد والإيضاح (ص٢٣٩)، وجامع الأصول التتمة (١/ ١٢٠).

ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك وبعث إليه بِرقٍّ أبيض، وقال: اكتب ما شئت فيه فألتزمه. والتزم معاوية بكل ما كتب واشترط وخلع الحسن نفسه وسلَّم الأمر إلى معاوية.

فلما اصطلحا دخل معاوية الكوفة، وسمي ذلك العام عام الجماعة، ووقع مصداق ما أخبر به الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله في الحسن: «إنَّ ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١).

وغضب من فعله ذلك شيعته، وقال له بعضهم: السلام عليكم يا مذل المؤمنين، فقال: لا تقل ذلك، فإني لم أُذِل المؤمنين وكرهت أن أقتلكم في طلب الملك. وعنه أنه قال: كانت جماجم العرب بيدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت، [وتركتها] ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين(٢).

وعن الشعبي قال: لما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية: قم فاخطب الناس واذكر ما كنت فيه، فقام الحسن فخطب فقال: الحمد لله الذي هدى بنا أولكم وحقن بنا دماء آخركم، ألا إنَّ أكيس الكيس التقى وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون أحق به مني أو يكون حقي تركته لله وإصلاح أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقن دمائهم، ثم التفت إلى معاوية فقال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١]، ثم نزل. قال: فقال عمرو بن العاص: ما أردت إلا هذا، ثم سار الحسن إلى المدينة بأهله وحشمه فأقام بها حتى مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

وقد أحببت أن أقتصر على هؤلاء الخلفاء الذين تقدم ذكرهم، فإن فيهم كفاية إن شاء الله.

---

(١) البخاري [٣٧٤٦].

(٢) تاريخ واسط (ص١١٢)، والمستدرك (٣/ ١٨٦)، وما بين المعقوفين منهما.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٦٤-١٦٥).

ولنختم كتابنا هذا بشيء من ألفاظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوجيزة اللفظ الكثيرة المعاني الجامعة للأحكام والحِكم، وقد جمع العلماء من ذلك كثيرًا، فمن ذلك:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)].

وقوله: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٢)].

«**المرء مع من أحب**»[(٣)].

«**أسلم تسلم**»[(٤)].

«**الحرب خدعة**»[(٥)].

«**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(٦)].

«**أي داء أدوى من البخل**»[(٧)].

«**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[(٨)].

«**والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[(٩)].

---

(١) البخاري [١]، ومسلم [١٩٠٧].
(٢) البخاري [٢٦٩٧]، ومسلم [١٧١٨].
(٣) البخاري [٦١٦٨، ٦١٦٩، ٦١٧٠]، ومسلم [٢٦٤٠].
(٤) البخاري [٧]، ومسلم [١٧٧٢].
(٥) البخاري [٣٠٢٩، ٣٠٣٠]، ومسلم [١٧٣٩].
(٦) البخاري [٦١١٤]، ومسلم [٢٦٠٩].
(٧) البخاري (٤/ ١٥٩٣)، وهو من قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٨) البخاري [٢٨٥٢]، ومسلم [١٨٧٣].
(٩) البخاري [٣٣٣٦].

«إن من البيان لسحرًا»[(١)].

«إن من الشعر لحكمة»[(٢)].

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[(٣)].

«من غشنا فليس منا»[(٤)].

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(٥)].

«لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[(٦)].

«من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(٧)].

«اليد العليا خير من اليد السفلى»[(٨)].

«ترك الشر صدقة»[(٩)].

«الحياء خير كله»[(١٠)].

«إن الدين يسر، ولن يُشَادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[(١١)].

---

(١) البخاري [٥٧٦٧].
(٢) البخاري [٦١٤٥].
(٣) البخاري [٦٤١٢].
(٤) مسلم [١٠١، ١٠٢].
(٥) البخاري [٦٠١٨]، ومسلم [٤٧].
(٦) البخاري [٦٠٧٥، ٦٠٧٦، ٦٠٧٧]، ومسلم [٢٥٦٠].
(٧) مسلم [٢٦٩٩]
(٨) البخاري [١٤٢٧]، ومسلم [١٠٣٤].
(٩) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ١٥٥)، وإسناده ضعيف جدًّا، ومعناه صحيح، ففي صحيح مسلم [٨٣] مرفوعًا: «تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك».
(١٠) مسلم [٣٧].
(١١) البخاري [٣٩].

«الغنى غنى النفس»[(١)].

«أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ»[(٢)].

«تنكح المرأة لجمالها ولمالها [وحسبها] ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[(٣)].

«كل مسكر حرام»[(٤)].

«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأَوْلَى رجل ذكر»[(٥)].

«الولد للفراش وللعاهر الحجر»[(٦)].

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[(٧)].

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[(٨)].

«كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط»[(٩)].

«اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[(١٠)].

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[(١١)].

---

(١) البخاري [٦٤٤٦]، ومسلم [١٠٥١].
(٢) ابن ماجه [٤٢٤٠]، وفي صحيح البخاري [٥٨٦١] بمعناه.
(٣) البخاري [٥٠٩٠]، ومسلم [١٤٦٦].
(٤) البخاري [٤٣٤٣].
(٥) البخاري [٦٧٣٢]، ومسلم [١٦١٥].
(٦) البخاري [٢٠٥٣] وأطرافه [٢٢١٨، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩]، ومسلم [١٤٥٧].
(٧) البخاري [٦٤٨٤]، ومسلم [٤٠].
(٨) البخاري [٦٤١٦].
(٩) البخاري [٢١٦٨، ٢١٥٥].
(١٠) البخاري [٢٤٤٨].
(١١) البخاري [٢٤٤٣، ٢٤٤٤].

«اعملوا، فكلٌّ ميسر لما خلق له»[١].

«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢].

«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٣].

«العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[٤].

«مطل الغني ظلم، وإذا أُتبع أحدكم على مليء فليتبع»[٥].

«ابدأ بمن تعول»[٦].

«كل معروف صدقة»[٧].

«الكلمة الطيبة صدقة»[٨].

«الدنيا خضرة حلوة»[٩].

«إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم إلا أكلة الخضر حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت، ثم رتعت»[١٠].

---

(١) البخاري [٦٦٠٥].
(٢) مسلم [٢٥٨٨].
(٣) البخاري [٦٤٧٤].
(٤) البخاري [٢٥٨٩]، ومسلم [١٦٢٢].
(٥) البخاري [٢٢٨٧]، ومسلم [١٥٦٤].
(٦) البخاري [١٤٢٦، ٥٣٥٥].
(٧) البخاري [٦٠٢١].
(٨) البخاري، الأدب باب طيب الكلام تعليقًا.
(٩) مسلم [٢٧٤٢].
(١٠) البخاري [٦٤٢٧]، ومسلم [١٠٥٢]. وثلط: سلح سَلْحًا رقيقًا، وقيل: إذا ألقاه سهلًا رقيقًا. لسان العرب (٧/ ٢٦٨).

«**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(١)].

وكل ما ذكرنا مما تقدم في الصحيحين أو أحدهما.

ومما ذكر / [٢٣٣] في غيرهما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار: «**إنكم لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع**»[(٢)].

وقوله: «**عدة المؤمن كالأخذ باليد**»[(٣)].

«**بورك لأمتي في بكورها**»[(٤)].

«**لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا الأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا**»[(٥)].

«**احثوا التراب في وجوه المداحين**»[(٦)].

«**رأس الحكمة معرفة الله**»[(٧)].

«**يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة**»[(٨)].

«**الآن حمي الوطيس**»[(٩)].

«**لا ينتطح فيها عنزان**»[(١٠)].

---

(١) البخاري [٨٣٩].

(٢) لم نجده مسندًا، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٢٠٥).

(٣) ضعيف الجامع الصغير [٣٦٨٩].

(٤) صحيح الجامع الصغير [٢٨٤١].

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وعند الترمذي (٤/ ٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعًا: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء... والأمانة مغنمًا والزكاة مغرمًا...». وإسناده ضعيف.

(٦) البخاري في الأدب المفرد [٣٣٩، ٣٤٠]. و صححه الألباني في تحقيقه له.

(٧) السلسلة الضعيفة [٢٠٦٠].

(٨) أبو داود [٢٥٦٠].

(٩) مسند أبي عوانة (٤/ ٢٧٩)، وفي صحيح مسلم [١٧٧٥] بلفظ: «هذا حين حمي الوطيس».

(١٠) مسند الشهاب للقضاعي (٢/ ٤٦)، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي، وهو وضاع، وهو الذي وضع حديث الهريسة. انظر: كتاب المجروحين (٢/ ٢٩٥)، والكامل لابن عدي (٦/ ١٤٥).

«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[(١)].

«لا يجني على المرء إلا يده»[(٢)].

«ليس الخبر كالمعاينة»[(٣)].

«لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما»[(٤)].

«ساقي القوم آخرهم شربًا»[(٥)].

«المجالس بالأمانة»[(٦)].

«قيدوا العلم بالكتابة»[(٧)].

«خير المال عين ساهرة لعين نائمة»[(٨)].

«خير المال سكة مأبورة أو مهرة مأمورة»[(٩)].

«المسلم مرآة المسلم»[(١٠)].

«رحم الله من قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم»[(١١)].

«السعيد من وعظ بغيره»[(١٢)].

«عفو الملوك بقاء للملك»[(١٣)].

---

(١) البخاري [٦١٣٣]، ومسلم [٢٩٩٨].
(٢) لم نقف عليه.
(٣) صحيح الجامع الصغير [٥٣٧٣].
(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ١٥٥)، وقال ابن عدي في الكامل (١/ ٣٠٦): باطل.
(٥) صحيح الجامع الصغير [٣٥٨٩].
(٦) صحيح الجامع الصغير [٦٦٧٨].
(٧) السلسلة الصحيحة [٢٠٢٦].
(٨) لم نقف عليه مسندًا، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٢٠٥).
(٩) شرح السنة للبغوي (١٠/ ٣٨٧) [٢٦٤٧].
(١٠) السلسلة الصحيحة [٩٢٦].
(١١) السلسلة الصحيحة [٨٥٥].
(١٢) مسند الشهاب (١/ ٧٩) [٥٢]، وابن أبي عاصم في السنة (١٧٧، ١٧٨). وإسناده جيد.
(١٣) ضعيف الجامع الصغير [٣٧١٧].

«ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»[(١)].

«المكر والخديعة في النار»[(٢)].

«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا»[(٣)].

«المستشار مؤتمن»[(٤)].

«الدال على الخير كفاعله»[(٥)].

«الندم توبة»[(٦)].

«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[(٧)].

«حبك الشيء يعمي ويصم»[(٨)].

«السفر قطعة من العذاب»[(٩)].

«المسلمون عند شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالا»[(١٠)].

«الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته»[(١١)].

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»[(١٢)].

«تمام التحية المصافحة»[(١٣)].

---

(١) السلسلة الصحيحة [٩٢٥].
(٢) السلسلة الصحيحة [١٠٥٧].
(٣) صحيح الترغيب [٩٨].
(٤) أبو داود [٥١٢٨]، والترمذي [٢٨٢٣]. وانظر: السلسلة الصحيحة [١٦٤١].
(٥) مسلم [١٨٩٣].
(٦) صحيح الجامع الصغير [٦٨٠٢].
(٧) أبو داود [٤٨١١]، والترمذي [١٩٥٥]، وانظر: السلسلة الصحيحة [٤١٧].
(٨) أبو داود [٤١٣٠]، وانظر: السلسلة الضعيفة [١٨٦٨].
(٩) البخاري [١٨٠٤]، ومسلم [١٩٢٧].
(١٠) الترمذي [١٣٥٢]، وابن ماجه [٢٣٥٣].
(١١) الترمذي [٢٧٥١]، وانظر: السلسلة الصحيحة [٩٢٧].
(١٢) مسلم [٢٦٣٨].
(١٣) ضعيف الجامع الصغير [٢٤٧٩].

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(١)].

«جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[(٢)].

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[(٣)].

«الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»[(٤)].

«أعط الأجير أجره قبل أن يجف رشحه»[(٥)].

«ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه»[(٦)].

«اتقوا النار ولو بشق تمرة»[(٧)].

«لا خير لك في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه»[(٨)].

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(٩)].

«الدعاء سلاح المؤمن»[(١٠)].

«خير الأمور أوساطها»[(١١)].

«إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[(١٢)].

«اشفعوا تؤجروا وتحمدوا»[(١٣)].

---

(١) صحيح ابن حبان (الإحسان ١/ ٤٦٦).
(٢) ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة [٦٠٠]، وقال: «موضوع».
(٣) السلسلة الضعيفة [٦١٦].
(٤) السلسلة الصحيحة [١٩٠٤].
(٥) صحيح الجامع الصغير [١٠٥٥].
(٦) صحيح الجامع الصغير [٥٣١٨].
(٧) صحيح الجامع الصغير [١١٥].
(٨) ذكره في المقاصد الحسنة [٤٦٥]، وهو حديث موضوع.
(٩) مسلم [٢٩٦٥].
(١٠) ضعيف الجامع الصغير [٣٠٠١]، والسلسلة الضعيفة [١٧٩].
(١١) المقاصد الحسنة [٢٠٥] بمعناه.
(١٢) صحيح الجامع الصغير [٢٦٩].
(١٣) البخاري [٦٠٢٧]، ومسلم [٢٦٧٤].

«ما هلك امرؤ عن مشورة»[(١)].

«ما عال من اقتصد»[(٢)].

«ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»[(٣)].

«شر الندامة يوم القيامة»[(٤)].

«شر المعذرة عند الموت»[(٥)].

«أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[(٦)].

«إياكم وخضراء الدمن»، قالوا: يا رسول الله، وما خضراء الدِّمن؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»[(٧)].

«البلاء موكل بالمنطق»[(٨)].

«اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع»[(٩)].

«لا يدخل الجنة نمام»[(١٠)].

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[(١١)].

---

(١) مسند الشهاب (٢/ ٩٢) [٩٥٠]، وهو مرسل ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٨) والأوسط (٥/ ٢٠٦)، وهو ضعيف، فيه إبراهيم الهجري، وانظر: السلسلة الضعيفة [٦١١].

(٣) السلسلة الصحيحة [٩٤٥].

(٤) جزء من حديث طويل في خطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٦٩)، وقال ابن كثير بعد سوقه له: «حديث غريب، وفيه نكارة، وفي إسناده ضعف». البداية والنهاية (٥/ ١٣).

(٥) هذا أيضًا جزء من الحديث السابق.

(٦) السلسلة الصحيحة [٦٣٨].

(٧) السلسلة الضعيفة [١٤].

(٨) السلسلة الضعيفة [٣٣٨٢].

(٩) صحيح الجامع الصغير [٥٣٩١]، والسلسلة الصحيحة [٩٧٨].

(١٠) مسلم [١٠٥] واللفظ له، والبخاري [٦٠٥٦] بلفظ: «لا يدخل الجنة قتات».

(١١) صحيح الجامع الصغير [٣٥٦٨].

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»[(١)].

«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم»[(٢)].

«زر غبا تزدد حبًا»[(٣)].

«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[(٤)].

«أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[(٥)].

«الدين النصيحة»[(٦)].

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[(٧)].

«لا تظهر الشماتة لأخيك، فيعافيه الله ويبتليك»[(٨)].

«اليوم الرهان وغدًا السباق والغاية الجنة والهالك من دخل النار»[(٩)].

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطن»[(١٠)].

«أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به»[(١١)].

---

(١) صحيح الجامع [٩٤٣].
(٢) السلسلة الضعيفة [٦٣٤].
(٣) صحيح الجامع الصغير [٣٥٦٨].
(٤) ضعيف الجامع الصغير [٤٣٠٥].
(٥) أبو داود [٣٥٣٥]، وابن ماجه [١٢٦٤]. وانظر: السلسلة الصحيحة [٤٢٤].
(٦) مسلم [٥٥].
(٧) صحيح الجامع الصغير [٣٧٩٧]، وصحيح الترغيب [٨٨].
(٨) ضعيف الجامع الصغير [٦٢٤٥]، والمشكاة [٤٨٥٦].
(٩) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١١٨)، وفي الأوسط (١/ ١٩١)، وقال الهيثمي في المجمع (١٢/ ٢٣٤): «وفيه أصرم بن حوشب، وهو ضعيف».
(١٠) السلسلة الصحيحة [٢٢٦٥].
(١١) السلسلة الصحيحة [١٥٠٦].

«كل الصيد في جوف الفراء»[(١)].

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)].

«قل الحق ولو كان مرًّا»[(٣)].

«أحب للمسلمين ما تحب لنفسك»[(٤)].

«اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[(٥)].

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس»[(٦)].

«الصدق يهدي إلى البر، والكذب يهدي إلى الفجور»[(٧)].

«كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر أو أجذم أو أقطع»[(٨)].

«البخيل من ذكرت عنده ولم يصل عليّ»[(٩)].

«الأعمال بخواتيمها»[(١٠)].

وهذه الأحاديث منها ما هو في الصحاح أيضًا، ومنها ما هو في السنن والمسانيد، وهو في مرتبة الصحة ومنها ما هو في مرتبة الحسن، ومنها ما هو ضعيف رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أحسن موقوفًا على الصحابي، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٣٦٧)، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٦٧٦) دون إسناد.
(٢) صحيح الجامع الصغير [٣٣٧٨].
(٣) صحيح ابن حبان (٢/ ٧٩).
(٤) السلسلة الصحيحة [٧٢].
(٥) صحيح الجامع الصغير [٩٧].
(٦) السلسلة الصحيحة [٩٤٤].
(٧) البخاري [٦٠٩٤]، ومسلم [٢٦٠٧].
(٨) ضعيف الجامع الصغير [٤٢١٧].
(٩) صحيح الجامع الصغير [٢٨٧٨].
(١٠) البخاري [٦٦٠٧].

تمت ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، عدد كل طرفة وتنفس.

وقد أنهاه كاتبه بقلمه راجي عفو ربه وكرمه ومن لا غنى له طرفة عين عن فضله ورحمته عبده ابن عبده ابن أمته أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبيدة، غفر الله له ولوالديه ولوالديهم، ولمشايخه ولجميع المسلمين والمسلمات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، في سنة ١٣٢٤هـ. والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم صل على محمد وآله وصحبه[١].

❁ ❁ ❁

(١) في آخر المخطوط بخط الناسخ: «بلغ مقابلة وتصحيحًا على الأصل الذي نسخ منه حسب الطاقة والإمكان»، ثم كتب بخط حديث: «وارد من مكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

محتويات الكتاب

بعث الرجيع وحديث عضل والقارة.....٥
سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة.....٨
غزوة بني النضير.....١٠
غـــزوة ذات الرقـــاع.....١٤
غزوة بدر الأخيرة.....١٧
غزوة دومـــة الجنـــدل.....١٨
غزوة المريسيع.....١٨
فصل في فوائد شرح ألفاظ تتعلق بحديث الإفك.....٣١
غزوة الخندق وهي الأحزاب.....٤١
بعـث عبد الله بن عتيك إلى قتل سـلام بن أبي الحقيق.....٥٨
غزوة بني لحيان.....٥٩
سرية محمد بن مسلمة.....٦١
غـــــزوة الغابـــــة.....٦٢
سرية زيد بن حارثة.....٦٤
سريـة كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين.....٦٦
غزوة سيف البحر.....٦٨
غزوة الحديبية.....٦٩

غـــــزوة خيبر..... ٨٤
عمرة القضاء..... ١١٠
غزوةمؤتـــــة..... ١١٤
غزوة ذات السلاسل..... ١٢٠
سرية أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم..... ١٢٢
غــزوة الفتـــح..... ١٢٣
سرية خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني جذيمة من كنانة..... ١٤٦
فصل في الإشـارة إلى بعض ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف..... ١٤٩
غـــزوة حنيـــن..... ١٥٤
سرية أبي عامر الأشـعري..... ١٦٤
غزوة الطائـف..... ١٦٨
ذكر قصة كعب بن زهير مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ١٩٨
فصل في السرايا والبعوث في سـنة تسع..... ٢٠٤
سرية قطبة بن عامر في سنة تسـع..... ٢٠٨
سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب..... ٢٠٨
سرية علقمة بن محرز المدلجي إلى الحبشـة..... ٢٠٩
ذكر سرية علي بن أبي طالـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى صنم طي ليهدمه..... ٢٠٩
غزوة تبـوك..... ٢١٤
فصل في قدوم وفود العرب وغيرهم على رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٢٤٩
حجة الوداع وتسمى حجة الإسلام وحجة التمام..... ٢٩٥

ذكر أمر سقيفة بني ساعدة..... ٣٣١
ذكر غسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفينه ودفنه..... ٣٣٦
ذكـــر الـــردة..... ٣٣٨
ذكر مسـير خالد إلى العراق..... ٣٤٥
ذكر خبر الأسود العنسي وقتله..... ٣٤٧
ذكر خلافة عمر بن الخطـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٥٣
ذكر مقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٥٦
خلافة عثمان بن عفـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٦١
ذكر خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٦٧
ذكر مقتل عـلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٧٧
ذكر خلافة الحسـن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..... ٣٨٣
محتويات الكتاب..... ٣٩٧

تم بحمد الله